

أحمد مدحت سليم

لقائي صكائيات

رواية

دار دؤن

لقلبي حكاياتان

أحمد مدحت سليم: لقلبي حكاياتان، رواية

الطبعة العربية الأولى أغسطس ٢٠١٩

رقم الإيداع: ١٤٢٣٨/٢٠١٩ - الترخيم الدولي: 6-153-806-977-978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

أحمد مدحت سليم
لقلبي حكاياتان
رواية

دَوْن



لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

«كل الذين حاولوا القفز فوق أسوار الزمن ليتقدموا بضع محطات، أو ليتقهقروا، كانوا يُعانون من أزمةٍ حقيقيةٍ.. وحزنٍ كبيرٍ».

أحمد مدحت سليم

تراكمت السنون، إلى الحد الذي صار عنده الاحتفال بعيد الميلاد ثقلاً على القلب والأوعية.. ولكن متى انتبهت لما ينتابك من مللٍ وتساؤلٍ؟! وعافت النفس شتى الانفعالات، وثقلت عليها الأحاسيس الصاخبة، الجيد منها قبل السيئ، فمتى بدأت الأزمة ولأي سبب؟! وهأنذا تتأمل ما حولك بتعجبٍ سائحٍ يجوب ذاهلاً مدينة جديدة.. لا.. بل بفزعٍ مطارِدٍ يكتشف أن مطارده صار على بُعد نفسٍ منه، فمتى بدأت الأزمة؟! ومتى انتبهت لما ينتابك من مللٍ وفزعٍ؟! أفي العام الماضي؟! حين أطفأت ٤٩ شمعة؟! واليوم تطفئ الخمسين، فيا لها من رحلة طويلة!

طالما حملت فوق كتفيك جبلاً.. واليوم تنوءُ بحقلٍ بهيجٍ لن يستمر سوى ساعات، فانعزلت عن ضيوفك، لتجلس أمام الشباك المفتوح على مصراعيه مُعرِّضاً ذاتك للهواء الذي خالطه برودة لا تدري إن كانت تُتعشك أم تُثير مخاوفك الكامنة.

وأقبلت فايزة فانحنت فوق أذنه. وفعمَ أنفه عطرها المُلهم فضاعف من توتره، وسال فوَّقه شعرها الأسود، فبادرت ترفعه من الجانب الذي يواجهه، وهي تعتذر بضحكة منطلقة بينما تمسك بحرصٍ كأس البيبسي المألن. وهمست في أذنه وسط صخب المحتفلين وأحاديثهم الجانبية عالية الضحكات:

- ملحوظة صغيرة أحببت فقط أن أدونها: "دمك ثقيل".

فابتسم ساخرًا، كأنه يطمئنُها على حاله. فقالت عابثة في دلال:

- حبيبي صار في الخمسين وقريبًا يشيخ فأطلب الخلع!

لم يزد عن الابتسام هازئًا بتهديدها المرح، وبمحاولاتها المتتابعة لانتشاله من صمته الذي لا تدرك بواعثه. فقالت مرة أخرى وهي على سمتها المعتاد في التلطف مع متاعبه بلا كثيرٍ إلحاح:

- دمك ثقيل.. وضيوفك سيترمون من عُزلتك.

أشاح برأسه ببساطة كأنما يؤكد أن رصيده لديهم أكبر من ذلك، ثم لثمَّ خدها في مودّة صادقة، فاعتدلت في امتنانٍ وهي تقول:

- تذكُر أن غدًا حفل مدرسة علياء؟! لا ترتبط بمواعيد صباحية.

هز رأسه موافقًا، فتركت في يده الكأس بعد أن رشفت منه بدلال رشفة صغيرة كقُبلة. وانسحبت بجسدها الرشيق فاندست وسط مجموعات متتالية من المدعوات من صديقاتها وزوجات أصدقائه، فتابعها في شروء كأنما نسي أن يرفع عنها عينيه.

الزوجة الحبيبة.. وربّة البيت والقلب الحاكمة منذ خمس عشرة سنة.. ومن حُسن الحظ أن الزمان قد تجنّب إيذاءك يا فايزة، فبقي جسدك رغم أعوامك السبعة والأربعين كبنيت العشرين. بل كسيدةٍ ناضجة في أواسط الثلاثين.. مثالية تمامًا.. ولكن ما دواء المَلل؟! وهذا المرض الغامض الزاحف على الروح قادمًا من المجهول.. داعيًا إلى مجهول؟!!

ورشف من البيبسي بلا وعي كأنه فقط يتخفف من ثقل الكوب في يده. وسحب نفسًا عميقًا من نسيمات الشباك العريض المفتوح عن يساره، أملًا أن يستعيد نشاطه ليتمكن من مشاركة ضيوفه الاحتفال في الساعة المتبقية من الحفل.

أهي نوبة اكتئاب يا طارق؟!!

طالما سمعت عن نوباته القاتلة، فهل كُتب عليّ أن أجربها في الأيام التي أوشك فيها أن أنعم بالراحة بعد رحلتي الشاقة؟!!

كما ضاق النَّفس كثيرًا في الأسابيع الأخيرة، فهل هي أزمة ربو؟! ما شكوت يومًا من صدري، فما الذي يخنق أنفاسي؟! أهو الملل العارض والاكْتئاب؟! أم تَلَف يُلْم بالصدر وبالأوعية التي طالما جرت فيها الحياة ببهجات وأحزان تعز على الحصر؟! ويضيق الأفق أيضًا أمام عينيَّ خُطوةً بعدَ خُطوة، كأنما أوشك أن أصل إلى النقطة التي تنطبق فيها السماء على الأرض! وإذن.. فأني أملُّ للنجاة يُرجى من وضع كهذا؟! هل أنجح مثلًا في ثقب ثغرة بجدار الزمن الصلب فأنفذ إلى أفقٍ جديد؟! ولم لا؟! ثغرة صغيرة.. بحجم أسبوع واحدٍ تقضيه بصحبة بيريهان في هامبورج! أه.. لم صارت تُراودني تلك الآمال العجيبة؟! ومتى نبتت تلك الأمانى الجنونية؟! أهى عرضٌ من أعراض المرض الغامض؟! ما أعجبه من مرضٍ.. إذ يعلقني بالمستحيلات، ويحاصرني عند زاوية الأفق الحادة، ويراقب عجزني عن النجاة.

وما أعجب أن تهبّ برودة مُنعشة كلما وَرَد اسم بيريهان! وصاحت فايضة من موقفها وسط مجموعة من السيدات بطرف البهو الواسع:
- بابا.

انتبه إلى سبّابتها التي تشير إلى الطرف الآخر من البهو وهي تقول:
- دكتور محسن يناديك.

التفت إلى حيث تشير، ورفع يديه، ثم قام متثاقلاً..

أنبأته ضحكاتهم الودودة المتخابثة وهو يقترب بأنه كان محورًا لحديثهم، فابتسم وهو يجاهد الفكر الثقيل. ثم قال بما استطاع من مرح:

- كفانا الله شر اجتماعكم.

فقال دكتور محسن بلا تكلف:

- تترك ضيوفك لتجلس أمام الشباك؟! هل تمارس اليوجا؟!!

ضحك وهو يداري توتره:

- أبدأ.. يبدو أنني أثقلت في العشاء.

وأفسحوا له مكانًا فجلس بجوار دكتور محسن الذي استأنف حديثه الساخر:

- يتساءلون عن سر انعزالك فطمأنتهم بأنك الآن تتأمل في الشمعات الخمسين التي انطفأت، ولا تُفكر سوى في زيجةٍ جديدةٍ وفتاةٍ بكر تُعيد الشباب.

اضطرب لقول صديقه، رفيق العمر وطبيب الأمراض النفسية الشهير، ولكنه رد بنظرةٍ حاول إيداعها كل ما يملك من استهتارٍ ومرح، وهو يهمس:

- الزوجات يملأن الحفل كرجال المباحث، فلا داعي للمزاح الذي يُعكر الأمن!

قهقهوا، فقال إمعانًا في مُداراة عواطفه المرتبكة وهو يشير إلى أحد الأصدقاء:

- وإن يكن.. فلا مانع عندي من الزواج إذا منحني دكتور علي إبراهيم تخفيضًا على سعر الليلة بالعناية المركزة بمُستشفاه!

ارتفعت ضحكاتهم مرة أخرى وقال دكتور علي إبراهيم:

- بل أتكفل بمصاريف العناية المركزة بالكامل إكرامًا لفدائيتك وريادتك.. وفوقها مصاريف الجنازة أيضًا.

انفجروا في الضحك، وتدخل دكتور حاتم وهو يضع طبق الجاتوه الفارغ على الطاولة أمامه ريثما تهدأ عاصفة الضحك:

- لمَ هذا التشاؤم يا عالم؟! ألا ترون أنكم تبالغون؟! إننا لم نَشخُ بعد.. كلها خمسين سنة.. يعني عز الشباب.

فقال دكتور محسن بين ضحكاته:

- كل سنين الرجل هي عز الشباب! ألا تلاحظ أنهم قالوا لنا ذلك ونحن نتم العشرين، ثم ونحن نتم الثلاثين ثم الأربعين والخمسين؟! وغالبًا يظل الرجل مقتنعًا بأنه في عز شبابه حتى وهو يخطو نحو المائة!

ضحكوا غرابة ملحوظته وصحتها، فعاد دكتور حاتم يقول بإصرار:

- لا غرابة في ذلك وعن تجربة.. فجدي تزوج في الخامسة والسبعين.. وأنجب عمتي الصغرى وهو يقترب من الثمانين.

لكن دكتور محسن قال وهو يشيح بيده:

- كان هذا أيام سِتي وسِتك.. الأزمة اليوم يا عزيزي لا تتعلق بالقدرات الصحية فقط.

ثم وهو يشير بطرف خفي نحو الزوجات المتفرقات في البهو:
- الأزيمة في هؤلاء الفيمينيسست.. فإنك إن نجوت من ذبحة القلب ليلة الدخلة، فلن تتجو بلا أي شك من كسر قاتل بالجمجمة حال افتضاح زواجك الجديد.
وقهقوها مرة أخرى. فقال دكتور علي:
- وقد تتجو من القتل، ولكن بعد أن تفقد في المعركة عضواً أو اثنين.. وربما كان العضو الحبيب هو أول المفقودين فتعظم الكارثة.
انفجرت ضحكاتهم حتى غطت على لغط النسوة المرتفع. والتفتت أكثر من واحدة نحو زوجها، فعادوا سريعاً للهدوء! وقال دكتور علاء وهو يُخفي ضحكاته:
- الله يخرب بيوتكم.. غيروا الموضوع ولنؤجل ذلك الحديث الممتع للقاء قريب مطول.. فضحكوا.

ولكن.. لا ضحك.. لا بهجة حقيقية.. لا أمل.. فقط تهتز عضلات صدرك وتتفرج عضلات وجنتيك فيتوهمون أنك تُشاركهم الضحك.. وكلما تشعب حديثهم غبت أكثر.. وكلما رأيت سعادتهم ازدادت حنقا وتساؤلاً عما يمكنه أن يكون سبباً في أي سعادة؟! وكلما لمحت بالأعين اهتماماً تساءلت: «ما الذي يستحق الاهتمام؟!». ولكن متى انتبهت لذلك؟! متى صارت كل الأحاديث مُملة؟!!

هذه الأحاديث وهذه اللقاءات الحميمة طالما كان أحد أقطابها، وهاهو ذا اليوم لا يجد معنى لها.. ولا فائدة من حديثٍ إلا أن يدور حول بيريهان! وتذكر هامبورج ودعوة المؤتمر النائمة على مكتبه كفتة، فافتتر ثغره عن بسمة.
وما أعجب جفولك وأنت تُسلمها صورة من الدعوة.. وحديثك إليها بلسان مضطرب كأنها تطلع على ما يدور بالبال من أمانٍ عجيبة:

- أريدك أن تبحتي وسأنتظر منك في الأسبوع القادم تقريراً عن هذا المؤتمر!
ولكن هل تنسى نظرتها الساجية وهي تُودعك قبل الخروج من المكتب؟! ما معنى هذا؟! بل وما معنى أن تهب تلك البرودة المنعشة كلما وُرد اسم بيريهان؟!!

- ما أجمل اسمها!.. اسمعي.. «فايزة».. إنني ما أكاد أنطقه حتى تتلون الدنيا وتضحك.. وتختفي صعايبها الكئود.. بل إنني لم أردده في سيري إلا وتناهى إلى وجداني شدو فايزة أحمد منغومًا بدقات قلبي.

- عجيب أن تتذكر الحب مرة أخرى في هذه السن.. والأعجب أن تغرق فيه كأنك مراهق..
ولكنك غنيت بلا حياء:

- «آه لو قابلتك من زمان...».

- هذه وردة لا فايزة أحمد!

- ليكن! فكل حبّ يليقُ بفايزة.

- هذا أجمل ما سمعت يا طارق.. الحمد لله الذي شفاك من سمّ نوران.

وتضحك غير عابئ بالاسم القاتل وبلمزتها التي كانت تدميك في زمن سابق..

انتهى الحفل، وانصرف المدعوون.

وفي غرفة النوم، تلاً لأت فائزة، على ضوء أليلكات الحائط الخافتة، بقميص نوم أبيض، مشتعلةً بفتنةٍ لا يدري متى ستخبو.. ومن عجبٍ أن استيقظت دماؤه وفارت كدأبه منذ خمس عشرة سنة، برغم الأفكار السود وبرغم الملل الخانق.

واعترضت النشوة فكرة غامضة تدعوه من جديدٍ لیتساءل: وماذا بعد كل ذلك؟! فوجم للحظة، لكنها اقتربت منه تفك أزرار قميصه، وقالت بدلال وفحيجها يلفح وجهه:

- إذا تسامح أصدقاؤك مع ثقل دمك.. فأنا لا أتسامح مطلقاً.

ثم همست وهي تسقط على طرف السرير، ثم تتلوى متقلبة حتى مركزه، مُعرضة لعينيهِ مفاتن متتالية متنوعة:

- أصحیح يا طارق أن الرجال يفقدون عند الخمسين كلَّ عقليهم وبعضاً من قوتهم؟!!

ابتسم في ذهولٍ لتحريضها الماكر، وهو يتشمم عطرها المثير الداعي. ثم هاجم قاذفاً بجسده في فوهة من الجحيم طالما انصهر فيها بكليته.. مؤجلاً التفكير فيما تعنيه بما يفقد الرجال عند الخمسين..

دارت المعركة المعتادة كأحسن ما يكون.. وأبلى بلاءً رائعاً لم يتوقعه هو نفسه.
ولكن.. ما بالها المشاعر الملتهبة لا تلسعه؟! لا تمسه.. لا تخصه.. المشاهد تتابع أمام عينيه وبين
أصابعه بهية مفعمة بالقوة والعافية والإثارة.. وهو.. يحسن الأداء.. يذوب في الكيان المحبوب بعشقي
صادق.. يلمس ويُقبَّل ويحاور ويناور وينغرس بكل كيانه في البئر الساخنة.. ولكن.. ها هي المشاهد
جميعاً تدور بالأبيض والأسود! لأي سبب بهتت الألوان؟! وقطرة من الفكر الخائن سقطت في كوب
الخمير الجنوني فمررتها.. وصارت الأفعال الحميمة بلا معنى حتى تفرزت نفسه.

هل يتتبعني الملل إلى غرفة النوم، ليفسد النشوات القليلة الباقية كما أفسد الصداقة والعمل؟!
ولكنه بدافع من الوفاء والعشق الراسخ والرغبة في الثبات في وجه العدو الغامض، احتفظ ما
أمكنه بظاهر الجنون والأفعال أمام هجمات الملل.

وأخيراً قذفته الموجة الكبيرة منتصراً إلى الشاطئ، فارتدى على ظهره مُخْفِياً وساوسه خلف
ابتسامة شبع معتادة. وفتحت هي عينيها بعد دقيقة، فطالعتة بنظرة مفعمة بالسعادة والارتواء، ثم
زحفت نحوه في دلال بجسدها الواهن، وأراحت خدها على صدره العاري وهي ترنو إلى عينيه:
- كل سنة وأنت طيب.. وإلى الأبد.

فضحك وهو يرسل قبلة في الهواء، تَلَقَّتْهَا بَغْبُطَةً وهي تغمض عينيها بينما أناملها تداعب رقبتة..

لم يعرف كم مضى من الليل حين وجد نفسه منتبهًا في الظلام. لبث لدقائق يحملق في الظلمة الكثيفة لا يدري ما هي الفكرة التي تسيطر على باله تحديدًا. ثم لم يلبث أن استرجع متاعبه الخفية، فاستجاب لنداء ذاته المملولة.

زفر، ثم هبّ في ضيقٍ، وانسل من السرير واضعًا قدميه في الشبشب وهو يتناول علبة السجائر والولاعة. قام يتحسس خطاه، وفاجأه صوت فائزة في الظلام:

- طارق!

ضايقه استيقاظها، ولكنه رد ببساطة دون أن يتوقف:

- سأدخل سيجارة في التراس.

- كنت نائمًا تمامًا، ولكنني أزعتك فيما يبدو عند عودتي من الحمام.

إذن فلم يستيقظ بلا سبب، وقال:

- ولا يهملك.. سأدخل سيجارتي وأعود.

أضاءت الأباحورة فوق الكمودينو. فدهمته الإضاءة المفاجئة رغم ضآلتها، فأغمض عينيه وهو يخفي وجهه بكفه الغليظة. واعتذلت هي قائلة:

- أنت بخير يا طارق!؟

تحاشى الضوء والتحقيق وهو يكمل طريقه نحو باب التراس. وهمس:

- مشاكل الشغل لا تنتهي.

- ولا حُبنا.. أليس كذلك!؟

- ماذا تقولين!؟

- طارق.. ثق أنني أعرف تمامًا أزمته.. ولكنني لست كهؤلاء النسوة البائسات اللاتي يحسبن كل أزمة تلم برجلهن هي نهاية العالم.

لم يجد بُدًا من أن يبتسم لينكر مخاوفها، ثم قال بحنان:

- تصبحين على خير يا روبي.

انسحبت من النقاش بذكاء، وقالت ببساطة مثيرة، وهي تشير إلى الروب المعلق على الشماعة:

- لا تخرج بالبيجاما.. لساعات الخريف صعبة.

تناول الروب، وهي تحدجه بنظرتها المشفقة حتى غيَّبه الستار الحريري للتراس. أغلق خلفه الزجاج، فأطفاَت النور واندست تحت الغطاء الدافئ..

أنفاس الحديقة ملهمة.. وبرودتها قرب الفجر توظف القلب وترتبت على مخاوفه.
زيارة عابرة وغير معتادة للطبيعة التي تقوم على بُعد خطوات منك! كفتت عن طلب الراحة
والتأمل منذ عهدٍ بعيد.

وتأمل الحديقة.. هي أوسع مما يظن.. وأشجارها التي انتقتها وغرستها فائزة.. وأغصانها التي
تغفو في ظلمة لا يكسرهما غير ضوء مصباحين فوق مدخل الحديقة.. أكبر من التي يتذكر أنه
شاهدها في آخر زيارة لها.. واستراح في كرسيه رافعاً رأسه للسماء وهو ينفث نفساً محملاً بالدخان.
وجذبتة النجوم المغروسة في سماء داكنة فأطال النظر إليها وإلى السماء.. ثم اعتدل..
رباه.. إننا مُحاصرون!

وأدهشه فزعه غير المُبرر وهو يدور ببصره طويلاً وعرضاً، فتأكد من جدية أزمته.. أهي أكبر
من مجرد الملل والاكتئاب وما يمكن من أمراض عضوية؟!
هل أجنّ؟!!

ويختلق بغصة فزع جديدة.. ولكن تساؤلات أخرى تومض في الظلام كأنها أضواء تحذيرية
لسفينة جانحة.. فيتساءل في قلق مهموم: هل تعرف فائزة حقاً أزمتي؟! طالما أمنتُ أنها نافذة إلى
عُمق أعماقي بلا وساطة ولا دليل.. فهل تعرف أزمتي؟! ولكن كيف تتصور فائزة وجود أخرى،
وأنا مضرب الأمثال في الوفاء ظاهراً وباطناً؟! وكيف تفسر- إذا سلمنا بمعرفتها للأزمة- جنوني
الأخير؟!!

وأحنقه بغتة أن يشعر بافتضاحه أمامها لتلك الدرجة.. وتساءل: حتامَ يبقى موصولاً بحدس فائزة
النافذ؟! وتساءل وهو يرمق السماء: «كيف أنفذ من تحت القبة الخانقة؟! رباه.. أي سجن؟! طالما
وجدت على الأرض جميع ما أشتي من نجاحات العمل والحب.. وطالما كانت السماء دواءً ومسكناً
معيناً على قسوة الطريق.. ولكن ما أحكمه من سجن!«.

وهبت نسمة وانية من أنفاس الليل فراغ من فزعه، وأغمض عينيه وهو يسحب نفساً عميقاً من
سيجارته، مُصغياً لهمسة من الذاكرة هبت بغتة كأنها الغناء:

- نجاح سعادتك وعبقريتك تغري كل من يعمل بالمجال لأن يتعلم هنا.. لذا أتمنى أن أنضم إلى
شركتكم.

ووافقت على تعيينها.. ومن عجب أنك لم تلتفت لما وراء النبرة الرقيقة من لهيب إلا بعد شهر..
بيريهان.. أهي منشأ أزمته؟! ربما.. وإلا فلم يصادف ظهورها هذا الملل المرعب الذي يقتلني ببطء
كالسم؟! ولكن كيف تطمع أن تكون هي دواءك أيضاً؟!!

استيقظ عند التاسعة. وهي منحة لا ينالها إلا في الجمعة والسبت. فالعادة طوال الأسبوع أن يكون على مكتبه في الثامنة صباحًا. ولكنه ينعم هذا «الأحد» باستثناء عارض، بسبب حفل علياء السنوي. وأقبلت فائزة بصينية الإفطار وفنجان قهوة وابتسامة رائقة، فاعتدل في كسل حتى وضعت علي السرير حملها، وطبعت ابتسامتها قبلة على شفثيه، ثم جلست قبالتة وهي تقول كأنما تستكمل حديثًا كان يتردد بقلبها:

- لولا علياء ما فطن أحد أننا نكبر.. أو أنه مر على زواجنا خمسة عشر عامًا!

غافل ضجره، وأنعم النظر في ملامحها العزيزة وهو يقول بعشق صادق:

- فلنَبْقِي شَابَةً إِلَى الأَبَدِ.

فقالَت بمكر:

- هذه الدعوة لك أم لي؟!!

ضحك متسائلًا، فقالت:

- تتمنى دوام شبابي.. ليطول عمري، أم ليطول استمتاعك بي؟!!

انفجر ضاحكًا وهو يُخفي سحابة كدر عبرت فأوشكت أن تظلل نظرة عينه، إذ ذكّرتَه دون أن تدري بالعمر الذي يزحف نحو دهاليز رمادية. ومد يده ليتناول علبة السجائر من فوق الكومودينو، فقطعت بيسراها الطريق أمام كفه، ودست في فمه لقمة مغموسة بالعسل الأبيض وأتبعتها بقبلة خاطفة، ثم قامت مسرعة وهي تحل رباط الروب، فانزلق عن جسدها العاري الرشيق كالإسباجيتي، وقالت من أمام الدولاب المفتوح وهي تبحث بين الفساتين المعلقة:

- أنه فطورك وسارع بارتداء ملابسك لنصل في موعدنا.. علياء حلفتني ألا نتأخر.

ورمق جسدها الأبيض، الذي يحاول الثبات فوق قمة الأنوثة التي تسبق الانحدار، وهو يلوك لقمة العسل باستمتاع وتفكر.

هل يحق لمثلي -من المُنعَمين- الضجر؟! ومن أين يتسرب الملل ما دامت السماء مُحكمة

الإغلاق؟!!

متى كبرت علياء إلى هذا الحد؟!!

جسدها يسبق سنوات عمرها الأربع عشرة بعامين على الأقل.. وأي نشوة تمطر فوق القلب وأنت تشاهد خروجها على المسرح في ثياب «سنو وايت»؟!!

وصفق الجمهور الكبير، وقبضت فائزة على كفه لتشاركه انفعاله، وهي شاخصة بكل كيائها إلى ابنتها الجميلة المتألقة تحت بؤرة الضوء على المسرح المدرسي الضخم. وأفلتت منه أيضًا دمعة حانية، إثر غصة مبهجة خنقت حلقة وضغطت على عينيه.

ما أجدر هذه البهجات أن تصد عنك مرضك.. ولكن ما أشبه تلك البهجات بالندى الذي سرعان ما يزوب تاركًا سطح الورقة للهبب يستمر حتى الأصيل.. وإذا أردت الحقيقة فهذه البهجة لا نصيب لك فيها إلا القليل.. فالنجاح نجاح علياء والحياة حياتها.. أما حياتك أنت.. فمن يمنحني القدرة على حلها وإعادة تركيبها من جديد علي أنجو من الملل؟!!

حقًا؟! كيف يجرك المرض إلى جنونٍ لم يخطر ببالك من قبل؟!!

هل سئمت السعادة والحب؟! هل عرفت البطر بعد الرضا؟! فمتى؟! ومن عجب أنك لا تجد موضعًا بذاته يجب عليك تعديله.. بل إنك كنت لا ترى عيبًا واحدًا فيما تجري به حياتك حتى وقت قريب.. فما الذي تروم تغييره إذا أتحت لك الفرصة لتحلل حياتك إلى عناصرها الأولية ثم تُعيد تشكيلها؟! وماذا تنشد إن فعلت؟! هل تتخلص مثلًا من فائزة وعلياء؟! أم من الشركة والعمل والأصدقاء؟! أم من قرارك بتعيين بيريهان في الشركة؟! أم تستحلف أمك أن تعيد النظر في عنادها العجيب وقرارها القديم؟! ماذا؟! ماذا؟! القصة القديمة! أمك ونوران؟! كيف تذكرت ذلك؟!!

وصفق الجمهور من جديد وعلياء تسقط إثر قزصة من التفاحة المسمومة.. وانتحبت أمها، فانقبض قلبه بلا وعي، وقال: إن زوال الدنيا أهون من أن يمس فائزة وعلياء شر.

ورفع رأسه فدارت عيناه على أطراف السقف الضخم، فهزته رعدة قلق كالتي هزته اليوم عند السَّحَر.

كل شيء مُحكم الإغلاق، يسيطر عليك تمامًا كفايزة وكقبة السماء وكالعمر الذي لا يعرف إلا مسارًا واحدًا، فمن أين سينسحب الملل؟! وأين المهرب إن أردت الهروب؟! وأين أنشد الأمل؟! ويتذكر مرة أخرى الدعوة الملقاة على مكتبه.. فتتجاب التساؤلات العميقة وتبزغ أسئلة أيسر وأقرب للحل!

متى تحوز كنز الجنون حتى يسعك أن تطلب من بيريهان ببساطة أن ترافقك إلى هامبورج كما تكلفها بأي مهمة من مهام العمل؟! ولكن هبك جُننت فكيف نُجن هي؟! وهل تتلقى طلبك بابتهاج أم بسوء ظن؟! مرة يقول خيالك لن تضر التجربة ومرة تحجم عن التفكير في ذلك كأنه العار! ورغم ما صار يمتد بينكما من حبائل ودّ خفي فإنك لا تتي تتشكك في قصد الفتاة الصغيرة من وراء ذلك الود! ورغم ما تفحّ فيك نظراتها من نيران، وما تكوي به أحاديثها الناعمة خيالك الملتهب، فأنت ثابت كجبل تنصهر بداخل هيكلك البارد الرززين حمم موقدة.. تراقب وتتساءل عما تروم الفتاة العجيبة؟! لم تتقرب منك الماكرة؟! ورغم إقبالها فإنك تحاذر أن تعرض للسوء سُمعتك المصونة طيلة عقود؟! وتتساءل في كل وقت: أأنت منشأ أزمتي أم أنك دوائي يا بيريهان؟!!

وانتهى العرض، فتلقى ابتسامة علياء المغتربة فوق المسرح وهي تحيي الجمهور كومضة ضوء في السماء المظلمة، وبادلها التحية باليد والعينين وقبلة في الهواء قبل أن يُغلق الستار. وابتسم وهو يرنو إلى فائزة التي لم تتخلص من نهنات انفعالها بالمسرحية. وفاجأه ابتهاجه حين تذكر أنه بعد ساعة سيكون بالمكتب.. أو.. بعد ساعة سيلتقي بيريهان.
فهمس: ما أيسر العلاج لو صمت الضمير لدقيقة!

جعل طوال الطريق يراقب فائزة التي غابت في تأملاتٍ يثق أنها جميعًا لعلياء ابنتها. وجعل يبتسم بين الحين والحين كلما أخرجت مندليها لتعالج أنفها المتهيج بفعل البكاء في المسرح. وأمام باب الفيلا، مالت فائزة فلثمت خده بحنانٍ عاشق، ثم غادرت السيارة وهي تخفض صوتها لئلا يسمعا البستاني القريب:

- باي يا بابي.. لا تتأخر.

ثم بمداعبة وغنج وهي تدخل رأسها من الشباك لتهمس:

- تذكر أنني في انتظارك.

ما أمهرها حين تستبدل في لحظة شخصيتها الرزينة بأخرى مبتذلة بفعل ذكائها الأنثوي الكبير. وتأمل سيرها ببنيانها المتناسق وعجيزتها المكتتزة تحت الجيب الضيق، فتحرك دمه، ولكنه تساءل وغصة بيد الضمير تضغط صدره: من أي ثقبٍ إذن يتسرب إلى قلبك الممل؟! وما هو الأمل بعد كل ذلك؟!

بيريهان.. أخيراً.

سطعت بسمتها وقد خرجت تستقبله عند باب المصعد لتكون أول من يلقاه. ورغم انشراح فؤاده ورغم شوقه، دارى مشاعره الملتهبة ببسمة صغيرة محايدة وهما يتواجهان عند باب المصعد، ورمى ببصره في قلق إلى مكتب السكرتارية على بُعد أمتار. لكن بيريهان لم تدع له فرصة للقلق، فقالت وهي تقسح له الطريق وتدخل إلى المصعد:

- عن إذنك يا دكتور طارق نسيت بعض أوراقى فى السيارة.
وانصرفت، فبدأ استقبالها له عفويًا، وإن أيقن هو من عمق بسمتها التي مزقته كالعادة أنها تتفعل كل ذلك لتكون أول من يلقاه، ثم لا تلفت الأنظار رغم ذلك.
يا لها من بهجات كالسيل تجتاح القلب العليل.. ولكن لم تفعل الماكرة كل ذلك؟! آه.. ما أزهق القلب الضجر فى مزيد من التساؤلات!

ودخل مكتبه، فتبعته نانسي - كبرى السكرتيرات ومديرة مكتبه منذ أعوم طويلة- بأوراق هامة. مظاريق لمناقصات، وطلبات صيانة، وفواتير متنوعة، تحتاج كلها توقيع. تلقى دخولها خلفه، وما يعنيه من عمل كثير بامتعاظ وكدر. وأمسك بالقلم وهو يستجمع حماسه المشتت. وجاهد ليتمسك باتزانه وحرصه على الشركة، ونادى حزمه الذي صاحبه عمراً طويلاً ثم ها هو يوشك أن يتخلى عنه بلا سبب كصديق يموت بالسكته!

وأزاح بعض الأوراق التي تضعها نانسي على المكتب، ليتناول دعوة المؤتمر من تحتها!، ثم يضعها بمكان واضح فوق الكيبورد وهو يستكمل توقيع الأوراق بلا انتباه، متسائلاً بجميع حواسه الخفية: متى تعود بيريهان؟!

وخرجت نانسي، ودخل الأوفيس بوي فوضع على المكتب كأس الماء البارد وفنجان القهوة. مرت ساعتان على الموعد المحدد لهذا الفنجان، ورغم الصداغ الذي بدأ يزحف على صدغيه، فإنه لم يمسه. بل جعل يتأمل حجرة مكتبه بعين جديدة كأنه سجين!

وذات يوم قالت دكتورة بهيرة – ابنة خالتك وصديقتك المزمنة- في كافيتريا مستشفى كليوباترا وأنتما تحتسيان القهوة أثناء الراحة:

- فايضة! لا أصدق ما أصابك.. أنا سعيدة لأجلك ولا شك.. ولكن هل يحدث كل ذلك بلا مقدمات؟! ستغير حياتك كلها من أجلها؟! وماذا غيرك؟! ها أنت تسير نحو الخامسة والثلاثين، فلماذا تقرر الآن الاتجاه للتجارة وافتتاح شركة؟! ألم يكن رفضك نفس هذا القرار سبباً في انتهاء علاقتك بنوران حُب عمرك؟! وقضيت عشر سنوات كاملة كالراهب في معبد الطب.. ثم تقرر فجأة أن تتجه للبيزنس من أجل فايضة!؟

وكنتمت عنها ما كنتمته دائماً.. الجرح الشائك الذي تحتفظ بألمه بين الجلد واللحم رافضاً أن يعرفه مخلوق.. اللقاء العجيب بين نوران ودكتور هاني وملامحها المشدوهة لحظة دخولك المفاجئ مكتبه.. والشك الذي لم تستطع الجزم به.. وحُبك المريض لنوران الذي أنقض همتك في معرفة الحقيقة.. فبقيت النظرة الفزعة بين الشك واليقين لا تقتلك ولا تتركك وشأنك.

وقلت لبهيرة باستهانة وأنت تكتم انفعالاً نارياً:

- ربما لأن فايضة تستحق التضحية.. فايضة حُب عمري الحقيقي.

وقالت في تساؤل قلق:

- وهل ستعتزل الطب نهائياً!؟

ولكنك كنت قد أدمنت الغناء، فلم تعر حديثها أهمية، وقلت:

- وبدأت أتعرف على فايضة أحمد لأول مرة هذا الشهر.

وضحكت بهيرة وهي تقول:

- لولا ثقتي بعقلك وأخلاقك لقلت إنها نزوة.

وغنّيت:

- آه لو قابلتك من زمان.

- هذه وردة لا فايضة أحمد يا دكتور!

وتذكرت أمك قديماً وهي تهتف بصوتها المتهدم:

- هذا نقاش غير مقبول.

- ولكن يا ماما...

- هذا غير مقبول.

وتشفق على المرأة التي يهتز عودها الجاف بعصبية، وتصلك غمغماتها وهي تقوم إلى الشرفة هاربة من الحديث معك:

- نتعب طوال عمرنا ثم نُضيع تعبنا ونُضحى بالطب لأن الغندورة تريدك أن تعمل في شركة..

فليبر حُسادى كيف يفكر الدكتور ابني!

وانتصرت لأمك، وصمدت صمودَ ابنِ بارٍّ في وجه العاصفة، وبعزيمة يصعب وصفها صارحت

نوران بقرارك. ونوران تُحملك فيك غير واعية لما تقول، تكذب أذنّها ثم تقول بعد برهة:

- لا أصدق أنك تبيعني بهذه البساطة!
ولكنك لم تلتن، بل تمسكت بموقفك فيما يشبه الجنون. وكتمت عنها ما كتتمته أبداً.
وقلت لبهيرة وأنت تضحك:

- وردة أو فاييزة أحمد! كل حُب يليق بفاييزة الجميلة.
وباركتُ بهيرة الحب الجديد بكل قلبها.

كيف يموت كل ذلك بلا مقدمات؟! ولم يُصيبك الملل بلا سبب ألبتة؟! وكيف تصير فاييزة والحب والشركة والنجاح سجنًا؟! وكيف أفسحت بجوارها مكانًا تتراقص فيه أخيلة بيريهان المثيرة؟! وكيف تحولت بيريهان من موظفة جديدة بالشركة، لحلم عسير المنال؟! ولو كنت منفلتاً أو بصباصاً لفهمت لم تستحوذ بيريهان على عقلي لتلك الدرجة.. ولكني لم أكن يوماً- مذ وجدت فاييزة- إلا مثلاً للاستقامة.. فكيف تعقل أو تفسر أنك بعد هذه الرحلة الطويلة تجلس كطفلٍ بليدٍ في انتظار فتاة في الخامسة والعشرين؟! وتجاهد لتبعد عينيك بصعوبة عن دعوة هامبورج التي تلتهم بجنون لا حد لإغرائه.. لا شيء يحدث في الكون بلا سبب.. فلمَ أمرض بالملل في هذا الوقت؟! والأمل كله.. في ضربة قوية تنقب السماء عند موضع الأفق الخانق.. وأن ينتهي الحساب فلا يصير مرور الزمان ساحباً وراءه أعمارنا فعلاً مزعجاً.. الأمل كله في ثورة عارمة تقوض مملكة العقل والضمير فلا يؤجل جنون اليوم إلى الغد.. فربما أمكنني وقتها أن أولد بعمر جديد بديلاً عن هذا الذي ينذر بالوداع.

هاهي ذي بيريهان أخيراً تطرق الباب طرقتها المميزة والمحبوبة.. فودع ذاتك.. لتستقبل النسمة الرائقة بانتعاش المجنون الذي يخرج للشارع بلا ملابس.
وهمس بصوت مبحوح بفعل الاضطراب:
- تقضل..

من ثغر تأتلق شفاهه بطلاء عجيب فيلتمع كأنه حبة كرز مُبللة بالشهد، قالت بصوت منغومٍ بعد أن أغلقت الباب:

- يرضيك يا دكتور!؟

ويتساءل في دهشة مثل طفلٍ، وهو يتابع وجيب قلبه الآخذ في الارتفاع لاقترابها من المكتب، ثم تهيؤها للجلوس على الكرسي أمامه، ثم التماع حدقتيها العسليتين من مجلسها تحت شعاع الشمس الساقط من الشباك على يسار مكتبه:

- ماذا!؟

- انتظرت حضرتك منذ الثامنة.

- حقاً!؟

- وكلما سمعت حركة في الباركينج أهرع إلى شباك مكتبي فيخيب ظني.

فاجأه قولها. لم يفهم لمَ انتظرته بهذه اللهفة، ولكنه شعر بغصة وندم على أن جعلها تنتظر! لم يفهم سوى أنه كان في بالها، وأنه كدّر بالها بتأخره، وربما ضاعت فرصة، مهما كانت هذه الفرصة! ندم بصدق، ولكنه تذكر توهج علياء تحت بقعة الضوء وسط تصفيق الجمهور، ووداع فائزة وغنجها عند الفيلا، فتحرك باطنه بحركة ضمير لا يزال حياً رغم جدة مرضه الخطير. لذلك حاول-جاهداً- تغيير الموضوع، فقال باقتضاب:

- اضطررت للذهاب لمدرسة علياء.

اقتربت أكثر حتى انبعج نهدها الشامخ على حافة المكتب التي تحازي صدرها، وهي تقول في انتباه وقلق:

- خير!؟

فقال في شرود:

- خير.. لا شيء.. الحفل السنوي للمدرسة.

- ربنا يحفظها لك.. كم عمرها!؟

- أربعة عشر عاماً.

لكنها تجاهلت التعليق كأنها تُتْهي الحوار فجأة. وتراجعت في كرسيها بارتياح وهي تستكمل حوارها الأول:

- كل الحكاية أنني وددت أن أكون أول من يقول لك: كل سنة وأنت طيب.

رنت جملتها رنة غريبة.. شيء في الحروف في غير موضعه.. هل لأنها تتحدث بصيغة الصداقة بغير ألفاظ مثل سعادتك وحضرتك!؟ أو أن قلبه هو الذي تغير موضعه.. الجملة العجيبة شحنت بيريهان حروفها بمُخدر أو مُسكن نادر.. الجملة التي يسمعا منذ يومين من جميع الأصدقاء والمعارف، تتخلق الآن في روحه وتتحول فتصير جناحين.. وتوشك أن تتصدع لها جدران السجن.. جدران المكتب الخائفة.. لينفذ إلى الفضاء من جديد.. أه.. بمثل هذه البهجة سأشفي ذات يوم!

ما أحر تلك الشفاه المفعمة بالشباب! وما أحر ما ينبعث منها! وكيف تلمع بهذه الدرجة!؟ ماذا

تضعين عليها يا بيريهان؟! ولكن هل السحر فيما وُضع على الشفتين؟ أم فيهما؟ أم في صاحبتهما؟ أم فيما يصدر عنها؟ أم في قلبي الذي يشتكي الملل؟! ولعل جدران السجن تتشاهد ما يجري الآن بذهول.. فلم يحدث طوال السنوات الخمس الأخيرة - منذ انتقل مقر شركته لهذه الفيلا- أن شهدت الغرفة موظفًا مهما بلغت مكانته يحدثه في شئونه الخاصة.. وكذلك جدران المكتب القديم بمصر الجديدة الذي افتتح به أنشطته في توريد الأجهزة الطبية منذ خمسة عشر عامًا.. ولكن هاهي ذي بيريهان دون عشرات الموظفين على مدار عقد ونصف العقد تنطقها ببساطة.. ثم هاهي ذي تردف وهو يراقب سادراً التماع خصلة بُنية من شعرها تحت شعاع الشمس فتتحول للذهبي فوق خدها الأبيض الغض:

- ولولا حرصي ألا أسبّب مشكلة.. لاتصلت بسعادتك بعد منتصف ليل الجمعة.. ولكن من سوء حظي أن يكون عيد ميلاد حضرتك في الويك إند.. ويمر الويك إند ببطء ويجيء الأحد.. ثم تتأخر حضرتك أيضًا في الحضور.. فأنتظر أنا بصبر طويل حتى عصر الأحد.

دار ببصره في أنحاء الغرفة كأنما يهزأ من السجن.. كأنما يُخرج للحوائط المراقبة لسانه!
وتأملت هي وُجومه وصمته بقلق ثم قالت بذات النبرة الناعمة:

- هل ضابقت حضرتك؟!

انتبه متمسكًا بالهبة غير المتوقعة وهو يهمس بصوته المضطرب، بينما بصره يزحف نحو كلمة Hamburg-Germany في ذيل الدعوة الجهنمية:

- بالطبع لا.

لو سكت الضمير لدقيقة واحدة أخرى، لاستطاع أن يردف: إنها أجمل تهنئة بعيد ميلادي منذ عُمر! لكنه مُحاصر بين ضمير أعمى لا يراعي حلاوة اللحظة ونُدرتها الفريدة، وملل غبي لا يراعي رضاه الحقيقي عن حياته، فيدفعه دفعًا لجنون نزق! ممَّ يستمد الملل قوته؟! ومن أي ثقب في نفسي استطاع التسلل كالنمل حتى ملأ جوفي بالضجر.. وملأ عقلي حتى نوت البديهيات التي من أهمها أن بيريهان في نصف عمري!

وقامت بيريهان بغتة، فهبت نسمة مُعطرة تلقاها بانتعاش ذاهل، وتساءل وهو ينظر في عينيها بدهشة، فأجابته ببسمة ماكرة تستمعله وهي تمد يدها إلى جيب بنطلونها الضيق. جذبت حركة يديها عينيه وجميع جوارحه. وجعلت، وهي تُغمض عينيها وتزم شفيتها الشهيتين، تعالج بأناملها العاجية وردية الأظافر، علبة محشورة في جيبها الصغير لتُخرجها، فتعلق بصره بهذه الحركة الناعمة. حرير يغوص في حرير.. استغرق بكل حواسه في يدها العابثة بمنطقة الجيب ما بين الخصر المذهل ومستودع الفتن الرقيق والوحشي! هزته نشوة عجيبة همست بخاطره أنه أقرب شيء للجنون المنتظر.. ولكنه - بعزيمة مذهلة- صرف نظره بقوة وهو يتظاهر بالانشغال بالكمبيوتر عن يساره. ولكنها همست باضطراب:

- دكتور.

فالتفت وهو يشعر بانصهار وجنتيه، وبوجيب قلبه يوشك أن يُحطم ضلوعه. ونظر.. فإذا هي تمد يدها بعلبة زرقاء من قطيفة. رفع إليها عينيه، فدعته بنظرة مستعطفة ومثيرة أن يتناول الهدية، فمد يده فأخذها في سرعة لئلا تُلحظ ارتعاش أصابعه. وجلست من جديد وهي تتبسم في ظفر وارتياح. دارى عواطفه المشتعلة خلف ضحكة قصيرة وهو يفتح العلبة. وخطف عينيه وهج شديد. فأدار العلبة عن شعاع الشمس الساقط بقوة على سطح مكتبه، وانتبهت هي لذلك فقامت إلى الستائر فأدارت شرائحها الطولية حتى شمل الغرفة ظل وهدوء ظاهري. وأمعن النظر في الهدية. أزرار فضية مصقولة، أنيقة، وغالية الثمن كما يبدو من ماركتها الشهيرة. جلبتها بيريهان له.. له هو.. بمناسبة عيد ميلاده! عرفت بيريهان موعد عيد ميلاده.. وأضاعت بعضاً من وقت مرحها وراحتها لتبحث له عن هدية.. دارت - من أجله- على عدة محلات.. ورأت عشرات الهدايا.. وقارنت وحسبت وقررت.. وهو في عقلها طوال ذلك الوقت! وتمنت - بعد كل ذلك- أن تُهاتفه عند منتصف الليل في الويك إند لتقول له بصوتها العجيب: كل سنة وحضرتك طيب! كم عذبه شوقه لطيفها المثير طوال الويك إند الذي يحرمه من رؤيتها.. وهام طوال يومين حول الكوكب المفعم بالفتنة والشباب، ولكن لم يتصور أن ينتبه الكوكب له.. وأن يدور هو أيضاً حوله باحثاً عن هدية قيمة تليق به!

ماذا يجب أن يقول؟! إنه يغرق تحت السيل.. ونداء صارخ يناديه أن يختبئ تحت المظلة.. ولكنه لا يسمع من النداء إلا ضجراً.. وثمة همس خافت يهمس في إغراء: «لا تُضع الفرصة يا طارق».. ويغزوه إلهام كاليقين بأنه إذا قال: «ما أجمل الهدية وما أروع صاحبها».. أن تنتقب السماء عند موضع الأفق الخائق.. فيهب قلبه العليل من جديد.. وينقشع الملل.. وتنتهي الأزمة المباغثة البغيضة.. وسيتمكن وقتها من إيجاد حل وسط يضمن له استمرار حياته القديمة وميلاد حياته الجديدة.. ولكن كيف؟!!

وتساءلت بيريهان بقلق وهي تراقب صمته ونظرته الذاهلة إلى الأزرار:

- هل تسرّعت؟!!

فرفع رأسه، وهو يصارع تمزقه بين مُنادٍ كهلٍ يدعوهُ إلى المظلة ونائرٍ نزق مفعم بالحياة يدعوهُ أن يحطم جمهورية العقل والضمير.

لا بد أن تتطرق بأي شيء.. ألا يفزعك اضطرابها وشعورها بأنها أخطأت بينما هي تخلق شخصاً

جديدًا سيحمد لها دومًا فعلتها؟!!

ومن المقدمات التي قادتك للجنون قول بيريهان بعد تلكؤها حتى انصرف آخر موظف من قاعة الاجتماعات ذات يوم: «أتساءل دائمًا يا دكتور.. أي الرجال أنت؟! أي عقلية وأي سحر؟!».. وقبل أن يستوعب ما قيل كانت تجتاز الردهة الزجاجية نحو مكتبها. ولكن هل كان ذلك بداية كل شيء؟! لا أجزم.. وتغوص البداية في ضباب كالحلم فتزيد من حيرتك وضجرك.. على كل حال فالجنون أضحى يسيرًا!

ولكن في اللحظة الأخيرة تغلبه الحكمة فيقول كالمنوم:

- هدية جميلة.. ولكن كيف أقبّلها؟!!

- كيف؟!!

- لم أتلقَ يومًا هدية من موظفة بشركتي!

فطنت بلا شك لعدم جدية احتجاجه. ربما لاختلاجه صوته المرتعش، أو لعلها أدركت بحس أنثوي- شيئًا من طبيعة ما يعتريه من صراع داخلي، فعبست، أو اصطنعت العبوس وهي تقول:
- يمكنك ألا تعتبرني موظفة يا دكتور.. ما رأيك؟! أنا في إجازة اليوم.. إذن فقد قدمت هديتي وأنا في غير أوقات العمل.. أو دعني أقدم لك استقالتي من الشركة الآن.. فيمكنك اعتبارها هدية من صديقة.

ثم بنبرة عميقة وهي تغوص في العينين المحملقتين:

- لو جاز لي أن أتشرف بصداقة حضرتك!

ذاب وهو يتساءل:

- ولكن لم كل ذلك؟!!

وحدقت بعينه، بينما الشفتان الكرزيّتان اللامعتان توشكان أن تنفتحا، وقالت:

- إن حضرتك...

ولكنها تقوم فتخرج بلا كلمة إضافية.

نار.. فكيف تنصهر ذواتنا كأنها من الشمع؟! وكيف أكون شمعًا، بينما عشت أحفر في الجبال وأسبح في الحمم الملتهبة طيلة خمسين عامًا؟! أم أنني أتبدل الآن فيصير الفولاذ شمعًا؟! أتحول، فأصير شيئًا بعد شيء؟! وبداية كل ما يحدث تغوص في ضباب كالحلم! فهل تسلم نفسك للجنون بلا يقين؟!!

انصرفت بيريهان إلى مكتبها. وعليه أن يقاسي من الآن وحتى الثامنة من صباح غد نوبات الملل السوداء والفكر الحاد والفصام البغيض ما بين الملل وجنونه والضمير وسخافته. وسال فوق قلبه مصهور الفزع الذي صار يجتاحه مؤخرًا.
المرض يتطور.

وعما قريب لن تكون وحدك ضحيته.

عد إلى البيت.. فورًا.. وليسعك كهفك فتتدبر ما يجري.. ومن عجب أن تعثر على الدواء ولكنك تهابه.. تفزعك الظلمات والحصار ولكنك تتردد عن الخروج للنور.. تتمنى أن تُخلق ذاتًا جديدة.. ولكنك تروغ أمام أنامل بيريهان المثالة المبدعة التي تعرف كيف تضرب في كتلتك الصماء إزميلها، فتصير ذا قيمة بعد ترهل وحياة يخنقها الروتين، فتهرب منها بدلًا من أن تستسلم لها..

وتصمت بدلاً من أن تغني.. وتتفكر بدلاً من أن تراقصها.. وتخرج من المكتب - الذي خنقك كالسجن منذ ساعة- حين أوشكت جدرانها أن تنفض فتبتسم خلفه الأكوان الشاسعة الجديدة.. وتهرب إلى البيت.. إلى السجن الأصيل.. لا.. بل الجنة التي صارت سجنًا بفعل المجهول.. أهو الملل أم الجنون ما أعاني؟! ولولا الضمير ولولا الوفاء لما صار لمرضي خطر ولا معنى، ولولا تاريخ طويل من العزيمة لما أفرغني استسلامي، ولولا صحتي التي لم تشنكِ علة لما ضايقتني أن أشعر بالتدهور الذي يُعذبني به مرضي، ولتمكنت ببساطة من علاجه بقرص من شَفَتِي «بيري» اللامعتين ثلاث مرات في اليوم.. هل تسمحين لي أن ألقبك «بيري» بينما أتناول أقراص شبابكِ السحرية؟!!

-١٦-

تضحك فائزة وهي تلقاه مغتبطة بعودته المفاجئة من المكتب، وتقوم إليه مُلقية بالمجلة على المنضدة القصيرة بجوار البرجير:

- ساعتين فقط؟! كنت أعرف أنني لن أهون عليك..
وتشبّ فتقف على أطراف أصابعها لتقبله وهي تتعلق بكفيه العريضتين، فيدور بذراعه على خصرها ويضمها وهو يتعمق في قبلتها. تضحك في امتنان وطمأنينة، فينجاها شيء من تعاسته وآلام ضميره. ويبتسم، فنقول بابتهاج مرة أخرى وهي تُشير إلى السلم الصاعد إلى غرف النوم من قلب البهو:

- بدل ثيابك.. دعنا نخرج.. نتغدى ونحتفل بنجاح مسرحية علياء! ما رأيك يا بابي؟!
يوافق بلا جدال.. ينشد راحة الضمير، ويأمل أن يتخلى عنه المرض بغتة كما هبط عليه بغتة.. يبحث العليل عن الشفاء في كل مظانّه.. وما أجمل أن يكون الدواء هنا.. في العش الهادئ.. بلا أعراض جانبية ومخاطر تُهدد العمل أو السمعة أو استقرار الأسرة السعيدة!
ولكن كيف وهنا نشأ المرض؟!!

-١٦-

في السيارة «ليكزس» البيضاء الرابضة على الممشى البازلتي أمام باب الفيلا، ينتظر بصحبة علياء أن تفرغ فائزة من ملابسها وزينتها التي تستغرق نحو الساعتين، فتتحول دعوة الغداء لعشاء! جلسا في السيارة وسط نصف دائرة من أشجار السرو العالية التي ترسم ممشى السيارات من مدخل الحديقة إلى الفيلا ثم إلى الخارج مرة أخرى. وراقب المغيب الذي يهبط بقلق، تُرى إلى أي حد سيصمد عزمه الذي قر على أن يجد علاجه هنا، وأن يقنع نفسه بأن ما بها ليس سوى عارضٍ من عوارض الترف والبطر.. ولكن ما بالك تتحول من مراقبة مرضك إلى السعي للشفاء؟! هل أفرغتكِ بيриهان؟! وتذكر اندلاع النيران بالقرب من مكتبه عند منتصف اليوم.. فهرب في تصميمٍ من مدهمات الفكر المتتالية.

فليُسعه الآن أن يجد الوقت ليختلي بمحبوبته الصغيرة.. علياء.. ورنّا إليها من خلال المرأة وهي تجلس على الكنب الخلفية تراقب موبايلها في تركيز، ويقول:

- ما رأي مدربتك في أدائك بالمسرحية اليوم؟!!

رفعت وجهها، وابتسمت وهي تقول:

- لم أسألها!

- حقاً؟! لم؟!!

- ولم أنتظر رأيها؟! حسبي تصفيق أولياء الأمور جميعاً.. ونظرات الحسد في عيون مروة وهنادي وأصالة..

قهقه بكل قوته، حتى التقت إليه البستاني الذي يشارك البواب شاي الأصيل تحت شجرة البوانسيانا الضخمة على مقربة من بوابة الحديقة.. وتأمل من خلال المرآة جمالها، فغزاه ارتياح ناعم كهذه النفثات البرتقالية التي ترحف على الحديقة الناعسة..

علياء تشرق كأميرة، ومن عذابي أن أكتشف شروقها وأنا أكتشف مرضي الغامض.. وتخفي فيها الضاحك بكفها الصغيرة فتذكرك بطريقة أمها في الضحك.. وهاتان العينان السوداوان اللامعتان، الشبيهتان بالخرز.. مقتبستان أيضاً من عينيّ فائزة. بأي شيء تحلم علياء؟! وكيف تراني؟! وهل لي نصيب في أحلامها غير كوني «البنك»؟! كيف ترى ابنة الرابعة عشرة الحياة؟! وهل نبتت في قلبها آمالٌ وأحلام يضايقني الاطلاع عليها؟! إنها مختلفة عنك وعن فائزة في كل شيء.. لم تتهددها الآلام التي اعتصرتكما.. ولا ربّتها الأيام التي ربّتكما حتى نضجت نفاكها وعرفت ما الحق والواجب.. وهي بالرغم من كل ذلك مهذبة وجميلة؛ أحسنت فائزة إنشاءها كما أحسنت إنشاء كل شيء.. لكنها مغرورة.. فخورة بما تملك، وبما تعرف، وبما تستطيع بتعليمها وبأموال أبيها إنجازها.. ورغم تربيته المحافظّة لا تتورع عن طرح مخاوفها وتساؤلاتها وطموحاتها واعتراضاتها اللامنتهية فيفزعك ذلك.. هل تُذكرك بأحد؟! نوران؟! زميلة الجامعة الطموحة وغرورها؟! حُب العمر.. تبتاً.. كيف تخرج جثث الماضي؟! وهكذا بلا مقدمات؟! كيف تقتل حُبها وأنت في الخامسة والعشرين ثم تجد جسدها يسبح فوق تيارات فكري في الخمسين؟! لثاني مرة ترد نوران ببالك منذ الصباح بعد اختفاء طويل.. فما الذي أيقظها؟! أهو عَرَضٌ جديد من أعراض المرض الذي يبدو أنه لا يتوقف عن مفاجأتك وحصارك؟! هل يُضاف إلى العذابات غير المحتملة هذا العذاب الجديد؟! وكيف غابت نوران كل هذه السنين إذا كانت لا تزال قادرة على الظهور من جديد؟! أهي قبضتي التي تراخت، وعزمي الذي يهن فجأة؟! ما الذي يريده مني الملل الذي يعبث برأسي وبعزيمتي كالحاوي؟! هل يتوجب عليّ زيارة طبيب نفسي على آخر الزمن؟! ولكن قل لي بصدق: ألا يُسعدك أن تراك نوران وأنت في الليكزس الفارحة؟! وأن تعلم أنك تملك أيضاً المرسيدس المخصصة للعمل والباجيرو المخصصة لمشاوير فائزة وعلياء؟! لم يكن دكتور هاني يحلم بمنثّل هذا، فكيف ستري نوران انتصارك؟!!

وهتقت علياء:

- وصلتُ ماما.

والتقت وفائزة تسير نحوهما تسبقها الثقة والبسمة العاشقة بينما تنقر الأرض بكعبها العالي..

- ١٧ -

قالت علياء:

- لا أعرف ماذا يستهويكما في هذه الأماكن الميتة!

فنهرتها فائزة بنظرة تصطنع الغضب، وهي تقول بهمس:

- بنت!

- الأثاث البني الضخم يخنقني.. حتى الموسيقى تُشعرنى أن التراب يسقط فوقنا.

توعدتها بنظرة غير جادة، ثم التفتت إليه باسمه وهي تهمس:

- بنتك تكبر.

ابتسم بلا انفعال حقيقي. وطرقت فائزة بالشوكة على السكين في رقة لتنبه علياء التي تُغمض

عينها في ملل، ثم تقول بمباهاة ومرح:

- هذه الأماكن الكلاسيكية لها روحها ورونقها وموسيقاها التي يجب أن تُشعرك بالرقى.

- ولكني لا أشعر به.

- يا جاهلة.. هذا المكان يحتاج لتصريح خاص للدخول.. ولا يُسمح للعامّة بدخوله.

- كنت أفضل أن نتغدى في النادي.. أو في أي كوفي شوب.

الصغيرة تمل القيود مثلك.. ولكنك استغرقت خمسين عامًا لتمل.

والتفتت فائزة إليه ضاحكة، وهي تقول:

- ونحن نظن أننا نكافئها!

ثم وجّهت خطابها لعلياء:

- كان الأوفق أن تقومي بدور «عبده موتة» لا «سنو وايت»!

ضحكت علياء في ودّ، ثم قامت وهي تقول:

- سأجلس في الشرفة حتى يُعدوا العشاء.

فأشارت إليها فائزة في مرح كأنها تطردها، ثم التفتت إليه وهي تهمس:

- أزمات المراهقة.. لا داعي للقلق.. التمرد طبيعي جدًا في سنّها.

إذا كان التمرد طبيعيًا في سنّها، فهل ما يعتريني هو الطبيعي في سني؟! ألا تعدنا محطات أعمارنا

إلا بالجنون؟! هاهو ذا البيت السعيد، صار يحوي مريضة بالتمرد، ومريضًا بالملل! وأنت يا فائزة..

ما هو الجنون الطبيعي الملائم لسني؟! ألا تشعرين بتغيير ما يزحف على روحك كالثعبان؟!!

وأجفل وهو يتصور ذلك.. ودعا الله مخلصًا أن تبقى فائزة بمعزل عن أي داء! وانجذبت عيناه إلى

ابنته وهي تخرج إلى الشرفة خلف البانوراما الزجاجية التي تدور في نصف دائرة ضخمة لا يبدو

من خلفها إلا السماء الداكنة والسحب المتكاثفة. فتحت علياء الباب المخفي خلف الستائر الثخينة،

ونفذت إلى الخارج، فلفحها تيار هواء شديد فيعثر شعرها الأسود الناعم. وترنح جسدها أمام الهيّات

الخريفية القوية في هذا الارتفاع الشاهق، فتمالكت بجهدٍ اتزانها، وجمعت بيديها شعرها لتتبين

طريقها إلى الكراسي المصفوفة في الشرفة الكبيرة، وقد أحنّت جذعها للأمام قليلًا لتخترق الهواء، ثم

جلست أخيرًا وهي تعدل هندامها، لتستغرق في مشاهدة النيل الغارق في الليل من ارتفاع ثلاثين

طابقًا.

هزّه صراعاها العابر بدرجة مُخيفة.. سال محموم الخوف مرة أخرى فوق قلبه.. وتمزق وهو يرى

ترنحها.. أي شيء هذا الفرع البغيض الذي يهزني لمرأى الأشياء المعتادة؟! كل حركة بجواري

صارت تُفزعني.. كما أن كل ثبات صار يخنقني ويحبس أنفاسي حتى أتلوى من الاختناق والضجر..

ولكني سأشفى.. بأي ثمن سأشفى من أجل علياء الصغيرة.. لئلا تترنح أمام الرياح مطلقًا.. وألا

تقاسي ما قاسيته أنا أو فائزة.. سابقى دوماً قلعتها.. وسأرفعها فوق الجميع..

-١٨-

بوجهٍ مُمتع تقول فائزة بعد أشهر من الزواج:

- تأخرت الدورة يا طارق.

- وما يفزعكِ لهذه الدرجة؟!!

- أخشى أن يكون سن اليأس قد عجل إلي!

فقلت بخبرتكِ الطيبة رغم عدم تخصصك في النسا والتوليد:

- في هذه السن؟! أنتِ في أوائل الثلاثين يا فائزة.. لا تخافي.

- تأخر الإنجاب يؤدي لذلك.

وتراوغ بمرح وأنت تفهم قصدها:

- تأخر الإنجاب؟! ولكننا لم نتزوج إلا منذ شهور.

لكنها تبكي وهي تقول بحزن:

- أتحدّث عن عمري الذي ضاع من قبل.

- ما زلتِ صغيرة جداً.. تقي برأيي.

وفي عيادة بهيرة تحببكِ البشرى من خلف الستار الأبيض:

- الهانم حامل يا دكتور.

ثم يفتح الستار عن وجه بهيرة، فتُطالعكِ مُتهللة وهي تخلع القفازات الطبية وتُلقي بها إلى سلة، في طريقها إلى مكتبها، ويمكنك أن ترى فائزة على سرير الكشف تُسوي ملابسها وهي مفعمة في بُكاءٍ فرح!

هزّتكِ المفاجأة السعيدة حتى الأعماق.. كذبت ظنونك الطويلة -التي تلت الهزائم السابقة- أنك ستقضي عمرك بلا حُب ولا ذرية.. تلاشى خوفك ومللك وضجرك من الوحدة.. هاهي ذي فائزة وحُبها الذي يغمركِ كالمحيط تبكي من فرط السرور والأمل.. وهاهي ذي بهيرة تعدك بالذرية وتطمئنك على صحة فائزة وهي لا تخفي سعادتها العارمة.. وفي نفس الأسبوع نجحت في الحصول على توكيل أجهزة الأشعة الألمانية الأشهر عالمياً، فأكملت نجاح شركتك التي تخصصت في مستلزمات جراحة العظام.. وانطلقت إلى أفق أوسع من المجرة وإلى ثراء يتزايد مع كل خطوة، بل مع كل فكرة تُرد بالبال.. أين اختفت البهجات؟ ولمّ نضبت الآمال؟ وكيف تقلصت الأفكار وتسممت؟!!

وأول حديث لافتي كان حين قالت بيريهان وأنتما منفردان بغرفة مكتبك:

- سيسرنني يا دكتور أن أستمع إلى قصة نجاحك من البداية.. أشعر أن ذلك ملهمٌ جداً..

-١٩-

نزع عينيه من علياء التي تلتهم بالشرفة في سماءٍ ماضٍ داكنة، والتفت لفائزة التي صممت بعد حديث لم يسمع منه حرفاً، وهمّ بأن يتحدث ولكن تعلق بصره بغتة بشفتيها ويسأل ذاهلاً:

- فائزة.. كيف تلمع شفاهك هكذا؟!!
- ويفاجئ فائزة السؤال، فتتظر إلى شففتيها بقلق على صفحة السكين المصقولة اللامعة، ثم تقول بإغراء بعد أن اطمأنت أن طلاء شففتيها على ما يُرام:
- أعجبتك؟!!
- ولكن كيف تلمع؟!!
- ما لك يا طارق؟! متى اهتممت بتلك الأمور؟!!
- وجمّ كلصّ فاجأه كمين في شقة مُعلقة. ولكنها قالت ببساطة:
- ليب جلوس.
- ماذا؟!!
- تضحك وتقول في تفصيل:

L I P G L O S S -

وسقطت بينهما بيريهان وهي تهمس من خلال الـ«ليب جلوس»: «يرضيك يا دكتور؟!». اهتز أمله في الشفاء.. تهاوى عزمه في لحظات.. واستيقظ ملله من جديد.. لكنه يتمسك بقوة ضميره.. القوة الوحيدة الباقية حتى الآن.. حتى خوفه على علياء تبخر كأن لم يكن رغم محاولاته الضئيلة.. على رغمه تذكر التماع شففتي بيريهان والتماع طرف خصلتها البنية، والتماع هديتها الفضية، والتماع عينيها العسلينين بالإغراء الشيطاني العابث.

ما أبشع ألعاب مرضي الذي يتسلى أمامي كالحاوي!

وفي الطريق للبيت لم تتوقف فائزة وعلياء عن الحديث. بعض حديثهما ضحك، وأغلبه نكار ونقد من فائزة لعلياء ونقد من علياء لفائزة! وسرعان ما ينسيانه في خضم نقاشاتهما عالية الصوت والضحكات.. وهو متشبث بما تبقى من قواه بعجلة القيادة.

-٢٠-

ووضعت نانسي أمامك آخر CV في هذا اليوم الطويل. فتفحصته وأنت ترى علامات القبول من مختلف أقسام الشركة على هامش الورقة.. فقط تبقى مقابلتك وموافقتك ليتم تعيينها.. وهمست بالاسم:

- بيريهان!
- فهزت نانسي رأسها بالإيجاب، وسألت دون أن ترفع رأسك:
- مديرة للتسويق؟!!
- نعم يا دكتور.
- وبثقتك فيها تسألها:
- وما رأيك؟!!
- تبدو جيدة جدًا.. رغم ملابسها!
- ما لها ملابسها؟!!
- جريئة إلى حدّ ما.

- ستلتزم بلوائح الشركة غصب عنها.
- عدا ذلك فهي جيدة وصغيرة السن أيضاً رغم مؤهلاتها العلمية المتنوعة.
- أدخلها.. لنتتة من اليوم الطويل..

-٢١-

أوى إلى سريره مُعتزماً أن ينام مهما طوّحته الأفكار.. وأن يجد الراحة هنا.. أو أن يتصنعها، إذا عزّ عليه أن يجدها يقيناً.. إنه رجل عاقل، ولا بد أن يظل كذلك.. عليه أن يخاف على البيت والسمعة.. وعلى بيريهان نفسها! عليه أن يحميها من جنون شبابها الأهوج.. وليكن مرضي عابراً كأنه الصداع الصباحي الذي يزول برشفة قهوة، أو كآلم الضرس الذي يُعذبنا يوماً بطوله ثم يرحل تحت إحاح المسكنات.. كل شيء سيمر بلا شك. وتناول كف فايزة فقَبَل باطنه، وتشمّم عطرها الأزلي، أي نشوة تهبط على القلب؟! كأنها السلام.. كأنها مقدمات الوسن.. وكأنها أيضاً الروح التي يسخن لها البدن ثم يشتعل بها الدم فتسيل النشوات.

ولكنك عرفت نشوة جديدة.. من يوم انتبهت لأعين الموظفة الجديدة التي تحاول أن تدس في النظرة الخاطفة رسائل عجلي كأوراق المراهقين المطوية بين صفحات الكراسات والكتب.. وصلتك رسائل بيريهان الأثيرية غير المتوقعة.. وهزتك نشوة.. ولكنك كذبت نفسك.. ثم تيقنت من حرارة النظرات وجديتها وتصميمها، وما يعقب ذلك من أفكار ونشوات، ولم تجد سبيلاً أسلم من أن تلجم خيالك.. وقنعت كلما اختليت بنفسك باستحلاب صورتها وصوتها ونظرتها المنكسرة التي تفوق القوة.. فحق لك أن تتساءل: ما الفارق بين ما تبعته فايزة في نفسك وما تبعته بيريهان؟! أو أن تتساءل: كم مركز للنشوة في هذا القلب.. وهل تستيقظ مراكز جديدة في القلب الذي عاش خمسين عاماً فجأة وبلا مقدمات؟! وهل تتبعث النشوة من القلب أم أنها تهبط عليه من أي سحابة عابرة؟! ثم تتبعت إلى الملل الذي يمرر كل حلو، وينزع اللون من كافة المباحج، فلا تنفذ إلى روحك منها ذرة.. أه.. لولا الضمير!

وتشمّم باطن كفها في عمق متوسلاً السكينة والشفاء، ثم أراح يدها على صدره، فاقتربت منه حتى احتضنته تماماً وقد توسد فخذها خصره. وقبّلت كتفه بدلال ثم قالت بمكرٍ وهي تطرق باب الموصد:

- يحزنني أن تواجه مشاكلك منفرداً.
- أخذ نفساً عميقاً، ثم قال آملاً أن ينتهي من النقاش:
- هي مشاكل عادية لا تدعو للقلق.
- ولكن أحوالك غير عادية.
- لا أريد أن أعكر بالك بتفاصيل العمل.
- طالما تشاركتنا كل شيء.. حتى المشاكل.
- تنفس بعمق. لحظات صمت طويلة كالتفكير. ثم اختار جانباً مأموناً من المشكلة، فقال:
- فترت رغبتني في العمل.
- تجلى الفزع بعينيها رغم حرصها على طمأننته. فقالت وهي تخبئ وجهها في صدره:
- عادي جداً.. نحن بشر.. نتعب ونمل.

فأمن كاذبًا على قولها، ولكنه بدافع من الأمل الغامض في الشفاء تشبث بها، فقال:
- ولكني لم أتعب من قبل ولم أمل.

اعتدلت جالسة، وهي تقول باستهانة ما أمكنها:

- هل نفكر في السفر وتغيير الجو؟!

هز رأسه في حيرة، فعادت تقول:

- دع علاجك عليّ.

وتساءل بعينيه، فقالت:

- صبرك.. في الأيام القادمة سنتتهي الأزمة تمامًا.

- أتمنى.

- كن على ثقة من ذلك.. ربنا لن يتركنا.. وسأفعل فوق ما بوسعي لنتخطى أزمته التافهة.

ورقدت مرة أخرى، وهي تريح خدها على صدره.

ولم يُرحه اعترافه كما توقع.. بل مسّه حين سمع أنفاسها الهادئة عقب استغراقها في النوم، شيء

من الغضب المُغزى.. شعر بأنه لا يسيطر على شيء.. بأنه مُجبر على التعري أمامها كل حين

كطفل.. كسجين.. كمريض على سرير الرعاية المُركزة.. ثم هي تستهين بمرضك كأنه صداع أو ألم

ضرس.. إنها لا تدري أن الحياة على حافة الهاوية.. والمصيبة أنني لا أعرف السبب.

ورمق في الظلمة هيكلها الصغير الغارق في النوم فقال: هل يعينني المرض عن النعم؟! أم

يبصرني بعذاباتي التي استحليتها عُمرًا؟! أي شيء كان حقيقة وأيها كان وهماً؟!!

-٢٢-

استيقظ على هزات متتابعة من يديّ فائزة. فتح عينيه بصعوبة، فوجدها في كامل زينتها، وقد

ارتدت التريننج سوت الخاص بالجري. كان نور الغرفة مُضاءً فعرف أن الليلة لم تنته بعد، ولكن

متى نام ومتى استيقظت فائزة ولم ترتدي ثيابها؟! ولولا هدوؤها لفرع. وتساءل في قلق وهو يعتدل

في السرير:

- كم الساعة؟!!

ولكنها قالت بمرح:

- الساعة خمسة.

- خمسة؟!!

- الفجر.

جحظت عيناه في حيرة وهو يتساءل:

- ماذا حدث؟!!

فضحكت وهي تتأوله كأسًا من عصير الموز باللبن وتهتف بقوة:

- سنبدأ من اليوم أسلوبًا صحيًا للحياة.

وضع الكأس على الكومودينو وهو يقاوم النعاس جالسًا، وفائزة تستطرد في الشرح بلا توقف:

- سنبدأ اليوم في الخامسة ببعض السويدي.. ثم الترييض في الحديقة لنصف ساعة.. ثم نتبع ذلك

بفطور صحي وسط الأشجار.

مسح بيده على رأسه ليطرد النوم، وهي تُردف بحماس:

- ثم تأخذ دُشًا دافئًا وتطير إلى شركتك مليئًا بالقوة والصحة والتفائل.. ثم...

- ثم!

- تتحل مشاكلك!

- فعلاً؟!

- وإلى الأبد.

همَّ بالاعتراض، ولكنها جذبتة في تصميم، فأطاعها مُجبرًا..

- ٢٣ -

بعد عشر دقائق من المشي تصبَّب عرقًا رغم برودة الجو. وشجَّعته هي بحنانها الذي لا ينتهي. ولكنه يلهث، وقلبه يشتكي. دعتة لتخفيف سرعته وقالت:

- لا بأس.. ما زلنا في أول يوم.

هز رأسه في تسليم. فتناولت ذراعه ووضعتها تحت إبطها، وقالت بنعومة:

- دعنا نستمتع بالسير الهادئ بين الشجر.. انظر كيف تستيقظ الطيور وكيف يُولد النهار!

وغزاه أمل مفاجئ كومضة قصيرة لم تُدم إلا كمرَّ شهاب.. وأشارت فائزة إلى باب الفيلا فرأى علياء تخرج، مُتهيئة للذهاب إلى المدرسة. وأدهشها أن تراهما في الحديقة فسارت نحوهما في تودة وثبات. فضحك في نفسه من تعاليها وكبريائها. فلما اقتربت منهما أشرق وجهها بابتسامة صادقة. وقالت ضاحكة وهي تُلمح إلى ثيابهما الرياضية:

- عاش.

ثم اقتربت ووقفت على أطراف أصابعها فقبَّلته بحرارة، وقبَّلت أمها، ثم قالت:

- بابي.. ما دمت استيقظت.. فخذني في طريقك إلى المدرسة ولترحمني من السواق الحمار!

نهرتها فائزة:

- لولو عيب.

فأشاحت بيدها باستهتار وهي تضحك.. ثم أشارت إلى باب الحديقة الذي يفتح عن الباجيرو الضخمة:

- شوماخر شرف.. عن إنكما.

وقبَّلتها من جديد، ثم خطت مرة أخرى بهدوء نحو السيارة التي يدور سائقها حول الميدان الكبير في وسط الحديقة.

سرَّته مراقبتها حتى اختفت عن عينيه، وأفعمت صدره ببهجة أجمل من إشراق الصباح.. وأشعره الأمل بفداحة ما يخسر كل يوم حين يستسلم للملل.

ولكن تحت الدش أخذ يتأمل انحسار الأمل شيئًا فشيئًا، وآلمه تقلص عضلاته المتعبَّة جراء المجهود المفاجئ. وحين أنهى ارتداء ملابسه وعقد رابطة عنقه، كان الأمل قد تولى تمامًا. وسألته فائزة وهي تدخل غرفة النوم بفنجان القهوة:

- هاه.. إيه الأخبار؟!
فاصطنع ابتسامة كبيرة وهو يُخفي حنقه وألم مفاصله وعضلاته خلف نظرتة في مرآة طولية
بالدرينج روم، وقال:
- أشعر أنني أكثر قوة.

فابتسمت -جاهلة- لنجاح فكرتها، ثم غمزت كأنها تقول: أرأيت؟! وتألم وهو يجلس ليتناول القهوة،
فعدّها السبب في ألمه وفي اكتشاف شيخوخته التي تدق الباب، واكتشف على جانبي شفيتها الباسمتين
تجاعيد صغيرة، فدارى حنقه وفزعته وتقلص بطنه وهو يرشف رشفة من فنجانة..

-٢٤-

طرُ إلى المكتب.. فوراً.. لتنفرد بنفسك في زنزانتك.. لتتدبر أمرك.. بعيداً عن يقتحم عليك
خلواتك ويعد عليك أنفاسك ويقرأ كالأولياء خواطرك.. ما أعجب ما تقودك إليه مأساتك كأن أمرك
يفلت من بين يديك ليسقط من فوق قمة شاهقة.. وجو أكتوبر الملبّد بالسُحب غائم كبصرك..
والطريق مزدحم كرأسك، رغم أن الساعة لم تجز الساعة والنصف.. لا شيء في السماء ولا في
الأرض تنفتح له نفسك المنهكة.. وتجاهد لإخفاء سعادتك بأنك تقترب من المكتب، كما تجاهد لتخفي
عن نفسك ألم عضلاتك وحقيقة سنك المفزعة.

والضمير الذي جذبك بالأمس لتعود للبيت، ينهزم اليوم أمام القوة الأخرى المساوية في المقدر
والمضادة في الاتجاه؛ قوة الملل.. الضجر.. الفزع.. فتطير إلى المكتب.. وحُق لك في هذا الصباح
العجيب أن تسأل نفسك: أما زلت تُشفق على فائزة وأنت ترى فزعا لما يصيبك؟! وما سبب
التدهور الكبير الذي يصيبك منذ الأمس؟! ولماذا رأيت في المشاعر التي هدهدتك طيلة خمسة عشر
عاماً داعياً لامتعاضك؟! ولماذا رأيت التجاعيد حول شفتي فائزة؟! هل ظهرت هذا الصباح فقط؟!
وماذا ستفعل فائزة الفخور بشبابها حين تكتشفها؟!

-٢٥-

وهنت دكتورة بهيرة بضجر أفزع زهرات اللانتانا كمارا في السور القصير الذي يحيط مجلسكما
في النادي على مقربة من البيسين:

- كل شهر عروس جديدة.. وكل مرة رفض لسبب مختلف.
فضحكت باستهتار وأنت تدعو زوجها إلى التدخل وحمایتك من ثورتها. فقال الرجل:
- هل تظنين طارق طفلاً؟! يا ستي هو حُر.. والزواج قسمة ونصيب رغم كل شيء.
فتخبط بهيرة الطاولة بغضب وهي تقول:

- إنه لا يعرف مصلحته..

ثم تخفض صوتها لتقول له في سخرية واضحة:

- لا رجل يعرف مصلحته أصلاً.

فتضحكان، ويقوم الرجل وهو يُخرج مضرب التنس وفوطة قطنية بيضاء من حقيبته ويهمس لك
ضاحكاً:

- ربنا معك .
ورغم عبوس ملامحها تتبعه بهيرة بعينها للحظات لتتأكد أن لا شيء ينقصه، كأنه طفلها! ثم
تلقت إليك وتقول:
- في الخطوة القادمة سأحجز لك في عيادة طبيب نفسي!
وتنفجر ضاحكاً من قولها، ولكنها تُعيد القول في تأكيد:
- والله يا طارق سأنفذ تهديدي.
- يا دكتورة بهيرة.. هل نصّبوك وصيّة عليّ؟! وهل تجوز الوصاية على مَنْ بلغ أربعاً وثلاثين
سنة؟!!

فتقول في إصرار، وأنت- بعين العادة- ترى ضحكتها الحنون خلف الكلمات النارية:
- نعم يجوز.. كما أنني بنت خالتك الكبيرة.. وسيراعي القاضي ذلك تماماً.
وتجذب نظرك حركة لطيفة على الجانب الآخر من الحديقة.. وتتعلق عينك بها.. ليست هذه المرة
الأولى التي تسرق فيها عينيك.. ثم يخفق قلبك مع الحركة الرشيقة التي لا تدوس الأرض.. وخلف
تطاير الشعر الأسود الطويل.. وبهيرة ما زالت تهدر:
- وسيعرف الطبيب النفسي كيف يُخلصك من نوران التي أفسدت حياتك!
وتلقت لدى ذكر الاسم القاتل، وتتقلص ابتسامتك وأنت تحدج بهيرة بلّوم، ولكنها لا تعبأ بثورتك
الصامتة وتهم بالرد عليك في إصرار، ولكنك اندفعت فأشرت إلى الفتاة التي تعبر الحديقة وأنت
تقول:

- هذه...
وتابعتها بهيرة بعينها، ثم قالت:
- ما لها؟!
- هي.
وبعد أسبوع كنت تجالس الفتاة الرقيقة في كازينو على النيل حسب رغبتها، إذ رفضت أن يتم
اللقاء في النادي كما أبلغتك بهيرة بعد جولة تحريات وتقصي وجس نبض.. وسألت بهيرة في لهفة:
- وما اسمها؟!
فقلت:
- فايضة..

-٢٦-

وصل إلى الشركة قبيل الثامنة. وقاوم - أثناء عبوره من السيارة إلى باب المصعد في الحديقة
الملحقة بموقف السيارات- نظرات عينيه المُتلصصتين إلى أنحاء المكان، بحثاً عن الـ«باسات»
الفضية التي لم تصل بعد.
وفي الأعلى، وجد نانسي ومساعدتها رغم الوقت المبكر منهنكئين في العمل بجدية كانت تسعده
فيما مضى، قبل أن يصير كل شيء مزحة مكررة، ويتحول الكون لسجن كبير، والهواء لقطران
ثقيل. حيّهما وهو يعبر، فهبت نانسي بسرعة وهي تجذب مظروفاً من فوق مكتبها فتتبعه إلى

غرفته. ومن خلف ابتسامتها التي تتسع قالت وهو يستقر على كرسيه:
- صباح الخير يا دكتور.. أسفة.. سأطلب توقيعك قبل فنجان القهوة.. كان من المفترض أن أنتهي من ذلك الملف أمس لكنني فوجئت برحيل سعادتك.

همس في نفسه: وأنا أيضاً فوجئت برحيل «سعادتي».. وها أنا أجاهد فقط لأبدالك البسمة.. ويؤسفني أن أنتبه اليوم أيضاً أن أيّ ما كان في هذه الأوراق التي يفرعك تأخري في توقيعها، فهو لا يهمني.. لا الخسارة من ورائها ستؤلمني ولا النجاح الذي تعد به سيسعدني.. لا شيء يسعدني من هذه الشركة إلا ما يعدني به الأمل من حضور بيريهان لتجالسني في اجتماع لدقائق.. أو موافقتها على مرافقتي إلى هامبورج! متى أحوز الجراءة لأفاتها في ذلك بلا قلق؟!!

وبالرغم من ذلك أخرج قلمه، ثم جعل يقلب الأوراق بامتعاض وهو يجاهد لقراءتها. وذهبت نانسي ففتحت الستائر المغلقة منذ «حادثة» أمس.. فازداد امتعاضاً.. ما كان أجمل أن تقتحها بيريهان نفسها مرة أخرى.. وجذبه خاطر غامض فتساءل: حتّام تحتفظ فايضة بمعجزة شبابها؟! واسترقّ النظر إلى ثغر نانسي وحوافه.. وتساءل كيف ستواجه فايضة حقيقة تغضن شفيتها؟!!

وكان النيل رياناً وأنت تقول في حرج بينما حُب مفاجئ يحتل قلبك رغم أنه اللقاء الأول:

- الحقيقة أن أكثر ما يُقلّني هو فارق السن.. أنا في الرابعة والثلاثين.. ولكني...

وأشرقت ابتسامتها التي تتراقص فوقها انعكاسات ذهبية من موجات ناعمة تلهو في النهر تحت شمس الظهيرة، وقاطعتك في ترقب:

- أنا لست صغيرة.. إذا لم يكن ذلك يضايك.

- حقاً؟!!

- أنا في الثلاثين.

ابتسم في تعجب حقيقي وارتياح:

- غير معقول.. لقد قدّرت عمركِ باثنتين وعشرين سنة لا أكثر.

فانفجرت ضاحكة في خجل، وهي تضع كفها الرقيقة فوق ثغرها، فاستولت حركتها وضحكتها الجميلة على ما تبقى من قلبك. وفي الطريق للخارج رفعت رأسك وقد سبقتك على السلم فتسللت إلى خصرها الضيق ومؤخرتها المكتنزة فاشتعل دمك بالرغبة كما اشتعل قلبك منذ قليل بحُب طاهر، فسعدت للغاية أن تحوز فايضة البراءة والإثارة معاً، وعدتها امرأة أحلامك الكاملة. وعند وصولك المستشفى عمدت إلى بهيرة التي كانت تنهياً لمغادرة المستشفى إلى عيادتها الخاصة، وقلت مبتهجاً:
- لا حاجة للطبيب النفسي.

فضحكت بشدة وهي تجذبك إلى الكافتيريا لتسمع منك تفاصيل اللقاء الأول.

ولكن هل تنبهت فايضة لحقيقة تغضن شفيتها قبل أن أنتبه لذلك؟! وهل يعد ذلك عيباً لامرأة تقترب من الخمسين برشاقة عجيبة؟! أم أنها ميزة تُضاف لمزاياها النادرة الخارقة إذ تكتفي بتجاعيد لا تكاد تُرى على حين تشيخ صديقاتها؟!!

وغلبه جنونه، فاتصل بنانسي وسأل عن بيريهان، فأخبرته بأنها لا تعرف. وبعد دقيقة جاءت إلى المكتب فقالت:

- اتصلت بدكتورة بيريهان فأخبرتني أنها اضطرت أن تسافر إلى الإسماعيلية لمقابلة مفاجئة في مستشفى هيئة قناة السويس، وسوف تعود قبل نهاية اليوم.
شكرها في صمت فانصرفت.

تبأ.. لم يعد للمكتب من فائدة إلا كونه المكان الأوح الذي يمكن أن يلتقيها به. ولكن كيف تسافر دون اهتمام بما أحدثته به منذ أمس؟! ألا تتشوق إلى معرفة أثر ذلك عليه؟! أم أنها تتلاعب بصبره وتختبر جدية تجاهله لرسائلها الخفية طوال أشهر، ولتصريحها المستتر أمس والذي - رغم سطحيتها- أوشى بأن ثمة الكثير وراء الأحداث العابرة؟! كل ذلك وارد.. ولكني لم أعد أستطيع استخدام العقل في الحساب والمناورة.. بل لم أعد أرغب في استخدام عقلي أصلاً.. أهم فائدة تُرجى من هذا العقل هي أن أتمكن من استخدامه لاختلاق مبررات تسكن ضميري!

وفاجأه اتصال من دكتورة بهيرة، تخبره فيه أنها في طريقها للمكتب. ألقاه صوتها ونبرتها، وأدهشه أن تصل إلى مصر ثم تأتي إلى المكتب مباشرة.
أف!

الحق أنه لا يرغب في أي فعل أو لقاء أو فكر إلا أن ينتظر بيريهان ولو تجرع مرارة الصبر في انتظارها!

ولدهشته أقبلت بهيرة بابتسامة رغم جفاء مكالمتها، فهدأ خاطره قليلاً وإن لم يخل من تحفز وقلق. حكّت له عن رحلتها، وحسّت آخر رشفة في فنجان قهوتها، ثم قدمت له هدية ثمينة من سويسرا، تلقاها بلا حماس وهو يستحثها على الحديث، فقالت وهي تغلق حقيبة يدها لتتهرب من النظر في عينيه أو لتتيح له فرصة التفكير من غير حصار:

- ماذا يحدث يا طارق؟! أحوالك ملخبطة.. فما السبب؟!
إذن فهو الحديث البغيض، وتخمين مصدر الأنباء ليس عسيراً. فما الذي قالته فايضة لبهيرة بالتحديد؟!
صمت وهو يغالب ابتسامة مهزوم لا يجد مفراً. فرفعت عينها إليه ثم قالت:

- أمل ألا تكون حالتك تدهورت لدرجة أن تنسى أنه لا أسرار بيننا.
تهاوت دفاعاته، وقال:

- هل نستطيع أن نُكمل كلامنا خارج المكتب؟!
فقالت في حسم:

- لا.. بل ستبقى في مكتبك إلى الخامسة كما تعودت دائماً.
- كنت في الماضي أعمل.. أما الآن فلا داعي للبقاء.
- أول خطوات المقاومة استمرارك على العادات القديمة.
- حكمة عجيبة!

- حكمة مُجرب.. إذا كنت لا تزال تثق في حكمتي.
- ليت أزمتي تتحل بالحكم.
ضحكت مستهينة بالأزمة لتستدرجه للحديث:

- اطلب لي فنجان قهوة ثانيًا، ودعنا نحكي..

-٢٨-

ملاحظتها المتجهمة وفناجين القهوة الباردة التي لم تُمس تشي بإدراكها أن الموقف خطير على عكس ما تمننت. ثم قالت وهي تحاول أن تتبع منهجًا علميًا في البحث عن منشأ الأزمة:
- لعلك واجهت أزمة كبيرة في العمل.

- يمكن.

- ألا تتذكر؟!

- ولا أتذكر حتى متى انتبعت إلى فداحة الحالة.

- كيف؟!

- كأنك تواجهين أزمة في كابوس سخيّف.. لا تعرفين كيف ولا متى بدأت؟! كل ما تعرفينه أنك تواجهين أزمة وأنتِ تحاربين للنجاة بنفسك.

- هذا عجيب.

- بلى.

- ولكن لا بد من بداية فارقة.

- ربما كان عيد ميلادي الخمسين.

- ولكن فائزة تشعر بأن الحالة أقدم من ذلك ببضعة أسابيع أو أشهر.

قال معترضًا بلا جدية وهو يبتسم:

- كيف تستقيم الحياة وفي البيت جاسوس ينقل كل أخباري؟!

لم تبتسم، وغرقت في جديتها وهي تقول:

- تعلم أكثر مني كيف تقدر فائزة بيتها وأسرارها.. ولعل أكثر ما أزعجني أن تضطر أخيرًا أن تقضي إليّ بمخاوفها الدفينة.. إنها تبكي كل ليلة.

- مستحيل.

- هي الحقيقة.. ولكنها تجاهد لإخفاء ذلك عنك.

تألم بشدة ورثى لحالتها، رغم حنقه الصباحي عليها ورغم تغضن شفيتها!

وقالت بهيرة في نبرة ثقيلة:

- طارق.

وضح أنها ستطرق بابًا كانت تتجنبه، فاشتعل باطنه بالقلق. وصدق ظنه فقالت:

- هل مللت فائزة؟!

أف للحصار.. وللوصاية المزمّنة وللعُشاق النافذين إلى حقائق القلوب والعورات..

- تمزحين ولا شك.

- يا دكتور.. أولى خطوات العلاج هي المصارحة.. إلا إذا كنت مُستمتعًا بمرضك!

- مطلقًا.

- إذن فهل مللت فائزة؟!

- قولي إنني مللتُ حياتي ذاتها.
- وكانت فائزة دائماً أهم أركان حياتك، و...
- إنني أضع فائزة فوق قمة جبل بعيداً عن الطوفان.
- كن صادقاً معي.. أو مع نفسك.
- هي الحقيقة.
- صف لي الأمر مرة أخرى.
- ملل يا دكتورة.. ملل.. ألا تعرفين الملل؟!!
- أعرف أن أمل شيئاً ما ولسببٍ محدد.. فهل يجيء الملل في المطلق وبلا سبب؟!!
- هو دائماً يجيء بلا سبب.
- وممّ تملّ؟!!
- لا شيء محدد.. من الحياة كلها.
- مثل ماذا؟!!
- مثلي.. مثل كوني إنساناً.. مثل كوني رجل أعمال ناجحاً.. مثل كوني طبيباً سابقاً قرر أن يعتزل عمله بالتخدير ليفتح شركة تكبير كل شهر.. ومن قراري بأن أكون رب أسرة.. و...
- إذن فهي فائزة بالنهاية.. هل تنسى أن فائزة هي التي نفثت الروح في كل تفاصيل الحياة التي تذكرها؟!!
- بهيرة.. لا تفهميني خطأ.. أنا فقط أفكر وأبحث عن حل.
- هل تحب يا طارق؟!!
- انفجر، ودارى انفجاره بضحكة مجلجلة. ثم قال بتأكيد:
- لا وقت عندي للحب وأنتِ أدري.
- الحب كالتنفس لا يتطلب وقتاً مستقطعاً.
- ضحك هارباً:
- حكمة ثانية! أكنتِ في سويسرا لمؤتمر طبي أم في الهند لتعلم الحكمة؟!!
- بمكرها الخبير شاركته الضحك وقالت بلا جدية في الظاهر وهي تحاول استدراجه:
- يجب أن تلمّ بأزمات سنك الحرج يا دكتور.
- حقاً؟! الحقيقة أنني لم أعانِ مطلقاً من أي أزمات تتعلق بالعمر.. ولا بد أنكِ تذكرين أنني كنت مثاليّاً في مراهقتي وفي شبابي وحتى بدايات كهولتي.
- ثم ها أنت الآن تستسلم لأزمات العمر مجتمعة.
- وهل يمكن أن يحدث ذلك؟!!
- ها هو يحدث.
- لا أظن أن ذلك تفسير لحالتي.
- كلكم مجبولون على الغرور وعلى الوهم بأنكم في غاية من التفرد، ولكن الحقيقة أنكم صور بالكربون.
- ثم نظرت إلى ساعتها وقد بدا عليها الإجهاد وقالت:

- تعالَ أوصلني للبيت فلقد اضطررت أن أهبط من المطار إلى مكتبك بالتاكسي.
- قام من فوره رغم رغبته الممزقة في البقاء بالمكتب انتظاراً لعودة بيريهان. وفي المصعد سألتها:
- ومتى يعود دكتور إسماعيل؟!
- ليس قبل شهر.. رحلاته وعملياته تحقق نجاحاً رائعاً في كينيا.
- فقال في مكر محاولاً أن ينفذ إلى عقلها:
- ألا يحتمل أن يكون قد تزوج من كينية فانتة؟!
- ضحكت في استهتار وهي تقول:
- هذا مؤكد لا مُحتمل.
- وتضحكين؟!
- ركبت السيارة، وهي تقول:
- لأنه مجرد نسخة بالكربون، فالحزن على خيانتة لي قلة عقل.
- ضحك بشدة، ثم صمت متفكراً، وقال في حرج:
- هل مررتم بأزمة كأزمتنا؟
- منذ عشر سنوات، وكنا على وشك الطلاق.
- ذهل وهو يهتف:
- حقاً؟!
- عادي.
- وكيف انتهت الأزمة؟!
- كما بدأت.
- لا أفهم.
- جاءت من العدم وذهبت للعدم كأنها كابوس كما تقول.
- ودفعه فضوله أن يسألها كالمازح:
- ومنَ تتصورينها تليق بي؟!
- فقالت بلا تفكر:
- فتاة صغيرة.
- حقاً؟!
- لا تسخر من خبرتي.
- ووقف أمام فيلّتها، فقالت وهي تتأهب للنزول:
- أفضل أن تستشير صاحبك دكتور محسن في حالتك.. ولتتعرف على أزمة منتصف العمر..
- ولنحاول إذا أصرت العاصفة على المرور أن نقلل من خسائرها قدر الإمكان.
- وودّعته بنظرة حازمة، كأنها تتوعده بمتابعة حالته أولاً بأول، فانطفأ أمله في السرور الموعود إن هو تمكن من إخماد ضميره.. ها هي طبقة جديدة من طبقات المراقبة تحيطك كالقبة..

نظر للطريق ساهماً.

ألمة حديث بهيرة.. أشعل غضبه.. وتلوى من الألم فوق مصهور الفزع المضجر.. أيصير كل ما تمر به من ملذات سماوية محض إفرازات هرمونية تسكبها الأيام في شرايبك لوصولك سنًا معينًا؟! وهل يعقل أن تكون بيريهان مجرد دمية ألفتها الأيام أمامك لتصمت وتتلهى عن الملل كالطفل الباكي الضجر؟! هل قضى عليك بانتهاء العواطف فلا تتمكن من أن تحب بصدق من جديد وأن يكون كل ما ينتابك من عشق محض أزمة؟!!

من الذي نبهني إلى مرضي؟! ثم ينبهني إلى عبثية البحث عن علاج؟! من الذي يلاعبي هذه اللعبة العجيبة؟! ومن الذي قرر أن يسحب ورقة الامتحان - المسماة بالعمر - من أمامي، فلا يصير لكل ما أكتبه بعد ذلك قيمة ولا وزن؟!!

ولم يجد رغبة في العودة للبيت، فعاد إلى المكتب، وباغته وجود الباسات في الباركينج. فتنفس وقد تبخر من عقله كل حديث بهيرة، كأنها لم تزره!

وتفاجأت نانسي بعودته، ثم لحقت به لمراجعة بعض الأوراق، فتصفحها وقد تعلق بكل كيانه بالباب المغلق. ولم تمض دقيقة حتى طرقت بيريهان الباب طرقتها المميزة، رفع رأسه ففاجأه تصلب نانسي الحاد، وهي ترمق الباب في انتظار الداخلة.. لم تحتدّ نانسي بهذا الشكل؟! هل تدرك نانسي حقيقة ما يجري؟! كفايزة التي تعرف كل ما يحدث؟! وبهيرة التي تعلم كل ما سيحدث؟! لكنه تغاضى عن القلق.. وهرب من كل ما يُعكر هذا السرور الوشيك..

- ٣٠ -

طرقت بيريهان الباب طرقتها المميزة.. فانتبه.. وفتحت الباب عن بسمتها العابثة المحببة كأنما تستأذنه في الدخول.. فلم يملك إلا أن يبتسم بلا تحفظ رغم عبوس نانسي. وانتظرت بيريهان واقفة حتى انصرفت نانسي كأنها تستحثها على سرعة الخروج. وخرجت نانسي فتركت الباب مفتوحًا كأنما تعاندهما، ولكن بيريهان قفزت في رشاقة كراقصة فأغلقت الباب. وحين همت بالجلوس أهدته بسمة أخرى غامضة ومثيرة.. فانتشى كأنه يطير.. بدد حضورها الغيمات الثقيلة.. وغمره من هبة عطرها موجة منعشة مقتبسة من حرارة يوليو.. في أثير نظرتها الساجية انفلتت الرسائل بيسر وتخفّ كموجات الواي فاي.. ورسائل اليوم أقوى وأنعم.. أو أنه هو الأكثر استعدادًا لالتقاطها.. ونبهه نذير بدائي بالخطر الوشيك.. ولكنه مستهينًا بكل شيء، رحّب بالسير في العراء تحت قصف البرق.. بينما بيريهان تصدح:

- مساء الخير يا دكتور.. ما أبغض العمل إذ يفوت عليّ أحيانًا رؤيتك في الصباح.

وجلست بمجلسها المعتاد وبدأت في الحديث.. فأغلق ذاته أمام الماضي والفكر والأحزان المتوقعة.. ما أجمل ما يسيل في القلب من نشوة حين يسقط الضمير في غفوة.. وما أرحب ما تعدنا به الدنيا الضيقة من آمال إذا توقفت البديهيّات عن الحكم.. وما أجمل أن تنتصر ثورة الجنون على حكم العقل.. حينها يمكنك أن تستلذ هذه البسمة الشابة بلا تفكير ولا قلق كأنك مالكها الوحيد.. كأنك شهر يار.. بكلمة تستطيع أن تضم المدللة اللعوب إلى قصرك.. تستطيع أن تحوز شبابها فتنتقب لك السماء وتنفذ من سجن الأفق إلى رحابة الخلود.. تستطيع أن «تأمرها» بمرافقتك إلى هامبورج.. بلا مراجعة من سلطة المنطق.. ولا لوم من صديق.. ولا حزن على ضحايا.. ولا ألم من ضمير أنهكه

أن يبقى طيلة هذا العمر متيقظًا.. ويسعك وقتها ألا تتدم على ما فات وأن تستعويض بقربها عن رغبتك في إحلال حياتك وإعادة تركيبها.. وبيريهان لا تتوقف عن الحديث وعن الضحك منذ دخلت، كما لم تتوقف أنت عن الاستسلام للأفكار الخفية والنشوة.

ما أبهى سرورها وانطلاقها بعد تيقنها من موافقتك الضمنية على صداقتكما.. ولكنك بغتة.. تلتقط- ضمن ما تلتقط من نغمات وإشارات ورسائل- هذه اللمحة الطفولية العابرة بعينيها، اللمحة التي بعثها سرورها بالصدقة النائسة، وانتقالها من خانة الموظفة إلى خانة الصديقة للرجل المُلهم الناجح كما تقول دومًا.. لكن هذه اللمحة الطفولية المفاجئة مفزعة.. في لحظة تستدعي ابنتك علياء! تسقط علياء بينك وبين بيريهان بعنف.. كما سقطت بيريهان بينك وبين فاييزة على طاولة العشاء أمس.

انقبضت أمعاؤه بشدة.. وهبطت الأفكار ساخنة غزيرة كأنها تسيل من قربة انقطعت فوق رأسه.. عاوده شعور الفزع العجيب.. كل الأفكار تفزعه كأنها تختفي لتظهر له بغتة.. بيريهان في نصف عمرك.. هذه حقيقة لا ألبس فيها.. هل كنت تجهل هذه الحقيقة؟! فلم تفزع الآن؟! ورأى علياء تجلس أمام مديرها المستقبلي بينما الرجل كذئب لا يتورع أن يبادلها النظرات الحميمة.. أف.. نَبأً للجنون.. ما الذي استدعى علياء بينما الشفاء ينقر الباب؟! وكيف تُذكرك ابنتك أمس بنوران وتُذكرك اليوم ببيريهان؟! أي لعبة يلعبها مرضك الغامض؟! وأي غاية يسعى إليها من وراء جنونك؟! وبغتة.. يلتقط وسط الحديث كلمة تتوهج كأنها خاتم ذهبي في كومة قش:

- أتوقع أن يكون مؤتمر هامبورج رائعا يا دكتور.

فانتبه بكل كيانه وتساءل في ارتباك:

- حقًا؟!!

- نعم.. ورغم أنها دورته الأولى.

- ولم تتوقعين ذلك؟!!

- من حجم وأهمية الشركات والهيئات المشاركة بالحضور.

وغابت ابنته فجأة كما سقطت فجأة.. غمرتها وغمرت صورتها أمواج رغبته في الشفاء وأضواء مثيرة من نشوة منتظرة.. صمّت الضمير.. وصمت هو مُتفكرًا في جُملة بيريهان وما سيتبعها من مباحج وهو ينعم النظر في ملامحها كأنه ينتشي بلذة فجان قهوة صباحي.. وانتظرت هي باسمه أن ينعم عليها بكلمة تشجيع وموافقة على رأيها.. وشجعه ذلك أن يبادلها نظرة طويلة ممتعة لن تسيء تفسيرها بلا شك.. تخفى وراء ما تظنه الجميلة تفكرًا في تقييم رأيها العملي في مؤتمر هامبورج فغاص أكثر في عينيها اللامعتين.. واستحلب بنهم تلك المتعة الصافية في غياب الضمير والرقيب وفاييزة وبهيرة ونانسي.

بيريهان لا تتوقف عن التحديق بعمق عينيك السارحتين.. هل انتبهت لحيرتك ونجواك؟! تتلاشى النظرة الطفولية وتخفت درجة حتى تختفي تمامًا.. كأن لم تكن.. تحل محلها نظرة مستسلمة كالتّي تسبق قبلة.. وارتفعت حرارة الغرفة حتى لوّحت الوجوه بالحمرة المتواطئة.. ها هي بوابات الجحيم على بُعد خطوة.. ولهذه النظرة غايات أبعد من انتظار رذك بشأن المؤتمر.. ها هي توشك أن تسفر عن شيء مذهل.. بين ثمانية وأخرى سينفجر الصمت ناطقًا بكلمة كالمعجزة.. كالشفاء.. كالفرج.. كالثقب الذي يضرب الأفق..

إلى الجحيم.. العمر الماضي والسمعة والشركة واللعبة والفأر الذي يتخبط بجدران متاهته.. ما أنعم

ما نغوص به من حرير! وما أمتع الجحيم الذي يصهرنا! وما أرقى الانحدار في تيار الزمن! وما أروع ما يعذك به الغد إذا أنت نفذت من هذه الثغرة التي توشك أن تتفتح! وهمست بيريهان بشفاه تختلج:

- دكتور!

ارتجف وهو لا ينزع عينيه من عينيها وشفتيها اللتين تُبللها بين لحظة وأخرى بلسانٍ مُثيرٍ..
وقالت وهي تغوص في موجات من انفعالات يتهدج تحتها صوتها:
- أمنيته.. أن أسافر مع حضرتك لهامبورج..

- ٣١ -

وتلقته فائزة بابتهاجها المعتاد. وقبّلته في حرارة، فتذكّر وهو يستقبل إشراقات ابتسامتها ما أسرته لبهيرة عن بكانها كل ليلة فتساءل وهو مغروس بين الحنق والشفقة: كيف تستطيعين التلون.. وأين تخفين أسراركِ.. أهو الحب أم المكر؟!
وقبيل النوم قالت بينما ضوء أباجورة وحيدة ينعس على وَقَع أنغام «الحب كله» المنبعثة من السيديه:

- تذكرت اليوم حُبنا القديم يا طارق!

فقال مُستكراً وهو يختبر جودة تمثيله:

- وهل صار حُبنا قديماً؟!!

فرنت إليه بنظرة حائرة ثم لم تلبث أن أخفت وجهها في صدره.

ولكن ارتعادها في حضنه غزاه بلا مقاومة وأعادته للخلف خطوات فتساءل في حزن: كيف يمكنني أن أضجر منها يوماً؟!!

وتذكر غرفة المكتب التي اشتعلت فصارَت رماداً، فأحكم ذراعيه حولها رغم الضجر.. وهمس بلا وعي: مَنْ يتحمل حزن هذا الملاك؟!!

- ٣٢ -

في الصباح.. استسلم بدافع الشفقة لفائزة وبرنامجها الرياضي.. مارس التمارين كأنه يُكفر عن ذنب.. وأمدته الأفكار التي تحترق بعقله وقلبه بطاقةٍ مفرطة كأنها البخار الذي يسحب قِطاراً، فأدى التمارين بقوة.. ورنا بين الحين والحين إلى فائزة المندمجة في تمارينها بحنان حقيقي وأسف كبير.. ثم نبهته عضلاته المنهكة إلى انفعالات بغیضة.. فتساءل في ألم كيف تتحول من الرغبة فيها إلى الشفقة عليها إلى الملل منها ثم في النهاية تنقم عليها؟! ولأي سبب تنقم عليها؟!!

وهتقت فائزة بحبور قبيل عقد القران:

- ألا نستطيع أن نهبط فندفع الزمن المتوقف كالعربة المُعطلة حتى نصل إلى يوم الكتاب؟!!

فضحكت وأنت تُقبل باطن يدها. وقلت بنفس الشوق:

- ثم نقطع عنه الوقود ليتوقف إلى الأبد.

فقال في دلالٍ مثير كنت لا تزال تكتشفه خلف هيئتها البريئة الجادة:

- ولم ذلك؟! -
فاستجبت للعبتها قائلاً:
- ليدوم هذا الحب العجيب.
- العجيب؟!
- أمن الطبيعي أن يمحو حبُّ تاريخاً كاملاً؟!
- حبي أنا؟!
- ألا ترين أنه يبدلني كل يوم؟! من هيئتي وحتى وظيفتي.. قلبي وملابسي وعملي وقناعاتي.. أنني
أُخلق من جديد.. شخص بلا عذابات ولا خبرات سابقة.. شخص لا يشبهني سوى في الاسم.
- وأنا يا طارق.. كأنك تصف حالي.
- ولكنك جديرة بكل الحب فكيف تعذبت؟!
- هذه قصة طويلة مؤلمة.. قد أقوى يوماً على أن أعتصر روعي لأحكي لك تلك القصة البغيضة.
- فلتنوبي بي كما أدوب بك.. تذوب ألامك وتتحل.
ثم تتقم عليها الآن أن صارت جزءاً لا يتجزأ من تاريخك.. لهذا تتقم عليها؟! لأنها بقوة الحب
تمكنت من نفسك فأمكنها أن تغوص بداخلك فلا تستطيع أن تحجب عنها سواتك؟! ولأنها بسبب ذلك
الحب صارت- برضاك الكامل فيما سبق، وبإصرار ضميرك وحده الآن- حبيبتك الوحيدة التي لا
يجب أن تخونها ولو باشتهاء عابر أو بنظرة لسواها.. أبحنقك أن تحوز جائزة أسباب المحبة كلها فلا
تترك لقلبك مجالاً للهرب؟! ما أفدح الجنون وما ألعن مرضك!
أم تُراك تتقم عليها لأنها تُذكرك بسينك؟! تقوم أمامك وبداخلك كالمرايا.. فلا خداع ينجح ولا إسبال
جفونك يُخفي عنك الحقيقة!
أه.. ما أكثر أسباب العشق وأسباب الحنق!
إنك لا تستطيع أن تتجاهل ضميرك الذي يعشقها.. كما لا تستطيع أن تُسكن حنقك عليها..
ومرضك يتسلى وهو يراقب جنونك وحيرتك بين الأحاسيس المتضاربة.. ويمدك بأفكار عجيبة..
هأنذا تتقم عليها أن زرعت كل ما يحيطك من أشجار سمقت وامتدت ظلالتها وصارت موضعاً
ملائماً لحياة راضية، وبدلاً من أن تلوم ذاتك السقيمة ومَللك الذي يدعوك لأن تخرج من الظلال
لتحترق تحت سعي شمس الصيف تلومها هي! وتعلقك السابق بالحياة والسكينة ذهب إلى غير رجعة
وهاهو ذا قلبك يتعلق بالنشوة الحارة والسعير والثورة تعلقه بالحياة.
مَنْ إذن يستحق اللوم والحنق؟! هي أم أنت؟! تَبّاً للمرض الذي يقلب الموازين.
وارتمى مُنهماً على النجيلة فوق مرتبة التمارين الرفيعة، وهو يتخلص من بقايا الإعصار.. ورننا
إلى جائزة التي تتصعب عرقاً وقد بدت في صراع مرعب مع المجهول.. فانبجست بباطنه قطرة شفقة
مرة.. لكنه أغمض عينيه.
ويتردد بباطنه حديث بهيرة فينعاد للمرة المائة منذ الأمس.. «لستم إلا نُسَخاً مكررة بالكربون»..
ولكن بغتة يغزوه إلهام ناعم، تسلل إليه بيئس وفي جلاء تام، فتعجب كيف لم يصل إليه من قبل؟!
ذات الكلمات التي أمضته منذ الأمس، أشرقت عن جانب آخر حمل على سطحه الفرج.. إذا كان ما
أصابه قدرٌ محتوم كما تؤكد بهيرة.. إذا كنا نُسَخاً بالكربون.. فلا مبرر إطلاقاً لوجع الضمير إذن!
وشهق للاكتشاف في نشوة عارمة.. واتسعت عينه حتى أوشك أن يصيح في ظفر.. وتلقى من

قرص الشمس - التي لاحت للحظة من خلف سُحب متكاثرة- ما يشبه الغمزة فابتسم في حماس غامر ورضا.. ورننت إليه فائزة باسمه، ثم استلقت على مرتبتها بجواره، وهي تقول بين أنفاسها المتقطعة:
- خير يا بابا؟!!

أمسك برأسها وطبع على جبينها قُبلة حانية بلا كلمة فابتسمت مشرقة بالأمل.
رحلة قصيرة يا فائزة.. ثم أعود لحبنا الأبدي..

- ٣٣ -

ألقت بيريهان تحية الصباح بهيئةً ساخنةً من شفتين تتألقان بطلاء برتقالي، ثم وضعت جواز سفرها أمامه وهي تقول بين انبعاث خطير لبرفيوم شبيه بحقل برتقال أحاط جسدها كهالة من الحرارة:
- هذا هو باسبوري.

وتساءل في سخرية: هل ما يطرق القلب والشرابين السفلية الآن وهم سببه أزمة عمر كما ترى بهيرة؟! وهل ما يفوح في الحنايا من غبطةٍ ليس إلا سرابًا يحسبه الظمان ماء؟! وهل يجرب الملايين الآن نشوة كنتك؟! لو صح ذلك لما وجدنا في الشوارع حزينًا واحدًا.

وقبل أن يستسلم لموجة الأحاسيس المخدرة التي توشك أن تتداح، وخزته عضلة من عضلاته المجهدة، فانتبه حانقًا.. أهي عقبة جديدة.. بعدما تخلصت من عقبة الضمير التي لا تُقهر؟! ما أخفَّ سروري وأضعفه.. كأنه فراشة متيقظة تقزعها سعة عجوز على بعد عشرة أمتار فتهرب في لحظة. وبيريهان.. ألا ترى عُمرى الطويل الثاوي كالحارس داخل هيكل الضخم وشعري الأشيب؟! أغلب الظن أنها ليست ساذجة.. وأنها تعرف بكل تأكيد معنى أن أسقط في حبها.. فلم تسعى في هذا الطريق الوعر بهذا الإصرار؟! ولم تبادر إلى بدء هذه العلاقة العجيبة؟! هل تعاني بيريهان مرضًا كمرضك؟!!

وقالت تُنبهه إلى صمته الطويل:

- دكتور.

نحّ ضميرك وآلامك يا طارق.. وغُص في القدر الذي اختارك لتذوق اللذة التي وُعد بها من بلغ الخمسين كما أكدت بهيرة.. وبنون المرتاب الطامح إلى اليقين، قال باستهانة:
- بك شيء مختلف اليوم.

المدهش أنها لم تدهش، كأنها هي التي تضع الكلمات على طرف لسانه، كأنها تخطط لدوره ودورها.

وقالت بجرأة وأسنانها النضيدة تأتلق بابتسامة قاتلة وهي تمسك بأطراف ملابسها البرتقالية كأنها تستعرضها:

- الثياب أم البرفيوم؟! أم تراه الروح؟!!

وترك قدمه تنزلق درجة في المنحدر الحاد، وهو يسأل ذاته في فضول: فلنرَ أيهما يولم أكثر، السقوط أم المقاومة؟! وهمس من حلقٍ جاف، وطرف قصتها القصيرة ذو اللون الذهبي الباهت يهتز تحت دقات التكيف:

- جميعهم.

ربما أيقنت أنها تحكم حصارها على حواسه، فانتشت وذبلت عيناها المتألفتان.. صمم على دق الباب بقوة أكبر ولكن بمكر. فقال:

- هل أضايقتك؟!!

ولكنها تهمس وقد تلاشت أجواء المكتب والموظفين من الوجود:

- كنت تضايقتني.

- كنت؟!!

- حين كنت تصر على الصمت.. بلا مبرر!

هذه خطوة أخرى على المنحدر، ولكنك تسقط فيها بغير إرادة. المنحدر زلق كتلكما الشفتين المبللتين بالشهد البرتقالي؛ لذا فالحذر واجب. ووجم، فقالت في لومٍ محرض:

- هأنذا تصمت مرة أخرى.

وكزة موجعة بالصدر كأنها آخر زفرة من زفرات الضمير المقتول، تُجبره على الصمت، فقال:

- بل تكلمت بما فيه الكفاية.

تجلت الخيبة على وجهها. فهرب متظاهراً بالرد على رسالة على اللابتوب، بينما يطارد كلمات تتطاير كأنها سرب منطلق. وتحول عن المحاولات بغتة، بدافع من صدق الضمير بالتأكيد. ولكن لم وقد حسم أمره في الصباح؟!.. ولمح أصابعها تسحب جواز السفر من أمامه، فتوقع أن تنتهي المغامرة فجأة فرفع عينيه في فزع فالتقى عينيها الماكرتين، وضحكت كأنها أوقعته في فخ نظرتها المنتظرة.. وقالت في تحريض لا ينقطع بينما هي لا تتوقف عن دق المكتب بالباسبور في رتابة دقات الثواني:

- هأنذا أسمعك.

- ماذا أقول؟!!

- ما يطرأ ببالك.. كيفما اتفق.. وبلا أي حسابات.. لا أدري لم تُعقد الأمور البسيطة؟!!

- البسيطة؟!!

- بكل تأكيد.

- بيريهان.

- بل «بيري»!

أووووه.. هذه الفتاة محاربة مذهلة.. بكلمة تلقي دروعه وتكشف صدره وتقتل الكلمات التي يمكن أن تصدر من العقل فلا تبقى إلا كلمات القلب الطائشة التي لا تقل عن سحر عينيها.. وأدرك أن الكلمات القادمة لن تكون حروفاً.. بل رصاصات تقتل الماضي قتلاً..

وتغوص بيريهان في عمق عينيه.. وهي لا تزال تدق بالباسبور.. ما الذي يمنعه من الجنون؟! المكتب خال.. وبيريهان تهمس: هيبّ لك.. وإذا كان من الحكمة ألا تستسلم لجنونك، فمن الجنون أيضاً أن تستسلم لحكمتك بلا تحفظ! وعطر البرتقال ولونه المتوهج ينخزان قلبه وأوعيته السفلية.. وكلمة واحدة ستكفي وتقيض.. ولكنك لا تتطرق.

ألا تستحي من الصمت تحت الأعين الفصيحة؟! متى تحولت لصنم؟! متى غزاك حياء فتاة؟! لم أعثر فيما قرأت بالأمس على الإنترنت- عملاً بنصيحة بهيرة- في أزمة منتصف العمر، أي إشارة

للخجل المخزي الذي يخرسك الآن! أم هي أعراض شيخوخة تزحف داخل إهاب النضج والشعور بالمسؤولية. مسئوليتك عن فائزة وكرامتها وحياتكما.. وعلياء ابنتك ومستقبلها.. حتى بيريهان تفكر في مسئوليتك نحوها.. وتراجع عن قرارك الصباحي، فلأي سبب؟! ولم يستلذ الملل بتعذيبك، فيعرض لك ألامك في هيئة أشباح عاتية، ويعرض لك الدواء، فإذا مددت إليه يديك، تخلى عنك، فترى علاجك أيضًا في هيئة شبح مرعب؟! الإم يطمح مرضي؟! ما ألعن أن تستيقظ لتجد نفسك تلعب دور الكهل الحكيم، بينما أسفل الثياب شاب عاشق طامح للجنون.

ودفعه شعور غامض، فرفع رأسه ليتساءل بلا وعي كأنه يطلب معونتها:

- هل تعرفين كم من السنوات بيني وبينك يا بيريهان؟!!

وفوجئ أنها عند الباب في طريقها للخارج. تلقت سؤاله باستهانة، ثم قالت وهي تلتفت بجذعها فقط، مُلوحة بجواز السفر:

- هل أسلمه لميس نانسي أم أصرف نظر عن السفر؟!!

-٣٤-

صارت زيارة د. محسن واجبة بلا إبطاء.

هل أفزعك زلل قدمك اليوم درجتين؟! أم نكوصك عن قفزة شجاعة إلى الهاوية في اللحظة المناسبة؟!!

وهل ستجد عند محسن العلاج؟! وماذا تبغي أن يكون العلاج؟! حُبوب للشجاعة ترفعك على أكتاف الثائرين ضد دولة العقل والبديهييات؟! أم حبوب لعلاج هلاوسك المستمرة؟! ولكن كيف تواجه وحدك مرضك المقيت إذا شفيت من صورة بيريهان التي لا تغيب عن هلاوسك ليل نهار؟! كيف تصبر - بدونها- على كيآت الملل الحارقة وحصاره لك في النقطة الخائفة بين السماء والأرض؟!!

وهل تريد من محسن أن يُرشدك للمخرج الأمين من الأزمة؟! أم تريده أن يُمهّد لك طريقًا ناعمًا نحو الهاوية المثيرة، كما فعلت بك كلمات بهيرة ذات الوجهين؟! ولكن على أي حال صارت زيارة دكتور محسن واجبة هذا المساء.

وبحث بعينه في المطعم الراقى الغارق في العتمة لولا الشموع المتراقصة فوق الموائد. وسمع نداءً باسمه، ونبهه نادل بأدبٍ إلى موضع النداء وقاده إلى مائدة دكتور محسن وسط الموائد التي تقاربت بحميمية. تلقاه الرجل جالسًا، وبضحكة مجلجلة بلا سبب كالعادة، وهو يشير إليه بالجلوس، فحيّاه بالرأس وجلس. وأشار محسن نحوه بالشوكة، وهو يسأل:

- أئن تتعشى معي؟!!

هز رأسه رافضًا وقد جذبت عينه رأس ظبي مُسنّ مُثبّتًا على الجدار المقابل.

- خير يا دكتور طارق؟!!

انترع نظره من الظبي المسكين، وقال بعد ضحكة متوترة:

- أظنه كان من الأوفق أن نلتقي في العيادة.

- إذن تجيئني لاستشارة طبية.

- نعم.

تفكر الرجل باسمًا ثم وضع الشوكة والسكين وهو يقول مُهونًا:

- كفى الله الشر.. صف حالك.

- ملل.. أعني كان مللاً في البداية.. ثم فزع.

وأكمل الرجل ببساطة:

- ثم حزن وحيرة.. ثم ألم ضمير.. ثم تردد.

- هل يبدو كل ذلك بعيني؟!!

- بل بعُمرِك.. للعُمرِ قوانين حاكمة يا دكتور طارق.. ولا شيء أقوى من لعبة الأيام.

- لعبة الأيام!

أوماً الرجل مؤكِّداً والظلال تتراقص حوله على ضوء الشمعة المتراقص. غزاه التعبير العجيب «لعبة الأيام»، وزاد من حنقه، وأكد شعوره بالتقاهة كما شعر من حديث بهيرة، فتقلصت عضلات بطنه.

لعبة.. وأنا فأر يتخبط بمباهته المروعة.. لكنها في النهاية ليست سوى لعبة.

أراح ظهره على الكرسي في يأس، ثم قال:

- أليس هناك احتمال آخر؟!!

- مثل ماذا؟!!

- أن أكون جُننت مثلاً!

ضحك الرجل وقال:

- هذا وارد بالطبع.. ولكني أستبعد ذلك بخبرتي.

- ولكنك لم تكشف عليّ.

- صدقتي.. الموضوع أبسط من الكشف.

- يا دكتور محسن لقد صرْتُ ضجراً بالحياة كلها.

- لا شيء يضحكني مثل «صرت» هذه.

- ولم؟!!

- إنَّ «أنت» هو «أنت»، لا «كنت» ولا «صرت».. منذ التشكل بالرحم وأنت كما أنت.. فإذا

أردت استخدام «صرت» فقل: صرت أدرك أنني ضجر بالحياة!

- حقاً؟!!

- بلا شك.

- ولكنك تقول إن للعمر قوانينه.

- قوانين العمر تُظهر الأعراض الخفية الكامنة بداخلك، لكنها لا تُغير شخصيتك.. فأنت الضجر في العشرين وفي الثلاثين وفي الخمسين.. ولكن علامات ضجرك في العشرين غير علامات ضجرك في الثلاثين غير علاماته في الخمسين! ويحدث أن تتوء في مرحلة ما بهذا الضجر الذي نجحت من قبل أن تتعامل معه كأنه عرض جانبي من أعراض الحياة لا أكثر.. فتثور ثورة غير

عاقلة كثورتك الآن بينما كانت ثورتك في السابق هي العمل والزواج والنجاح!
ثم قال مُغيرًا الحديث:

- طارق.. صِف لي أحلامك حين تغرق في النوم.

- لم أعد أحلم إلا في يقظتي.

- وبم تحلم؟!!

- لن تصدق.. صارت تتناوبي أحاسيس مؤكدة تلح في أن أهدم حياتي لأبنيها من جديد فربما أعرث فيما فاتني على مسار أكثر بهجة يؤدي لنهاية مختلفة.. وأنغام ساحرة لا تنني تتردد في عقلي بلا انقطاع تخبرني بأنه في استطاعتي أن أثقب الأفق لأضيف للنهاية الحالية عُمرًا بهيجًا فأنجو ولو لحينٍ من الاختناق والنفوق الكئيب كحيوانٍ حانَ وقته.

- عظيم.. وبأي شكل تكون تلك النجاة؟!!

حج الطبي الغارق في ظلمة تكتنفها أضواء هزيلة تتراقص تحت رأسه من مائدة عليها رجل هائم يُقبل يد امرأة حسناء، وتصور لوهلة أن أعين الطبي الزجاجية تدمع. ثم قال:

- عُمرٌ جديد.

رشف محسن رشفة من كأس الماء، ثم قال بتأنٍ:

- أو حُب جديد.. فتاة صغيرة جميلة مثلاً؟!!

...

- تُعيد الزمان الراحل.. وتُعيد نشوات حُب الجامعة.

...

- ولو لم تصلح للمقارنة بالزوجة الحالية في أي شيء.

- إنك تهذي.

حججه الرجل بمكر وهو يقول مبتسمًا:

- قل إنني أخطأت بتشخيصي.

- فليكن.. ولكن ما معنى ذلك؟!!

- ببساطة.. استيقظ الماضي لسبب ما.

- الماضي؟! ما علاقة مللي الحاضر بالماضي الذي رحل؟! ولأي سبب يستيقظ الماضي؟!!

- ضحكة عابرة.. نظرة مُوحية.. صوت أثير.. موقف مُشابه.

- هذا جنون.

ضحك محسن وهو يمسك بالشوكة والسكين:

- وهذا يتطلب زيارة بالعيادة.

- إنني أتعذب يا دكتور محسن.. كنتُ مريضًا بالملل.. والآن يعذبني ألم الضمير رغم عدم تحركي أصلًا.

- هذا لأنك لم تعالج ملكك.

- وهل هناك أمل؟!!

- إذا تكرمت بزيارتي في العيادة، وإذا تكرمت بالبوح والصدق.

زفر وهو يشيح بوجهه فأردف الرجل:

- اسمع يا دكتور طارق.. أثق أنك ستعثر على الحل.. فطالما عددتك طبيياً نفسياً ضل طريقه إلى التخدير ثم البيزنس.. هل نسيت ما حلته لي من حالات لعدد من مرضاي حتى أدهشتني؟!!

- كان ذلك بحكم قراءاتي المتعمقة وعشقي للتحليل.. ولكني أتعذب حقاً.

لم يرد محسن كأنما يفتح له طريقاً إلى مزيد من الحديث. والتقت عيناه بعيني الطبي الزجاجيتين تحت جفنيه المشدودين بالخيط، فقال كأنما يوشك على البكاء:

- إنني أتعذب.. ينبو بي مكاني أينما حللت.. لا شيء من المتعة يوقظ حُبي للحياة.. فائزة وعلواء صارتا قيوداً تتدلى من شجرة الحياة، لا ثماراً لذيدة يبهجني أن أمتع روعي بالنظر إليها وبتذوقها.. وكلما اقتربت منهما حال بيننا جدار من البلور.. لم أعد أبتهج سوى بـ...

وانتبه فأمسك عن الحديث.. ولكن.. ألا يجدر أن تخبر طبيبك بكل الحقائق؟! وأولها بيريهان؟! أتضمن عليه بالسر العزيز، أم تضمن على نفسك بالشفاء؟! تردد قليلاً ثم قرر أن يمنح نفسه فرصة للتفكير وأن يخبر محسن بها في زيارة أخرى.. وعاد يقول:

- ولعل أكثر ما يعذبني أن أكون مُجبِراً على النظر للوراء إذا ما أردت أن أطلع حياتي.. القطار لا يتوقف ولا يتقهقر.. ولا أتصور أن جميع المحطات البهيجة قد صارت خلفي.

ولم ينطق الرجل مكتئباً بالإصغاء. وتملكه ضجر مفاجئ، فهمم بالقيام، ولكن الرجل قال كأنه تذكر: - دكتور طارق.. ذكرني حديثك عن الأنعام الساحرة التي تتردد في ذهنك لتهدم عالمك بأسطورة تقول إن ملكاً أراد أن يحمي كنزاً كبيراً فوضعه في مغارة تشرف على مضيق بالبحر، ورمى على المضيق تعويذة، فكلما حاول أحد البحارة أن يصل لموضع المغارة والكنز فتنته أصوات عذبة وغناء حتى يذهل عن نفسه فيصطدم مركبه بالصخور فيهلك قبل أن يتجاوز المضيق.

انتظر هنيهة حتى يمتص طارق القصة ثم أردف:

- لا شك عندي أنك ستعثر على الحل.. أنت عبقرى في التحليل النفسي.. ولكن واجبي أن أحذرك.. لعبة الأيام لا حد لمكرها.. ولا حُب في سننا.. أي حُب يجيئنا الآن ليس إلا صورة خادعة تأتيك من الماضي كما يأتيك ضوء النجوم التي انطفأت منذ قرون.. تماسك.. ولا تلتفت للنداءات المسحورة حتى تمر سفينتك من هذا المضيق.. بعدها سنكتشف أنه لا شيء كان حقيقياً سوى الشركة وفائزة وعلواء..

-٣٥-

تَبّاً لكل شيء.

يرفض الطب النفسي – كالعالم كله- الاعتراف بحبك الصادق لبيريهان. بهيرة تراه تكررًا ساذجاً لمهارة إنسانية. ويراه محسن استجابة لنداء قديم من الماضي غفلت عنه في حينه، ثم حين أصابك الوهن رُحت تُلبيه. وعجيب جداً أن يربط محسن بين بيريهان ونوران.. وعجيب أن يستهين بالملك بينما تحكّم الدنيا حصارها عليك بنظريات التحليل النفسي الساذجة، بجدران مكتبك، بسقف المسرح، بالقبعة السماوية، بنانسي وبهيرة، بفائزة التي لا يعتورها نقص ولا كسل فلا تدع لضميرك مُبرراً للموت أو النوم على الأقل.. حصار أفقي وحصار رأسي.. وأنت كفأر تجارب تبحث عن المنفذ الذي

تنتهى به اللعبة! أوه.. نعم لعبة! الآن أضع يدي على أول الخيط.. منشأ مرضي هو شعوري المفاجئ أن حياتي لم تكن سوى لعبة.. وأني عشت أعماراً مديدة أحاول التخلص من العقبة تلو العقبة، دون أن أعرف ما هي المرحلة التالية.. لعبة.. وأنا الفأر.. ولكن ماذا أيقظ داخلي هذا الشعور المفاجئ، ومتى؟! وأي ضحكة.. نظرة.. صوت.. موقف كان السبب في المرض؟! وكيف أعيش خمسين عاماً ثم أستيقظ يوماً لأكتشف أنني هذا الفأر السجين؟! ما أشبه ذلك بأن أسمع عن رجل اكتشف في الخمسين من عمره بأن مصيره إلى الموت ذات يوم!

ويرفض الجميع الاعتراف بحق الفأر في اختيار حُبه الجديد! ويُصرون أن كل ما ينتابك من أحاسيس سماوية خالقة ليس إلا عَرَضاً من أعراض عمرك كالتسنين والإسهال والحصبة، أو نمو الشارب وتضخم حنجرتك في مرحلة تالية! ويبقى أن يسألوك: هل يُعقل أن يحب أحدهم الحصبة؟! لو كانت بيريهان عرضاً مرضياً، إذن يضيع إلى الأبد ذلك الأمل البارق الذي يلوح بإزميل ضخم مغرياً إياك أن تُقدم إلى موضع الأفق الخانق لتفتح لنفسك مهرباً إلى حياة جديدة! أي عذاب؟! وأي حيرة؟! وأيها السراب.. مَلِّي أم مَلِّي؟!!

ولكنك تعشق بيريهان.. بكل ما تبقى من عمرك تحبها.. بكل ما يستطيع قلبك.. الذي يُجهد الترييض في الصباح.. تُحبها.. حُب بيريهان حقيقة لا لعبة من لعب الأيام.. إن ما أشعر به هو شعور أصيل ينبعث من ذات المنشأ المبارك الذي نبت منه حُب نوران ثم حُب فايزة.. لا علاقة للسن بهذه الحادثة البهيجة.. وإذا كان حُب بيريهان وهمًا، فلم لا يكون جميع ما نمر به من قصص محض أوهام وهلاوس؟! وإذا كان عمرك الماضي لعبة فإن القادم لن يكون كذلك.. أو على الأقل سنتساءل: ألا يحق للفأر أن يختار متاهة جديدة وبِنفسه؟! وأضاعت شاشة موبائله، وأدهشه أن تكون بيريهان!

-٣٦-

يخفق القلب.. وتفور الدماء بمخلوط بهجات سكرية.. ويجيئه صوتها عبر سماعات الكاسيت في صالون السيارة.. ناعماً، حزيناً، مُحرضاً:
- دكتور.

- بيريهان.

- لا أعرف أين أنت الآن.. ربما كنت في بيتك.. ولكنني لم أعد أفكر في العواقب.. ولم أستطع النوم حتى أتحدث معك.

وصمتت، فقال في خدرٍ وهو يُجرب شجاعته:

- بيري.

أشعلها نُطقه للاسم فيما يبدو، فقالت على الفور:

- طارق.

وصمتت مرة أخرى.. النار تحرق السيارة كما أحرقت المكتب.. وما أعجب أن يُمتعنا الجنون وهو يتغذى على ذواتنا؟! هل قالت طارق؟! مزق الجنون ثياب الحكيم وركلني إلى عمق الشباب.. وسمع نهنهة تُشبه البكاء، فهمس في فزع رغم ذهوله:

- بيرى.. ما بك؟! -

لا شيء سوى نهضة ونحيب خافت.

ودَّ لو كان يراها.. لو كان يرى ترفُّق مُقلتيها بالدمعات الأولى.. دموعها التي تسكبها من أجله! ما أشدُّ بؤس الماضي وبؤس بهيرة ومحسن والعالم أجمع.. هل يمكن للعلم أن يفسر الحب؟! أن يفسر تحول النار - التي تفح بقلوبنا كالتنانين الأسطورية- بردًا وسلامًا؟! وكيف يفسر العلم جيشان صدر الفاتنة الصغيرة بالحزن من أجلك؟! لعبة الأيام؟! ما أشدُّ سفاهتكم.. لو تكررت تلك اللذة ما رأينا على الأرض حزينًا واحدًا.

- بيرى.

وبين النهضات التي يسمع عزفها من مخارج السماعات وحرارتها التي يحس هبوبها من مخارج التكيف، قالت:

- وهل يهمك أن تعرف ما لي؟! -

وحلِّم من أحلام المنتحر - رغم كل شيء- أن يطلع بلا تأجيل على غرائب الغيب وأن يجلو أسرار الحياة الآخرة.. وما أمتع السقوط في قلب الحقائق.. فلنتنحّر بلا إبطاء.. ولتستسلم للصوت الساحر الذي يناديك داخل المضيق.. فربما لا يكون الكنز المنتظر بأمتع من ذلك النداء الساحر والهلاك على يديه!

- ٣٧ -

لم يعد يتحمل السكون. خفَّ وزنه حتى تيقن من إمكانية الطيران خارج السجن. وطار بالسيارة وهو يبحث في ذهنه عن أغان يمكنها وصف حاله. فرحة الشفاء بلا أدنى شك.. وإلا فما هي؟! سرور جزيل كثيف كأنه بلا نهاية.. وأدهشه أنه لم يستمع لأغنية بتركيز منذ زمنٍ طويل، لذلك لم يتذكر أي شيء.. ويهمس بوجوده خاطرٌ ذو صوتٍ عميق بأن هذه الفرحة غير حقيقية، وبأنها لا يمكن أن تستمر.. ولكنه يهزأ بكل شيء.. حتى صحوه الضمير التي ستصفعه بغير دعوة كما تصفع اليقظة مريضًا تبخر المخدر من دمانه عقب جراحة قصيرة، عاهد نفسه بأنه يتعامل معها بحزم وبرود، وكما يجدر به أن يتعامل مع حياته من الآن فصاعدًا.

وشعر من جديد بدبيب الأمل وبرد البهجة داخل شرايينه فأمكنه أن يبتسم من القلب لأول مرة منذ دهمه المرض القاتل. وعاد خاطر المقيت يتساءل متحدثًا عن خطوته التالية.. فقال ببساطة: أعيش. كنت دائمًا ذا قرار وعزيمة وقرارات مهولة الأثر، فما العيب في أن تسترد شخصيتك التي خملت بفعل جريان حياة هادئة ناعمة.

ونوران تدللت قديمًا بفعل عشقك الجنوني لها فظنته لن ينتهي.. وفي اللحظة الحاسمة قالت بفرع وهي تحجب الضوء الباهر بكفيها لتتمكن من رؤيتك وأنت أمام لهيب شمس مارس المصفرة:

- إذن فأنت تتخلى عني؟! لا أصدق أنك تبينني بهذه البساطة!

فتصمت في تصميم، بينما الحزن نار تلتهم كل ذرة في كيانك. وعادت تقول:

- كنت تخدعني؟! كل حُبك كان خداعًا؟! -

- بل أحببتك أكثر من روحي.

- كفاك كذبًا.. إنك لا تتورع عن إلقاءي وراء ظهرك إذا اضطرت لاتخاذ قرار يضمن سعادتنا.
- لن تكون سعادتي في ترك الطب الذي وهبت له أحلامي منذ الطفولة.
- أرأيت؟!
- نوران.. أنتِ تطالبيني أن أختار بين مِيتَتَيْنِ.
- حياتي معك إحدى مِيتَتَيْنِ؟!
- بل تركي للطب موت.. وتركي لك موت أكبر.
- إذن لا تتركني.
- وأنتِ ترفضين أن ترتبط ما دمتُ طبيبًا.
- بل أرفض أن ترتبط ما دمتَ لا تجني من عمالك سوى ما يمكنك من شراء دبلتين ثم نشقى بقية حياتنا.. لن أعيش على مساعدات بابا بينما دكتور هاني البحر اوي يعرض عليك مرة بعد مرة هذه الوظيفة الرائعة في شركته ويُصر على أنك عبقرى خلقت للتجارة.. ولكنك ترفض الوظيفة التي تضمن لنا الحياة التي أحلم بها، لا لشيء إلا لأنني لا أعني لك شيئًا.. ولأن أحلامك وأحلام أمك أهم مني ومن قلبي الذي مزقته.
ولم يكن للكلام فائدة فصمت، وراقبتها وهي ترحل لآخر مرة.
كنت عظيمًا في صمودك كما كنت عظيمًا في حبك.. ولولا ما اعترى القلب والعقل من خلل في الأيام الأخيرة ما مرت نوران ببالك من جديد.. ولا تمنيت رؤيتها كما تشعر الآن.. أف..
ومن أعراض الخلل الرهيب أن يدفع المرض فائزة - التي كانت دواءك- إلى خارج ذاتك.. بلا سبب ولا منطق.. خطوة خطوة.. وليلة بعد ليلة.. وساعة بعد ساعة.. تتخلع فائزة شيئًا فشيئًا فيمتلئ التجويف المتخلف عنها بخليط من ذكرياتٍ قديمة تخص نوران وأمنياتٍ جديدة موهوبة لبيريهان..
أه.. وما أعذب ما يهب على النفس من نسيمات إذا ورد اسم بيريهان! ولكن أي أغنية يمكن أن تصف حالك؟!
-٣٨-

وفي الصباح اقتحمت نانسي المكتب بلا استئذان:
- ما هذا؟!
ونظر ثم قال بتأن:
- باسبور دكتورة بيريهان.
- وما الداعي لسفرها؟!
لم يهتز كما توقع، بل قال بثبات:
- العمل بلا شك.
واتخذت مجلسها في ذات الموضوع الذي كانت تحتله حديقة البرتقال بالأمس، وقالت في غضب مكتوم وجرأة لا يذكر أنها حدثت من قبل:
- أنا غير مرتاحة.
حدها صامتًا بنظرة ضجرة، فقالت وهي تقوم مرة أخرى بعصية:

- هذه البنت تسعى لمصيبة..

- ٣٩ -

شهر كامل.

مات دكتور طارق الكيلاني القديم.

نعم، مات بلا أدنى شك.. وجعل يُشيعه كل يوم في حياٍ وبساطة.. لا بكاء ولا حزن ولا أنة من ضمير.

تكيف مع الوضع الجديد.. ونزع منه المرضُ هذه الأحاسيس المرهفة.. فقط قد تتلوى الأمعاء أو تختلج عضلات الصدر والضلوع بين الحين والآخر شفقة على فائزة وعلياء.

وقد تغزوه إذا ما شاركهما السهرة، صبوات حنين دافئة، توشك أن تتقذه ولكنها لا تفعل إلا كما يفعل الأمل اللعوب الذي لا يستقر حتى يظفر به. كان المرض راسخًا، وكذلك كان سعيه للشفاء باستخدام أقراص بييري السحرية!

وتعامل مع مرضه بشجاعة.. وغمره السرور في أحيان كثيرة، فاستعاد الكثير من ذاته القديمة، وواجه بحزم همسات الضمير الخائنة.

لتنصر ثورة الجنون.. ولتتقذ ما تبقى من عمرك.

ومرة قالت بيريهان في خجل ليس من طباعها المعتادة وهما يتهيآن للغداء قبل العودة للقاهرة عقب اجتماع عمل:

- هل أقول لك سرًا؟!!

وتنفس السحر المنتشر حولهما في جو المطعم السكندري الذي يستقبل غروبًا مزمجراً:

- قولي.

فقالت وهي تنافس عنف الموجات الخريفية التي تضرب صخور الكورنيش فتغسل برذاذها زجاج المطعم:

- يلذ لي أكثر أن أناديك: «دكتور طارق».

وضحكت فبرق خجلها، وقالت مُفسرة:

- أشعر بعظمتك وأطمئن إلى قوتك.

ويوم آخر قالت بحديثها الشبيه بكأس خمر أصيل:

- وأنا أحبك.. أحبك.. حتى لو لم أسمع منك الكلمة التي ترفض النطق بها حتى اليوم.. لإيماني أن

العظماء من أمثالك هم رجال أفعال لا أقوال! فتكفيني نظرتك الحنون تارة والنشوانة تارة.. وأفعالك

التي تدل كلها على أنك تبادلني هذا الشعور العجيب والجنون الفريد.. ولنترك لنهر الأيام الجميلة

القادمة مركبنا الصغير.

فقال في نفسه للمرة المائة: ما أتفه الدنيا إذا قُورنتُ بسحرك!

وفي الشركة، فوجئ الجميع برئيس مجلس الإدارة وقد خصص جزءًا من يومه المكتظ بالأعباء،

لزيارات العملاء والمستشفيات في كل المحافظات بعد انقطاع لأعوام.. وغلب نانسي غضبها فقالت

ذات صباح:

- نحتاجك في المكتب يا دكتور طارق.. أما الزيارات الهامة فهي لمديري المبيعات و«مديرة» التسويق.

فقال في ثبات:

- ولكنني أحتاج أن أراقب السوق بنفسى كما فعلت قديماً.
وتهم أن ترد عليه فتقول بأنه لا مانع من ذلك، ولكن المانع أن تكون جميع الزيارات بصحبة بيريهان! ولكنها تصمت. ثم تعود بعد دقيقة وهي تطلب توقيعه على جزاء بالخصم على بيريهان. ويتساءل في دهشة، فتشير إلى سبب الخصم المدون بالورقة: «عدم الالتزام بالملابس المناسبة للعمل».. ويتردد في التوقيع وهو يفكر في حجة مقنعة. ولكن ها هي نانسي تحدج بنظرة ترقب كأنها تختبره. فيوقع الورقة وهو على ثقة من أن بيريهان ستلتمس له العذر..

-٤٠-

وبعد ساعتين كانا في المرسيديس في طريقهما لزيارة عميل.. السيارة تشرق بوجود بيريهان. ويطير عطرها الجميل فيملاً قلبه وصالون السيارة ثم يغفو فوق المقاعد حتى آخر اليوم. ويتلذذ بالعطر تلذذه بنعومة بيريهان وإغراء ابتسامتها وحرارة أحاديثها الشابة التي تثبت به من جديد دماء ساخنة ودهشة ودّعها منذ زمان رغم توهج فائزة الذي لا ينطفئ.

واستمعت السيارة إلى أسئلة الفضول المدغدة، عن الحب القديم، والأسرة، والماضي، والحاضر، والمستقبل. كما غزتها موسيقى جديدة وأغان حديثة لم تكن تسمع إلا بواسطة علياء في الليكزس المخصصة للأسرة. وصدحت السماعات بأشعار عجيبة بعضها لمحمود درويش وبعضها لأناس لم يسمع بهم، وأغنيات لهبة طوجي وغادة شبير وأخرى.

استمع وابتسم وحاول مجاراة ما يحدث بينما يغسله طوفان من ماء بارد مُنعش فيزيل ما يتراكم في الشرايين وفي القلب والأفكار من كلس الماضي وحجارته.

وبالرغم من ذلك كله، بالإضافة إلى جرأتها عليه، وتعدها لمسه بين الحين والحين، إلا أنه وقف من التمادي لأبعد من تأملها وهي إلى جواره موقفاً أخلاقياً لا يتسق مع قراره السابق بالاستسلام. فلم يسمح لنفسه إلا بتقبيل يديها كنوع من «جبر خاطر»! وكبح ذاته صوتاً لها من كل ما يفسد براءتها أو روحها حتى يتخذ القرار الأكبر. وتساءل في نفسه: هل تؤجل ذلك لأنك تنوي أن تخطو خطوة باتجاه الحلال؟! ودهش.. فكيف يستطيع أن يتخذ قراراً كهذا؟! هل تتصور أن يكون لك بيتان؟! وهل يكون لك بيت بلا فائزة؟! عندئذ يصمت في حيرة.

وفاجأه اليوم أن بيريهان منطلقة كالعادة، كأنها لم تتسلم الإنذار من نانسي، فارتاح لذلك. ولكنها في الطريق قالت ضاحكة:

- نانسي المسكينة سلمتني ورقة بخصم ثلاثة أيام من راتبي.

ولمحاها وهي تراقب انفعالاته في مكر. فقال متهرباً وهو ينظر للطريق:

- لا بد أن ذلك ضايقك.

فقالت بصوتها الدسم:

- تعلم أنني لا أنتظر الراتب.

وعادت تقول وهي تسوي شعرها بمرآة الشمساسة:

- ولا يهمني خصومات ولا غيره.. كل ما يهمني من الشركة أن تكون أنجح وأنجح.. فقط لأنها شركتك.

كالعادة يتمسك بعجلة القيادة، كما يتمسك بالصمت الظاهر بينما يموج باطنه بالطرب والجنون.. ويختلس منها النظرة تلو النظرة كرشفات من فنجان قهوة مظبوط، ويراقب بربع وعيه الطريق من أمامه. ويُغريها صمته، وتهيم باتزانها، فتتطلق في الحديث بسرور صادق:

- ما يضايقتني حقاً أن أعلم أنك قد وقّعت عليّ الخصم وأنت غاضب مني. فيلتفت في عنف لينفي الفكرة:

- هذا لن يحدث.

فتقول بإغراء وسعادة:

- إذن فلم يحدث شيء.. ولا اعتبار عندي للورقة ولا الخصم البائس!

ومرة أخرى يتمسك باتزانها، فتتفجر في الضحك، ثم تمسك برأسه الكبير بين يديها ضاحكة وهي تقول:

- ما أعظم ثبات حبيبي كأنه أبي الهول.. ما أجمل حبيبي وتُقله.

فينفجر في الضحك وهو يود أن يرد التحية بقُبلة لولا حُبه الأمين الصادق!

وفي ردهات المستشفى، في الطريق إلى مكتب المدير الطبي حسب الموعد، سبقته بيريهان فأمكنه أن يراقب مؤخرتها المرتفعة التي أثارت غضب نانسي! استسلم للنظرة مدفوعاً بالطوفان الذي يحوه من الداخل، فيغسل حناياه ويخمد نوبات ضميره المتراوحة.

كيف امتلكت بيريهان في خمسة وعشرين عاماً هذه العجيزة المذهلة؟! وكيف تتناسق بهذا الشكل المذهل مع عودها الفرنسي الرقيق؟! وهل كانت معها يوم حضرت لمقابلتي في الإنترنت؟! وهل اعتمدت قرار تعيينها مدفوعاً بتأثيرها المُسكر؟! لا.. أقسم إنني لم أنتبه لها قبل الآن.. ولعلي لم أكن أنتبه لها لولا غضبة نانسي.. كما أنني كنت متحصناً - وقت الإنترنت - بالرضا ونعيم حياة وُعدت باستقرار لا نهائي.

وهل تنسى كيف تأثرت يوم الإنترنت بلا مُبرر حين سألتها ضمن أسئلته:

- وماذا يعمل والدك يا دكتورة بيريهان؟!!

فأجابت بصوت مبحوح كأنها تسرد حادثاً مخزياً:

- توفي بابا وأنا في التاسعة من عمري.

وحُيل إليك أنك ترى دموعها، فغزأك حزن غامض مفاجئ؛ لذلك كان مستحيلاً أن ترى ما «خلف ظهرها» من مسرّات وإمكانيات للبهجة! ولكنك لا تُتكر أيضاً أن مشهد أردادها الثريّ هو أحد الهبات السعيدة.. وأحد الاكتشافات الممتعة.. إلى جانب شفتيها، ومكر عينيها، ودسامة صوتها، وارتفاع جانبيّ فخذيها فيما يلي الخصر، ثم ذكائها وإصرارها المتهور!

وودّع الأرداد المثيرة بنظرة ممتنة، وهو يحث خطواته ليسير بجوارها!

وكما صار يغيب عن المكتب بعِلٍّ مقنعة، صار يتغيب عن البيت بانتحال أكاذيب متنوعة. جذبته سهرات دكتور علاء في مقهى كبير بمصر الجديدة، فأمضى بها أوقاتاً طويلة كانت مخصصة فيما سبق لأحضان فائزة ولأحاديثهما وأحلامهما المشتركة.. ولكن المساء، في حاله الجديدة، صار مدعاة للشجون والألم الذي لا تستوعبه جدران فيلته.. فبعد رحيل بيريهان في نهاية كل يوم، كان يعاني انتكاسات مذهلة كالمخمور الذي تتقلب بهجته صداغاً وغثياناً. وتستيقظ تساؤلات مريرة، وتتجسد المخاوف بيقين كأنها حقائق لا طريق للفرار منها إلا في صخب الأحاديث الجادة والتافهة في سهرات دكتور علاء. ولو أطاع جنونه لطلب من بيريهان ألا ترحل إلا بعد انتصاف الليل!

وفي أوقات غلبه الشوق فتمكّن من دعوتها للعشاء مرة أو مرتين.. وتجلّت بزینتها وأزيائها الكاجوال في هيئة مُغايرة تماماً لما تبدو عليه بالمكتب رغم تحرُّرها أصلاً. وفي هذه السهرات كان يكتشف ذاته مرة بعد مرة.. وينتبه إلى الجذوة المشتعلة الكامنة تحت الأعواد الجافة لما يسمى العمر.. كما جعل ينتبه إلى فتنة بيريهان المثيرة، وسحرها الذي يتجدد في كل لفظة أو بسملة أو ضحكة، كأنها ألف فتاة.. وأغراه الجنون مرة بعد مرة ودعاه بإلحاح إلى احتضانها أو تقبيلها.. وراقب شفيتها ونظراتها الداعية المُرحبة بشوق متحياً الفرصة للانقضاض.. ولكنه كان يتراجع في اللحظة الأخيرة مؤجلاً أن يقمها في الصراع الجنوني حتى يطمئن إلى رسوخ جنونه وتعذر شفائه وامتلاك كافة المستندات الرسمية التي تؤكد موت طارق القديم! وعرف أيضاً الكثير عنها، رغم أنه لم ينطق بأي شيء يخص بيته إلا قليلاً مما لم يتمكن فيه من مغالبة إلحاحها. وروت له مُلخصاً لحياتها فقالت:

- تزوجت ماما بعد وفاة أبي برجل أعمال ناجح.. هشام المنيأوي.. تعرفه؟! رجل محترم وناجح جداً يعمل بصناعة النسيج ولديه عشرات المصانع.. أنقذنا أونكل هشام بعد نفاذ ميراثنا الكبير من أبي بسبب إسراف ماجي..
تضحك ثم تُوضح:

- ماجي.. ماما.. وأظن أن أونكل هشام قد تزوجها بعد زيجة سابقة فشلت لعدم قدرته على الإنجاب.. فصرت وحيدتهما مع ما لذلك من مزايا أهمها الدلع والاهتمام.. وكان الرجل عظيماً كرب أسرة.. ولكنه لم يكن عظيماً كأب.. وأغلب الظن أنه كان يتهرب من إحساسه بالواجب نحوي.. فلا أذكر أننا تبادلنا حديثاً طويلاً رغم ما بيننا من ودٍّ صادق، ورغم ما يغدقه عليّ من مال بلا حساب.. هل تعرف أنه بدافع من احترامه لي لم ينزع صورة بابا المعلقة في الصالة؟! لكنه لم ينصحي يوماً أو يحاول تقويم سلوكي مرة.. ولا أنكر أنني أحترمه ولكني لا أتصور أن أبي كان بهذه السلبية تجاهي..

وعبثت بكأس أمامها وهي تقول مُطرفة في حزن يمنحها سحراً جديداً ضمن الألف سحر:
- أقول لك سرّاً؟! كم تمنيت لو كان أونكل هشام قاسياً أو حازماً معي.. ولكنه كان يعذبني بهذه السلبية، فأتذكر كل لحظة بأنه لا أب لي.. وبعد رحيل أونكل هشام.. خلت الدنيا تماماً من أي معنى.. بل وتزوجت ماما مرة بعد مرة بلا نجاح حقيقي..

وتدمع فيحتضن راحتها ويُقبل ظاهر كفها، فتمنحه نظرة ممتدة دامعة لا أثر فيها للسحر.. هذه النظرة تقتله وتقتل جنونه.. ما أبغضها حين نُوقظ شعوره المُخزي بالأبوة.
ويخطر له أن يُغازلها ليستخرج الأنتى التي يعشقها فتتوارى الابنة المسكينة، فقال:

- وهل ماما جميلة مثلك؟!!

فقلت في استنكار:

- ماجي؟!!

قلّبت في موبايلا ثم دفعته إليه. نظر فتدرج وجهه بحُمره، وردّه إليه وهو يقول ضاحكاً رغم فزعه البادي:

- ما هذا؟!!

انفجرت في الضحك وهي تسند رأسها على الطاولة، ثم قالت وهي ترد إليه الموبايل ليعيد النظر: هذه ماجي.

وجعل ينظر نحو السيدة الرشيقه البيضاء التي وقفت في زهو فوق رمال الشاطئ تفخر بأنوثه غزيرة وجسد ناعم وبيكيني أسود. جميلة حقاً.. بل جميلة جداً.. ما أجدرها بأن تكون أمّاً لبيري المذهلة.. وسحبت بيريهان الموبايل وهي تقول:

- عرفت الآن أنها ليست جميلة مثلي؟! بل هي الجمال كله!

ابتسم بينما مشهد المرأة الجميلة المثيرة قد زاد من إحساسه الخائن ببنوة بيريهان.

وفي طريقه للبيت وخزته لدغات ضمير، توشك أن تُعكر صفو حلمه. فيقول في تصميم: أحبها مهما حدث.. ثم يطمئن خاطره فيقول: ما أعجب ما يجري في الدنيا! ولن تكون قصتي أفدح ما يجري! ثم يصرخ كأنه يستجلب القوة: سيختار الفأر لعبته الجديدة، وماتاهته، وطريقه نحو المنفذ والحل السعيد بلا عقل ولا بديهيات! ويتساءل صوته الباطني المُمل عن العواقب، فيجيب ببساطة: كل شيء يجري في الخفاء.. فلن يمس الأحبة سوء.. ولن يكون ثمة ضحية سواي.. وبيريهان! ولكن إلى أي حد ستشاركك بيريهان المغامرة؟! بل إلى أي حد تقبل بأن تقحمها في التجربة المرعبة؟! وأي مرض أصاب الفتاة الفاتنة لتشاركك رحلة العلاج المقيتة التي تجبرنا على الانعزال عن العالم داخل عنابر من عشق وهيام مقبوحين؟!!

ورغم إصراره، لا يستطيع مواجهة فائزة وعلياء كل ليلة بوجهه الجديد، فيُكثر غيابه عن البيت مُتعللاً بحاجة العمل ولا يروح في أغلب الأيام إلا بعد تيقنه أنهما قد خلدتا للنوم.

وتُعاتبه فائزة بودّ وهي تحل أزرار قميصه. فيقول في حماس كاذب:

- لن أسمح لمشكلات العمل في الانتصار عليّ.. هأنذا أعمل ليل نهار حتى تتكشف الغمة.

وابتسمت، كما اعتادت دائماً أن تبتمس. فأوشكت أن تغزوه النشوة القديمة. وتذكر كيف كان لقاءه بها ذات يوم أعظم مكافآت القدر.. وكيف كان حبها أبهى أفراحه بعد فرحته وهو يُنهي لأمه نبأ اختياره للتخصص أخيراً بعد أعوام طويلة من الدراسة.

وتقول الأم العجوز في تشكك:

- طبيب تخدير؟!!

ثم بقلق:

- هل ستكون لك عيادة؟!!

ويُضحكك - وبهيرة- سؤالها، وتخبرها أن عمك لا يتطلب عيادة. فتبتسم في مُجاملة حتى لا تطفئ فرحتك. ولكنك وبهيرة تلتقطان قلقها.. فنقول بهيرة:

- طبيب التخدير طبيب مهم جداً يا خالتي.

وتتابع أمك حديث ابنة أختها لإيمانها بأنها طبيبة كبيرة. وتُردف بهيرة:
- وسيكون شريكي في جميع عملياتي بإذن الله.

عندئذ تبرق عينا السيدة العجوز بالفرح، وتطمئن قليلاً، وإن لم تستطع هضم فكرة ألا تكون لك عيادة.. وتعاهد نفسك بأن تثبت لها بأنك طبيب كبير مهما كلفك ذلك من تضحيات وأحزان.. وتقفز برشاقة فوق عثرة نوران وذكراها التي تطاردك في كل مكان.. وحتى بعد رحيل أمك ووجدتك في الحياة حافظت على حلمك وحلمها بوفاء شديد.. ثم قابلت فائزة الجميلة.. فانقلبت حياتك رأساً على عقب.. وفاجأ قرارك - بافتتاح شركة لمستلزمات جراحة العظام- بهيرة، ولكنها كانت تأمل بأن تسير حياتك ببس، كما أن قرارك هذا قد أكد لها عمق عشقك لفائزة فباركته وهي تدعمك بما استطاعت من خبرة ومال وعلاقات. وقلت لها صادقاً:

- فائزة حُب عمري.. وهي جديرة بكل تضحية في سبيلها.. كما أنني أتفهم اليوم وجهة رأي نوران منذ عشرة أعوام.. فلا يجب أن تعيش فائزة إلا في مستوى يليق بها.. ولا أن تتصور ولو اللحظة أنني قد أطمع في مالها.. لذلك سأفتتح شركتي.
أما فائزة نفسها فقالت:

- لا أفهم شيئاً في أعمالكم.. وما معي من ميراث أبي وأمي يكفل لنا حياة ناعمة.. فلا تفكر سوى في مستقبلك وفيما يسعدك فعله.. أما أنا.. فإنني ملكك ولو كنت تمورجياً..
وضحكا. وسار في طريقه الجديد بإصرار عنيد كإصراره القديم. فلم يلق سوى نجاح بعد نجاح..
ورنا بحنين إلى فائزة التي تقرأ كتاباً قبل النوم على ضوء أباجورة الكومودينو، فحزن لجهلها،
وتساءل: كيف يُحولك الملل إلى شخص خائن؟!
وأغمض عينيه وهو يكتفم الفكر عن التماذي وقال في ألم: هأنذا بموقعي أمام أعينهم ولكنني لا أوجد إلا كجسد سيدنا سليمان الذي يتكأ ميتاً على عصاه.. أو كما يوجد النجم الذي انفجر منذ مليون سنة بينما لا يزال ضوءه يبتسم للسهارى..

-٤٢-

وذات مساء قالت فائزة وهو يوشك أن يرقد في السرير ليلة الخميس:
- علياء تريد أن تجلس معك قليلاً.

فرحب من قلبه بلقائها. وبعد لحظات أقبلت علياء فرقدت بينهما بسعادة فوق السرير. أنهمكوا في الأحاديث الضاحكة فيما يتابعون فيلماً عربياً في الشاشة الكبيرة المثبتة على الحائط المقابل.. وقالت علياء وسط حديث طويل:

- ولماذا كففت عن الرياضة الصباحية يا بطل؟!!

فالتفت إليها وإلى فائزة بحرج وهو يقول:

- سأعود لها بكل قوةٍ حالما تتحل مشاكل العمل.

وتغمره فائزة بابتسامة تشجيع وسماح فيفتح قلبه بغتة.. ويغزوه شعور بأنه مدفوع إلى الطريق الجديد بغير إرادة عكس ما يظن!

ظنك بأنك فاعل لا مفعول به ليس إلا جزءاً من اللعبة الأزرلية فيما يبدو.. وانتكاساتك في غياب

بيريها تندر بعواقب وخيمة ولا تبشر بالشفاء الكامل إلا بمزيد من التهور والجنون..
ولكنه يتملص من الفكر، مخلصاً للسهرة السعيدة..
وتقبله علياء وتقوم للنوم، وفي طريقها للباب يجذبه خاطر مؤذ حين تقع عينه على ظهرها إذ
يتصور دورة الحياة القادمة التي ستضع علياء في دور البطولة محل بيريها ذات يوم..
ولكن على أي حال سكنت السهرة العائلية الحميمة بعض شكوكه وكثيراً من آلام ضميره،
وعززت يقينه بأنه يستطيع أن يُوازن بين حياتين.. وأكثر من ذلك صار حريصاً على حضور
تمريبات السباحة الخاصة بعلياء في النادي كلما أمكنه ذلك.. كنوع من التعويض المستتر..

-٤٣-

وذات صباح، قبيل موعد السفر بأسبوعين، تعلن نانسي في ظفر أنها لم تستطع أن تحصل
لبيريها على تأشيرة الشنجن لأن جواز سفرها قد أوشك على الانتهاء. وتفتح جواز سفره ببرود
لترية التأشيرة الجديدة، ثم تضع جواز سفر بيريها المرفوض على المكتب وتهم بأن تغادر الغرفة
كأنها لا تدري أي انتقام صنعت. لكنه قال في حنق لم يرغب في إخفائه:

- نانسي.. الباسبور عندك منذ شهر.. فلم لم تطلبي من بيريها تحديثه؟!
فقال ببساطة:

- نسيت يا دكتور!

انقبض صدره.. ضربة موجعة ومفاجئة وأزمة جديدة تعترض طريقه الصاعد للفضاء.. والأسوء
من ذلك تفكيره في كيف ستلقى بيريها الخبر! كانت رحلة هامبورج هي العلاج الكامل من الملل
الخانق، والدليل القاطع لما يمكن أن يكون حلاً لجميع الآلام فنقطع العرق وتصل لقرار حاسم.
وأراحه قليلاً غياب بيريها اليوم عن المكتب، مما يمنحه مهلة للتفكير في الطريقة التي سيتعامل
بها مع الموقف الجديد.

وفي النادي. وجد فائزة تُشارك عددًا من الصديقات جلسة في المقصورة التي تُشرف على
حمّامات السباحة. فلما رآته هبت في سرور وسارت نحوه. وفي طريقها أمرت له بفنجان قهوة، ثم
جلست بجواره، وقالت مُرحبة في لوم خفي:

- ما أجمل مفاجأتك الأخيرة وزياراتك إلى النادي كزمان الحب!

فقال:

- زمان حُبك لا ينتهي يا فائزة.

فابتسمت في رضا وهي تنظر نحو علياء في البيسين.

هل تنسى أن كل شيء بدأ عقب نظرة وديعة كتلك النظرة التي لا ينال منها الزمان؟!!

لقاؤكما الثاني والحاسم والذي وقع بلا تدبير، حين التقيت فائزة صدفة بالنادي، عقب يومين فقط
من لقائكما الأول بكازينو النيل. هنا في نفس المكان المُطل على حمّامات السباحة، التقيتها صدفة
وأنت في الطريق لجلستك المعتادة مع بهيرة وزوجها. وأدهشك أنها تخلت عن تحفظها بشأن عدم
لقائك بالنادي، فرحبت بك بذات النظرة التي أنعمت عليك بها منذ لحظات، وصافحتك ودعتك
لمشاركتها الجلسة، فجلست. وغلبك الحب الناشئ وسحر بسمتها فنسيت أن بينكما مهلة أسبوع

تقرر ان فيه مصيركما، وقلت:

- أنسة فايضة.. هل أستطيع أن أتخذ خطوة جادة في طلب يدك؟! هل توافقين؟!
وتبسمت وقالت وهي تحقنك بمستخلص النشوات:

- ربما يجدر بي أن أتمهل قليلاً.. أو أن أوجل قرارى حتى أتعرف عليك أكثر.. ولكنى لا أملك أن أزن كلماتي.. ولا أعرف أيضاً السبب في ذلك.. ولكننى أقول إنني... موافقة.
ثم تُردف بعد ضحكة خجلى رغم أثرها المثير:
- جداً.

وخرجت علياء من البيسين بقامتها الطويلة وقدها الرشيق اللافت، فسأه أن يصطاد عدداً من الأعين التي جرت كالماء فوق إهابها الخمرى.

وصاحت فايضة مألوفة تناديهما، فلما رأت أباهما هرولت نحوه وهي تحبك حزام البرنس حول وسطها، ورافقتها زميلة لها تبدو في السادسة عشرة على وجه التقريب. وقالت علياء وهي تصافحه بابتسامتها الشبيهة بابتسامه أمها:

- لثاني مرة في نفس الشهر يشرفنا دكتور طارق بالزيارة!!

فضحك وضحكت فايضة. ومدت الفتاة الأخرى يدها فتلقاها ببهجة كأنه يصافح امرأة ناضجة. وأدهشه ما غزاه من اضطراب ونشوة، وتنبه إلى شعور كالبهجة.. ورفقة كخمر بيريهان تسري في حناياه، وقد استلمح ابتسامه الفتاة الغضة وحياءها المُسكر. وذهبت علياء وصديقتها، فأتى على آخر رشفة من فنجان القهوة، وهو يتفكر في الشعور الذي بعثره، ورمى البنت الجميلة بنظرة خاطفة، قبل أن تختفي داخل غرفة خلع الملابس وهو يستحلب إحساساً مريحاً كالأمل المسكن. لا حزن ثمة ولا خوف من نهاية طالما تهدينا الدنيا هذه المسكنات من النشوة وطالما روح الشباب لا تزال تجري في شرايين الحياة بلا انقطاع. علينا فقط أن نهدم جمهورية العقل وأن نستجيب لوعي الجنون بقلوب جسورة. ومن العجب أنه في زمان الفورة الجميل، والحماس النشوان، والشهوة النارية في مطلع الشباب، كانت هذه الفتاة نسيًا منسيًا، بل وربما التقيت أمها وأنت تننيه بشبابك فقلت إنها أصغر من أن تلتقت إليها! كيف تدور اللعبة على هذا النحو المروع!؟

ولهذا السبب تحب بيريهان!؟

نفى ذلك بفزع، مؤكداً: إن بيريهان بعض روعي لا بعض النشوة.. وتذكر جواز السفر ورحلة هامبورج التي توشك أن تقسد فامتعض.

والتقى بعيني فايضة فعصرته الحيرة، وتساءل بإشفاق: أما زلتِ تبكين سرًا بعد أن أستسلم للنوم!؟
سيطول البكاء للأسف يا حبيبتى!

وبكت فايضة لأول مرة ونحن نلتقي في موقعنا المثالي في تيار الزمن. شابيين في سن متقاربة، لا رجل وامرأة بينهما ربع قرن من الحزن والخبرة. وقالت في سعادة رغم دموعها ونحن نقطع المشى المظلل بالكازوارينا في حديقة النادي الجنوبية في أبعد نقطة عن الناس، وهي تقص عليك كيف جرت حياتها قبل أن تجدك وتجدها:

- أيام طويلة وعذابات عميقة لم يشفني منها سوى ظهورك المفاجئ وأنا على قمة اليأس..
وقبضت على كفك وهي تنتحب قائلة:

- ومع نعيي بحبك أعرف اليوم عذاباً أكبر.. وهو تصوري أنني قد أفقدك لأي سبب..

أين موثيق الهوى التي وقعتها بدمائك العاشقة؟! لم تستسلم للمرض البغيض بهذه البساطة؟! ونظر حوله في نواحي النادي فقال: كل هذا الجمال لم يكن شيئاً حتى اكتمل بظهور فاييزة في النادي.. والأكثر أنك لم تكن تعرف للأشجار اسماً حتى علمتكم الأسماء كلها..

-٤٤-

وجمّت بيريهان وهي تتلقى الخبر. ثم جعلت تنقر على المكتب بعصبية، وهي تنتظر نحو الشباك المقابل في قهر. وبعد دقيقة طويلة قال بحزم:
- لن أسافر.

فالتفتت نحوه في بؤء. ثم قالت في حزن ماكر:

- لا تعطل عملك بسببي.

فقال وسط جيشان عواطف مختلطة:

- أصارك أنني لم أفكر في السفر إلا لكون معاً.

استمعت إلى تصريحه المفاجئ بدهشة وحبور عارمين، ثم مدت يدها بعرض المكتب لتلتقط كفه الغليظة المستلقية فوق الورق. وهمست:

- أحبك يا طارق.

صمت وهو يغوص في لجة عشق لا حد له، ولم يبذ على نظرتها الهائمة أنها تنتظر أن يهمس: «وأنا أيضاً أحبك». فطال صمتها وهي تقبض على كفه بأنامل غضة ناعمة، وغزته انفعالات حارة ملهمة وتهدج صدره بنشوة غائمة كالحلم.

وقالت بيريهان بلا مناسبة:

- ولكن يجب أن تعاقب ميس نانسي على خطئها.

فهز رأسه موافقاً بإخلاص وبلا وعي.

تعجب من قوة انداراه، ومن قوة مقاومته في الوقت ذاته. كيف يذوب؟! وكيف - في نفس الوقت - لا يبوح بسر أسرار عشقه؟! كيف ينتحر ثم لا يقول: «أحبك يا بيريهان.. بل أعشقتك»؟!

وذاب في كيان بيريهان وكفها التي تغفو بين أصابعه حتى شعر بانعدام الجاذبية الأرضية، وأنباته روحه المغردة بأنه يمر الآن عبر الثغرة المنتظرة التي تنبثق عند النقطة الخائفة في أقصى الأفق، وأنه ينفذ الآن من كافة سجونه ويتحرر من جميع سماواته. وأن نعمة توشك أن تبدأ فلا تنتهي.. بكلمة واحدة سيسمو فيصل إلى عمق الفردوس.. فكيف يتمكن من الإجهاز الأخير على مملكة العقل؟! وانتحبت فاييزة تحت أشجار الكازوارينا وهي تقول بينما خاتم الخطوبة في خنصرها يؤلم أصابعك التي شبكتها فاييزة بأصابعها بقوة: لا أدري من أي نقطة يمكنني أن أبدأ حكايتي.. ولكنني لا أجد سطرًا من سطورها يخلو من خذلان ومرارة.. ورغم قوتي تُهت كثيرًا في ياسي.. ولكنك تجيء أجمل من أدعيتي التي طالما ابتهلته بها لله وسط دموعي الحارة!

-٤٥-

أوحى إليه حدسه بأن يلقي نظرة نحو مكتب السكرتارية وهو يتأهب لدخول الأسانسير، فوجد

نانسي ترمقه في غيظ كما توقع، ثم صرفت بصرها في تباطؤ وهي تعود لأوراقها. غاض سروره وشعر بطعم القلق مالحًا في حلقه. لم تتطّل عليها الحيلة. تعرف بلا شك أنه يلحق ببيرييهان التي سبقته بالنزول منذ نصف الساعة.

ولكنه طرد أفكاره السيئة مخلصًا للمغامرة العجيبة، وهو ينطلق بالسيارة إلى حيث تنتظره بيرييهان في تيفولي على مبعده يسيرة من المكتب. وعلى الطاولة وجد فنجانين من القهوة، فقال ضاحكًا وهو يجلس:

- هل تنتظر الأميرة ضيوفًا؟!

فضحكت، فقال:

- إذن لمن الفنجان الثاني؟!

- لك.. حسبت موعد مجيئك فطلبتّه ليصل قبلك.. فينتظرك ولا تنتظره!

قهقهه في نشوة ورضا وهو يطير فوق قمة الموجة التي ترفعه إلى سماء لم يتصورها، لولا غصة خائنة قامت كالصخرة النائمة التي تشق الموجة البيضاء.

هذه العناية الحنون التي تحتويك ليست جديدة. عرفتّها من قبل وحملتك الموجة أيضًا بينما ترنو إلى عينيّ فيزة.. نعم.. هذه العناية تشبه فيزة.. ولا تشبهها. وهذه النشوة التي تمتصك تشبه نشوات فيزة ولكنها أيضًا لا تشبهها، وهذا السحر الجديد يفعمك بذكرى أيام قديمة مضت.. ولكنك في الحاليتين تغرق، وفي الحاليتين تعشق، وفي الحاليتين تصرخ من النشوة رغم هذا الاختلاف.. وإذا صح أننا نتبع في العشق نداءات قلوبنا، فمعنى ذلك أن لنا أكثر من قلب!

وقالت من بين أنفاسها المفعمة بعطر النعناع:

- أموت وأعرف فيمّ تسرح طول الوقت كأنك في امتحان الثانوية!

رنا إلى حُسنها المترع بالفتنة أسفل بؤرة ناعمة من شمس الظهرية تسقط من زجاج السقف العالي، وإلى ضحكتها المشتعلة بالنداءات وهو يسبح بالهام خالق دون أن يفكر في إجابة سؤالها.

إلى أي عمق ستنمکن بيرييهان من حَفرك؟! وكلما تصورت أنها ستستقر هنا، فاجأتك بعمق جديد، ودعتك بإغراء لا حد له لتتبعها.. وأنت تهبط وتهبط راضيًا، ولولا ما تبقى من وشائج واهنة من عقل وضمير لرميت نفسك في البئر دفعة واحدة.

وقال عابثًا بلا وعي:

- بيري.. هل تعرفين كم من السنوات بيني وبينك؟!

تجاهلت سؤاله بمهارة للمرة الثانية، وهي تقرب إليه الفنجان بأناملها العاجية، ثم تغزوه بنظرة أعمق تأثيرًا من القهوة:

- لا تقلق إنه ساخن.. لقد حسبت زمن وصولك بدقة!

-٤٦-

انطلقا بالسيارة وبالنشوة المتخلفة عن الجلسة الممتعة، إلى أطراف القاهرة الجديدة لموعدها بالمستشفى البعيد، رغم يقينهما - معًا - أنهما لن يزورا المستشفى! وفي الشارع الواسع الخالي من المارة ومن السيارات إلا فيما ندر، أوقف السيارة، فطالعتة بنظرة متسائلة، فارتبك رغم ذهوله،

فضحكت. وعرف أنها بغير حاجة لجواب، فابتسم في تحدٍّ وهو يعالج أفكارًا ليس هذا مكانها ولا زمانها. وحسنت تردده باندفاعها المألوف فقالت:

- سأتصل بالمستشفى لأعتذر عن الموعد.

وقامت في كُرسيتها فورًا، فوضعت ركبتيها على طرفه، ثم استدارت فمالت بجذعها بشدة، ومدت يدها لتتناول الموبايل من داخل حقيبتها الموضوعة بأقصى الكنبة. هفت نسمة من عطرها المخدر فشقق في استمتاع، وأفعمه مشهد جسدها الممدود في ليونة ورشاقة بخليطٍ من العشق والجنون ضاعف من رغبته في احتضانها. وارتفع قميصها الضيق ليكشف له عن بطنها الأبيض المشدود في إثارة.

إنها تتجلى عن جمال أكبر وفتنة أكثر.. وكلما اقترب خطوة طالعتة الفتنة بثمار أشهى.. وها هي النغمة السحرية المحرصة تملأ السيارة وتقود عقله في اتجاه واحد خلال المضيق، والصحراء في الخارج تغمض عينيها في تواطؤ.. والزمان يتمدد صامتًا في إغراء.. ولا شيء حقيقي سوى نغمة عميقة تجتاحه مترعة بذكريات حارة مضت وآمال باهرة منتظرة، ومُتَع لا تريد أن تموت تجذبه جذبًا كأنها الكهرباء.

سر أسرار الوجود.. يا بيرى.

- ما لك يا دكتور؟!

- فلتقتربي.

- حقًا؟!

- فلتقتربي.

طوق خاصرتها وهو يشقق فعب أنفاسًا معبقة بعطرها المُسكر.. ولثم رقبتها الطويلة.. فلمس استسلامها وانهايار جسدها بوضوح كالنداء، وزحف بفمه حتى عثر على ثغرها وهو مغمض العينين من الذهول.. فهاله أن يمس الكوكب المحبوب الذي كان دائمًا في السماء.. قبلها بخفة كأنه يسير على أطراف أصابعه.. وحين تذوق طعم النعناع عرف أنه قد أطلق رصاصات الرحمة على ماضيه المعذب.. سيتدبر فيما بعد كل عقبة.. بل لا عقبة هناك أصلًا..

أول شفة تدوب في ثغره بعد شفاه فايضة.. ما أفدح الجنون الباذخ والسحر.. وما أرق الفرج الذي يجيء بغير موعد فينتشلك من موت مُحقق.. بعصاه السحرية يبث الروح من جديد في عمرك الميت.. ويُشعل النار في شرابينك التي اعتادت نارًا واحدة حتى ألفتها.. هل يعد ذلك إذن نوعًا من الخيانة؟! لا.. سنتهدم الدنيا القديمة، وحين أخلقها من جديد سيصير كل ذلك عشقًا جديدًا لا خيانة.. وفي الحياة الجديدة لن يكون في ذوباني ببيريها ما يشين.. عهد عليّ أن...

لكن توقفت القبلات الجهنمية بغتة، وفتحت ببيريها عينيها بهدوء كالمفيدة، ثم زفرت في ضيق كسول، وهي تدفعه في صدره بيدها الصغيرة. ثم انسحبت فالتصقت بالباب، وأراحت رأسها على الزجاج المغلق.

إنني أحبك.. إلى أقصى ما ظن خيالي أن ذلك مستحيل.. كيائك راسخ بروحي كأنك كنت هنا منذ بدأ الخلق.. لست دخيلة على حياتي.. مُحال أن يكون ذلك.. جسدك الصغير الذي أود أن أحتويه بقبضتي.. شعرك المهوش إثر المعركة الصغيرة الناعمة.. عيناك المغمضتان اللتان تُخبئان الفتنة الأبدية.. أناملِك التي ترقد على فخذك في استسلام.. صدرك المتهدج بالانفعال.. وصورة بطنك

الغض الذي يخفيه القميص الآن.. كل ذلك مُستقر بأعمامي كأقدم ما وعيت..
وخرق الصمت فقال مدفوعًا بحنان لا موضع له:
- بييري.. هل أفرعتك.

رفعت إليه عينين ضجرتين فحدجته في لوم عريض، وقالت:
- لبتك لم تنطق.. تصورتك تحترق معي أخيرًا ولكن هأنذا لا تزال على البر..

-٤٧-

من وراء الفاترينة الزجاجية للكافية بينما يركن السيارة، فاجأه وجود دكتور محسن بين الأصدقاء
في سهرة دكتور علاء. وما إن رآه الرجل حتى قام مسرعًا، فسحبه للخارج مرة أخرى وهو يقول:
- لا أحب دخان الشيثة.. ما رأيك أن تشاركني المشي خارج الكافية؟!
أدهشه حضوره ولكنه تبعه بلا مقاومة، فقال دكتور محسن وهما يدلان إلى الشارع الجانبي
الهادئ:

- ما أصفى الخريف!

فهز رأسه بلا كلمة. فجعل الرجل يقول:

- في جوه الصافي يحلو السير بلا زعابيب الربيع ولا سياط الصيف.. وتتجلي أسباب العقد
فتعرف كيف تحلها ببساطة.

مرة أخرى هز رأسه، فأدرك صديقه أنه لا يرغب في الحديث، فقال بلا مقدمات:

- كنت أتوقع أن تزورني مرة أخرى.

زفر وهو يقول في ضجر:

- الحق أنه لا داعي.

- حقًا؟! هذا يعني أنك عرفت الحقيقة أو أنك غرقت في الأكاذيب.

أحنقه الحديث. فتوقف وهو يقول في تصميم:

- لا حقيقة ولا أكذوبة إلا حسبما ترى قلوبنا.. وما دُمننا لا نملك إلا اتباع القلوب فلا معنى للبحث
وراء الحقائق أو الأكاذيب طالما لن نجني من وراء ذلك إلا التعب.

هز الرجل رأسه في إعجاب مصطنع، ثم قال ساخرًا وهو يواصل المسير:

- ما أعظم أن تمارس عملك القديم في التخدير.. وأن يكون ضميرك هو «الحالة»!

تلقى وكزته بامتعاظ أخفاه خلف نظرتة السادرة في الطريق الناعس.

لا ينجح التخدير - أيها النفساني الفذ- بمهارة طبيب التخدير فقط، فهناك المريض ذاته. ومن
المؤسف أن تعرف -عكس ما تظن- أنني أفشل تمامًا في تخدير ضميري. فله عقل مدمن الأفيون
المحصن. عيون ضميري لا تنام يا صديقي الغافل، ومنها تتسرب إلى روعي آلام لا حد لها. أبسطها
تلك النظرة الممتة التي تقتلني بها بييري حين السرور.. ونظرة الذنب حين تشعر بغضبي.. متى
تتوقف بييري عن الامتتان وعن الاعتذار كطفلة بريئة؟! ومتى تتوقف عيني «علياء» عن التحديق
في عيني كلما أطلت على سعادة بييري وشعورها أنني «الأمان»؟!
وبلاوعي قال:

- إننا نشيخ بينما تزداد الدنيا شبابًا.. وهذا أصل الألم.
تحدث محسن طويلًا بعد ذلك ولكن إلى العدم..

-٤٨-

قالت فايضة وهي تعقد رابطة عنقه في تتاقل غامض:

- طارق.. ضروري تخرج اليوم!؟

منعه قلقه من أن يضطر للمكوث بالبيت من الاندهاش لسؤالها، فقال بلا تفكر:

- طبعًا.. عندي أعمال هامة.

وبكت بغتة وهي ترتمي على كرسي:

- قلبي مقبوض يا طارق.

أفزع ذلك، حتى شلّ تفكيره. غص قلبه بذكريات قديمة، وتملكه شعور جارف من حين لا وقت له مطلقًا.. وبرغم ذلك احتضنها فاستنامت قليلاً، ولكنها قالت في نسيج:

- قلبي مقبوض.

وما الحل؟! إنه منجذب إلى الخارج كبرادة حديد بلا قوة ولا مقاومة أمام قطب المغناطيس الكائن في شفنيّ بيريهان وعينيها.. وتساءل في ألم كبير: هل استبدلت الملل بالإدمان؟! ثم يصرخ من قاع ملتهب: لم يختر الفأر لعبته.. ولكنه اختارته لعبة جديدة!

وفي الطريق لاحظت بيريهان صمته، فقالت:

- حبيبي مشغول!؟

ومن الحماقة أن تتكر أنك لا تشعر بوقع «حبيبي» إلا إذا همست بها فايضة.. فهل يعني ذلك أن دواء بيريهان كان مغشوشًا وأنت لم تُشَفَ تمامًا؟! وقال شاردًا:

- لا شيء.. تذكرت موعدًا قديمًا.

- فلننس كل قديم.

- صح.. فلننس كل قديم.

وهمس لنفسه بأنه أحد الأشياء القديمة التي يجب أن ينساها.. وإذا عجز الفأر أن يقرر مصيره فمعنى ذلك أن الشفاء مُحال.. ولكن كيف تريد بيريهان أن تنسى الماضي ثم ترافق حيوانًا يوشك أن ينفق؟!!

وتسللت يدها ذات الأظافر الوردية فغفت على فخذة كقطة صغيرة. والتقت إليها فإذا هي تولي الطريق نظرها في سكينه. فاحتضن بيمناه كفها وهو يقبض بيُسراه على الدركسيون في قوة. واشتعلت في دمه نشوة أكلت في طريقها كل فكر، وخلفت وراءها سكينه شاملة كنسمات التكيف المنعشة المضمخة برائحة بيريهان المثيرة، لولا بقية من سؤال: متى أهنأ بتوقف بيريهان عن اعتباري مصدرًا للأمان فتتطفئ تلك النظرة التي تجلديني؟!!

- من تسابق يا بيبي!؟

وانتبه على سرعته الجنونية، فأبطأ قليلاً وهو يهمس:

- سنتعشى معًا الليلة.

- ما زلنا في وسط النهار .
- سنكون معًا طول اليوم.. وفي المساء سنتعشى على ضوء القمر في العين السخنة.
- أوه.. أنت جاد؟!
- جدًّا.
- لكنني قلقة.
- ولم؟!
- هذه ليست عادتك.
- تخافين مني؟!
- هذا لن يحدث.
- ماذا لو اكتشفت أنني أتلاعب بك؟!
نظرت نحو الشباك مرة أخرى، وهي تقول زاهدة في النقاش:
- عرفت منذ الصباح أن مزاجك سيئ.
ولكنه أكمل في إصرار كأنه يُعذب ذاته:
- ألا تتساءلين ما نهاية كل ذلك؟!
فقال في لوم عاشق:
- ما زلت في المحطة الأولى أتساءل كيف بدأ ذلك؟!
أنت أيضًا لا تعرفين؟! هذا يؤكد وجود طرف ثالث بالحكاية.. باللعبة! وسأل مستجدًّا:
- ألا تعرفين؟!
فقال بذات النبرة اللائمة:
- تعرف أنت؟!
وهمَّ بالرد، ولكنه تلقى اتصالاً من بهيرة.
وبعد التحيات قالت بهيرة:
- سيارتي في الصيانة.. ما رأيك لو اصطحبتني للعمل كأيام زمان؟!
رنا بحيرة إلى بيريهان التي تظاهرت بالنشاعل وهي تداعب خصلة من شعرها بينما ترمي بنظرها إلى الطريق. مسَّه حنق هائل. ليته يستطيع أن يرفض لبهيرة طلبًا، لكنه – والآن تحديدًا- يدرك عواقب ذلك. فاعتذاره سيفتح عليه نارًا يعرفها جيدًا. وقد يؤكد الشكوك التي تحاصره في كل مكان، فيفقد الطمأنينة التي يكفلها كون الحكاية في طيّ الغموض. ورغم ذلك قال بلا تفكير:
- لا أظن أنه يمكنني أن... أنا مشغول و...
وعادت بهيرة تقول كأنها لم تسمعه:
- لا أستطيع التحرك من الشيخ زايد للتجمع الخامس بدون سيارة.. وقلت أستغل الفرصة وأنتفيك لنتذكر أيامنا الحلوة.
- طبعًا.. ولكن...
- سأنتظرك عند السادسة.
- بهيرة.. من فضلك.

- واعمل حسابك أنني سأتعشى عندكم بالبيت بعد العملية.
أيقن أن الأمر يجري بتخطيط مُحكم، فقال في ذهول:
- سأكون عندك في الموعد.
وأغلق الخط، وتجاهلت بيريهان بخبث ما يحدث، ثم قالت:
- أين سنتغدى الآن؟!
صحت أشواقه الصاخبة في ثانية، فأصابه قراره بمرافقة بهيرة بالندم الشديد، ولكنه قال:
- فاجأني اجتماع طارئ كما لا بد سمعتِ.
ولكن الفتاة فاجأته، فقالت وهي تُسفر عن وجهٍ جديد:
- ولكنني لن أروح قبل أن أعرف مَنْ هي التي ستتركني من أجلها!
فغر فاه في دهشة. فعادت تقول وقد احمرّت أذناها من الانفعال:
- هل هي صديقتك؟!
لم يتمالك نفسه من الضحك رغم دهشته العارمة، وقال:
- لا طبعًا.
- أقرب؟!
- لا شيء من ذلك.
- إذن فَمَنْ هي؟!
- بنت خالتي.
ابتسمت في سخرية، وقالت:
- بنت خالتك؟! هذا كلام مُراهقي ثانوي.
فانفجر ضاحكًا على رغمه وهو يخبط الدرکسيون بيده:
- لكنها فعلاً بنت خالتي، وأختي الكبيرة، وأستاذتي.
أشاحت بوجهها إلى النافذة كالعادة وصمتت تمامًا وهي تنقر على ركبتيها في عصبية. استمتع إلى أقصى حد بندوق هذا الشعور الجديد. بيريهان تغار عليه! يا لها من مفاجأة لم يتهيأ لها. كلما وضع قدمه على درجة، أنارت بيريهان الدرجة التي تليها فلا يملك إلا أن يهبط أكثر. سرى فيه الشعور الجديد بنعومة مُخدرٍ يحو أمامه الوعي والألم والفكر. واستلمح الصمت الذي غرقا فيه داخل السيارة فغرق في النشوة.. ما أروع المفاجآت وما أمتع هذا النداء الخفي الذي يناديني تحت تأثير البنج ويدعوني بلا تمهل أن أمد يدي فأطوق خاصرتها الرقيقة وأسحب جسدها الرقيق إلى صدري، وألثم خدها البض، وأن أشم أصل العطر الذي يغفو تحت أذنيها الجميلتين، لولا أن فايضة ما زالت تنتحب وتهمس بأذنك: لا تخرج اليوم لو كان لي عندك خاطر.
وفاجأته بيريهان قائلة:
- شد ما أهنت نفسي.
- بيرري!
- إنني أهبك روعي وقلبي بلا مقابل وهأنذا تسيء تقدير ذلك.
- ماذا تقولين؟!

- لا أقول.. ولكن قل لي أنت: مَنْ أنا؟!
حصار عنيف، وامتحان مفاجئ. ولكنه قال بعناد:

- تعرفين كل شيء.

- لا أعرف.. وأنتظر أن أعرف.

- بيري.. لا داعي للعبث.

- مَنْ أنا؟!

- أنتِ حبيبتي.. ألا تعرفين؟!

- حقاً؟! هأنذا نتطرق أخيراً!

...

- الحق أن تصرحك الآن يقلقني أكثر.

- ماذا؟!

- إنك تتحدر فتصارحني بحبك لتهرب من مصيبة أكبر.

- أي مصيبة؟! ألا تصدقين أنني أحبك؟!

- لا أصدق إلا أنك أهملتني بمجرد أن تلقيت مكالمة من بنت خالتك.. وهذا يعني أنني لا شيء..
هل أقول لك أكثر؟!

...

- إنك حتى لم تطلب مني ولو مرة أن أهتم بملابسي كأنني لا أعنيك.. تمامًا كما كان يفعل أونكل هشام.

أدرك جدية ما يحدث. وأدرك أن الصغيرة لم تعد تقنع فقط بوجوده إلى جوارها كما أكدت دائماً. وأدرك أنه مُقبل على منعطفٍ جديدٍ مرعب.. سيضطره إلى إعلان ثورته على جمهورية العقل. وأن يخرج بها عن نطاق الفلسفة والاجتماعات السرية والتنظيمات الخفية.. لن يكون بأي حال هذا النذل الذي يستغل فتاة صغيرة.. بيريهان تدفعه بغتة لأن يأخذ قراره.. بأن يهدم البيت ليبنى آخر.. أو أن يبني إلى جوار البيت القديم بيتاً جديداً.. حسبة طالما تجاهلها.. وعُقدة جديدة في تيار المرض البغيض بادرت قبل أوانها.. ما المخرج؟! وما قرارك؟!

جفل وهو يدرك أنه يخضع للامتحان قبل موعده بفصل دراسي كامل. وحنق على مكالمة بهيرة التي مكنت بيريهان من ضربة مباغته أسفل الفك.

والتفتت إليه في عصبية وقالت:

- سأنزل هنا وأعود بتاكسي إلى المكتب لأخذ سيارتي.

ولكنه تمالك نفسه وقال:

- بل سأوصلك أنا.

- شكرًا.. لن أتعبك.

ولكنه صباح بحزم جهوري مقتبس من شخصيته القديمة:

- قلت سأوصلك.

أفزعها صوته المرتفع، وتطلعت إلى ملامحه الجادة لحظة، ثم انصاعت في قهر، وصمتت وهي

تتظر مرة أخرى من الشباك وخُيل إليه أنه لمح على شفتيها ابتسامة راضية!

-٤٩-

وقالت بهيرة بعد لحظات وهي تشد حزام الأمان على صدرها:

- رائحة البرفيوم تملأ السيارة.

صمت، فأردفت ببرود:

- ذوق فتاتك جيد وهذا خطر.

التفت ولكنها أراحت رأسها إلى مسند الكرسي كأنها لا ترغب في الحوار. فتساءل في حنق:

- أي فتاة؟!!

- دكتورة بيريهان.. أليس هذا اسمها؟!!

ها هي نانسي أيضًا قد سلّمت بهيرة تقريرًا مفصلاً بحالتك المرضية لتساهم في إنقاذك كما تفعل
فايزة.. وصمت وهو يطوي ذاته على غضب مُرعب يوشك أن يُطيح بكل شيء.. جاسوسة بالبيت
وجاسوسة بالمكتب ومُشرفة عُليا تنهياً لتدير حياته التي سوف يُفسدها برعونته! حصار دنيا دافعه
الحب.. حتى بيريهان تغار عليك بينما لم تقرر بعد إلى أين يقودكما الجنون.. ويمتلك هذا الشعور
لأنه دليل على الحب الذي تنتظر أن يتأكد، وحين يتأكد ستضيق بغيره بيريهان كما تضيق بحزن
فايزة وأمانة نانسي وقلق بهيرة.. ما أبغض الحب وأبغض ما يمنح من صلاحيات.. وليس عجباً أن
نضيق بالمحبين ضيقنا بكارهينا!

صمت تمامًا وهو يُدرك أنه لا فائدة من الحوار. ولكن بهيرة قالت بهدوء وهي لا تزال في جلستها
المسترخية:

- لا أحب النصائح السخيفة.. ولكن عليّ أن أذكرك أننا تعاهدنا أن نُقلل الخسائر.

...

- البنت صغيرة وذكية وهذه لعبة غير مأمونة.

- أيتها لعبة.

- ماذا تعني؟!!

- أنا أحب.

- كذب.. ووهم...

فقاطعها بحدّة للمرة الأولى:

- بهيرة.. أنا أحب.. والحب يخلقني من جديد كما حدث من قبل.

تجعد جبينها بتقطيعة ضجرة وقالت:

- إذن فلديك خطة.

- لا خطة ولا إرادة.

- ألا يجدر بنا أن نفكر على مهل.. فربما يتمخض شعورك عن تفسيرات أخرى.

فهمس زاهدًا في النقاش وهو يرى المستشفى تلوح في نهاية الطريق:

- ربما.

وصمت فصمتت بينما تنتهياً للمغادرة وقبل نزولها قالت:

- أين ستنتظرنني؟!!

لم يرد، فقالت:

- براحتك.. انتظرنني في أي مكان قريب.. وسأصل بك فور انتهائي.. ساعتان على الأكثر.

ثم همست في حنان:

- لا تقلق يا طارق.

فابتسم في تحفظ رغم ارتياحه لكلمتها وحنانها التاريخي..

-٥٠-

المساء ناعم. والقمر مُكتمل كأبهى ما يكون. وصحراء القاهرة الجديدة مُقفرة كعُمرِك. وبسبب من لفحات الهواء البارد أحجم عن الجلوس في أي كافييه وفضلُ البقاء بالسيارة. ما أجمل أن تتطلق وحدك إلى مالانهاية. مَنْ سيحزن لغيابك؟! وإلى مَنْ ستشتاق روحك؟! هل يمكن أن تصل للسخنة قبل أن تُنتهي بهيرة عملياتها؟! ومن المدهش أن البشر لا يكفون عن الولادة رغم انسداد الأفق. ولم يطل تفكيره، فسرعان ما طار على الطريق الصحراوي متشجعاً بخلوه. وراقب عداد السرعة المتصاعد وهو يتساءل: هل تستحق فائزة هذه النهاية؟! واليقين أنك ستحملها بداخلك ولو هربت إلى القمر.. ويأتيه همسها البعيد كأنما ينطق الليل:

- حُبي لك يا طارق صار عضواً من جسدي.. كأي أكتمل به بعد نقص طويل.. وصفة أساسية كلون شعري وعيني وبشرتي.. جاءني حبك منحة ربانية كالفرج الذي يعقب الكرب كما وعد الله الصابرين.. لا حزن بعد اليوم ولا بكاء.. إن حافظت على حُبنا.

ولكنها لا تعرف شيئاً عن معاناتك؛ لذلك تبكي منك والأولى أن تبكي عليك.. تتصور أنك تخليت عن الحب.. ترى بماذا حدثها اليوم قلبها المنقبض؟! وهذا مرضك في طغيانه يهزأ بحزنها فتطلب منها أن تكف عن الدلع لتتمكن من الرحيل عن البيت. وبيريهان تغار فتضيف إلى شعورك بالغرق شعوراً بالمسؤولية وبالذنب. وتقل كل يوم احتمالات التراجع.

وجذبه مشهد القمر الذي يطل من سقف السيارة الزجاجي.. فتتهد بحسرة وهو يرى نفسه بجوار بيريهان على رمال السخنة وبينهما عشاء شهى وشمعة تفوح بعطر البرتقال.. و...

انشقت الأرض عن عاملين يعبران الطريق يتخبطان بجلابيبهما التي يعبث بها الهواء البارد. في لحظة وجدتهما أمام السيارة التي تجاوزت الـ ١٦٠ كم/س. ما أبشع أن تُضاف إلى أعبائك دماء مساكين. يا لها من نهاية لم ترد ببالك. كيف قادت القدر وبهيرة إلى هنا؟! وفائزة تبكي لانقباضة القلب. وعلواء ستبكي في الإنترنت وهي تقول: رحل بابا قبل أن أناهز المراهقة. كيف يُطبق عليك الأفق رغم هروبك الجاد؟!!

وبلا تفكر وبشيء من الضجر واليأس انحرف يمينا إلى أقصى ما تمكن، وهو يهصر دواسة الفرامل وقد أيقن بحتمية الهلاك. فطارت السيارة كأنها ورقة صفراء تسقط على الطوار أخيراً بعد عُمر قصير. لا وزن لشيء ألبتة. لا قيمة للحزن والنجاح والثروة ولا للمرض. كل شيء يُمحا ببساطة. وسقطت السيارة فزحفت على الأسفلت ثم انقلبت في عنف نحو أربع مرات متجاوزة

الطوار الأيمن.
العجيب أنه كان يمسك برأسه ليحميها، بينما يرى رأس الطيبي المحنطة وقد تُبِتت على حائط في بهو فيلته.
ثم سقطت لآخر مرة فاستقرت مُهشمة على جانب الطريق..

أوه!

أي معجزة؟!!

أنا سليم بلا خدش!

كيف حدث ذلك؟!!

كل ما يُؤلمني هو مواضع التقاف حزام الأمان على صدري. وسحجة على ما يبدو بوجنتي وجبهتي من أثر انفجار الوسائد الهوائية في وجهي. وألم رُكبتَيّ وما فوقهما من فخذَيّ مما اصطدم بالدركسيون.

أوه!

ولكنني أشعر بشيء كالراحة، كأنما أتحرر بشكل جزئي من العذاب، كأنما أمسك بيدي المعول وأنا أقترّب من الأفق.

وأخرج من السيارة.. فيسعدني أن أضع قدمي من جديد على الأسفلت.. وينتابني إحساس جازم بأن أزمّتي في طريقها للحل. لا أعرف كيف؟! ولكنني أوقن بذلك. وأتذكر فائزة بحنين حقيقي فأتمنى أن أجد نفسي الآن في الفيلا.. وتقوم بيريهان بيننا كالعادة وهي تطالعني بنظرة ابنة حزينة فيصعب عليّ تجاهلها.. وإلحاح إحساسي الجديد يدعوني للبحث عن علاج باتر وحل حقيقي ينهي أعراض مرضي فأنجو كما نجوت من داخل حطام السيارة.

وتؤلمني ركبتاي وصدري فأبحث بخطواتي الواهنة المتعرجة عن أي عيادة يمكنها أن تقدم لي إسعافاً أولياً.

أسير بين الأشجار على جانب الطريق الصحراوي. حتى أعثر على عجوز يبدو أنه حارس لأحد العقارات تحت الإنشاء. أسلم على الرجل فيرد تحيتي وهو ينظر إلى ألمي وإصاباتي. ثم يقول:

- ماذا أصابك؟!!

فأقول فوراً:

- الملل.

يقوم الرجل إليّ مسرعاً وهو يقول:

- لا تقلق هنا في العمارة المجاورة حلال العُقد!

وأنظر فإذا بصف عمارات أنيقة لم أراه قبل اللحظة. وأسأله:

- حلال العُقد؟!!

فيقول وهو يسندني لنسير صوب العمارة:

- دكتور محسن.

أصرخ في دهشة:

- دكتور محسن عبد الدايم؟!!

- بل دكتور محسن أزمان.
- محسن أزمان!
- حَلَّال العُقْد..
- أهو دَجَّال؟!!
- بل طَبِيب نفسي.. يستطيع دائماً أن يتعامل مع العفاريت التي تطلقها الأرواح وأولها الممل.
- إذن سأشفي من مَرَضِي بإذن الله؟!!
- كُن على يقين من ذلك.
- وفي العيادة التي كانت أيضاً شقة سكنية. يستقبلني الرجل بحفاوة كصديق. ويُجلسني في الصالون ثم يقول:
- أنا مُصغ إليك..
- وأدهش وأنا أقول كأنني أستكمل حواراً سابقاً:
- وإنني أحبها أيّما ما كان موقعها من الزمان.. ولا ينقص من حُبنا أنه صادف أن نلتقي الآن.
- فيقول:
- تقصد بيريهان..
- فلا أدهش كما يجب وأقول:
- نعم.
- ولكنك مُصاب بالملل.. فكيف تتحدث بهذا اليقين؟!!
- ماذا تعني؟!!
- أعني أننا يجب أن نتخلص أولاً من المرض ثم نحكم على أفكارنا.. فكثيراً ما نوقن بشعور ما وقت غضبنا مثلاً ثم نرتد إلى نقيضه وقت الرضا.
- أتفكّر، لكنه يقول بلا مقدمات:
- هل تلعب معي؟!!
- ألعب؟!!
- لعبة بسيطة.
- ولم؟!!
- لعلاج الممل.
- أنت تعبت بي وتتجاهل أنني أتألم من قوة الكدمات.
- ماذا وراعنا؟!!
- ورائي البيت.. يجب أن أذهب.
- لفائزة؟!!
- نعم.
- وعلياً.
- نعم.
- لتجلس بينهما بجسدك فقط كما يوجد النجم الذي انفجر منذ مليون سنة بينما لا يزال ضوءه يبتسم

للسهاري.

- ماذا تقول؟! إنك تُردد أفواً جالت بذهني.

لا يلتفت لملاحظتي ويقول:

- هل نبدأ اللعب؟!!

- أريد أن أعود ولو لحياتي المضجرة.. هي أهون عليّ من أن أستسلم لعبتك.

- بل إنك تخاف الشفاء.. تستحلي الألم لأنه يضمن لك وجود بيريهان.. تعرف أنك لو استخدمت عقلك لانحل السحر ولكنك تستحلي مرضك وتستعذبه.

- لقد واجهت بيريهان بأقصى ما أستطيع ولكنها قدر.

- قدر!

ويضحك ضحكة طويلة فيغزوني يقين أنني أعرف الرجل منذ الزمان الأول..

ويقول وهو يضع النوتة والقلم جانباً ويقترّب فيجلس بجواري على الكنب:

- «لعبة الأيام».. ما رأيك أن نطلق عليها هذا الاسم؟!!

- لعبة الأيام.. هذا ما قاله دكتور محسن عبد الدايم يوم...

ويقاطعني فيقول:

- لعبة ممتعة أجزم أنك أول من سيستمع بها.

ثم يقول فجأة:

- قلت إنك تحب بيريهان.. فهل تُحبك هي؟!!

- إنها من نبهتني إلى الحب.

- هي التي نبهتك للحب أم نبهك الممل؟!!

أحار ولكنني أرفض الهزيمة فأقول:

- ربما حُبها هو الذي نبهني إلى الممل.

- وربما الممل هو الذي دعاك إلى حبها.

- ولكنها تحبني حباً صادقاً أيّ ما كان الداعي لهذا الحب.

- ربما.

فأقول في وجَل وأنا أشعر بأنني سأهزم على رغمي:

- ألا يمكن بأي حال أن يكون حباً صادقاً؟!!

- إذن لا بد أن يخضع للاختبار.

- كيف؟!!

- أنت أدري.

- كيف؟!!

- نتخلص من شوائب الزمن.

- كيف؟!!

- لا بد من تحييد عامل السن وما يلحق به من سمات الوقار والهيبة والثراء ووسامة الشيب.. ثم

تتظر هل كانت تحبك فتاتك إذا ما صادفتك شاباً في العشرين! وننزع منها شبابها المذهل الذي

- يدوخك، ونزرع فنتتها التي تثير شهيتك وشهوتك.. ثم ننظر لنرى إلى أي عمق يصدق هذا الحب.
- وكيف يحدث ذلك؟!
 - «كومبينيشن».. تركيبة من أرقام وتوافيق تفتح بها الخزنة.. سنجرب عددًا من الاحتمالات لنعثر على الحل النهائي.
 - لا أفهم.
 - تخيل أن تقابل بيريهان وأنتما في أعمار مختلفة عن تلك التي التقيتما فيها.. وربما شارككما آخرون في اللعبة.
 - من؟!
 - أشخاص مؤثرون أخفاهم الزمن والملل.
 - وما فائدة ذلك؟!
 - أن نصل لحقيقة الأشياء.
 - وما الذي يُخفي حقيقة الأشياء؟!
 - لا حد لخداع الأيام يا دكتور.
 - إنك تقتبس أقوالاً قيلت كأنك تستمع إلى تسجيل سابق لحياتي.
 - هذا عملي.. وفوق ذلك فهو تخصصي الوحيد.
 - أن تتصنت علي؟!
 - بل أن أتأمل لعبة الأيام.. إنها تقلب الموازين المستقرة.. وتقلب نفوسنا كالموج.. فتغرق أشياء وتطفو أشياء.. وعلينا أن نفهم قواعد اللعبة.. ونفرق بين ما هو خطير وما هو وهم لننجو.. علينا أن نعرف النعمة الحقيقية التي تدعونا للحب من النعمة المسحورة التي تدعونا للهلاك داخل المضيق.
 - ولكن شخصياتنا تظل كما هي.. كما قال دكتور محسن.. فكيف ذلك؟!
 - دعني أوضح لك.. إنك تبتهج بالشروق منذ طفولتك.. هذه شخصيتك.. ولكنك في هذا العمر لا تستطيع رغم ابتهاجك الحقيقي أن تتخدع بنعومة ما ترى.. بل إنك تدرك أن وراء هذا المشهد الممتع آلاف الانفجارات الهيدروجينية الفتاكة.. فلو طلبت علياء ابنتك الصغيرة منك أن تصاحبها إلى الشمس لرفضت رغم أنه كان حلمك في الطفولة.. وهكذا هي قراراتك لو نظرت لها تحت المجهر.. إن نفس القرار يختلف باختلاف عمرك رغم عدم اختلاف شخصيتك.
 - ...
 - هل نبدأ اللعبة؟
 - لا.. انتظر.. أريد مزيداً من الشرح.
 - ستشرح اللعبة نفسها.
 - هل هي مثل الكونشينة أو ألعاب الذكاء؟!
 - لا، بل رحلة ممتعة وربما مؤلمة وحزينة.
 - رحلة! هل سأرحل من المكان.
 - بل والزمان.
 - وهل ستكون معي في اللعبة؟!

- ستكون أنت فقط برفقتك .
- وأنت .. ما دورك؟!!
- أنا الذي سيدير اللعبة .. أختار الأبطال .. والكومبينيشن .. وأحافظ على الخيوط .. وبخاصة ذاكرتك .
- هل ستمحو ذاكرتي؟!!
- بل أعطيك منها وأحجب .. بقدر ما يسمح لك بإحلال حياتك وإعادة تركيبها!
- تعرف أيضًا هذه الرغبة؟!!
- يضحك بلا إجابة، فأقول:
- وما هو الكومبينيشن؟! التركيبية؟!!
- تخيل أن أردك شابًا .. وفي ذات الوقت تكون بيريهان في سنك .. وتكون فائزة أكبر منكما .. أو في سنكما .. وكذلك نوران .. وماما .. كل أعماركم ستخدم اللعبة .
- والنتيجة؟!!
- تتحل العقدة .. فتعود لبيتك .
- أنت متأكد؟!!
- تمامًا .
- وكيف ستنتهي اللعبة .
- سأستدعيك في الوقت المناسب .. دع ذلك لي .
- وقام واختفى في غرفته وراء ستار شفيف يفصل بين الصالون وباقي الشقة ..

-١-

أين أنا؟!!

بل ومتى؟!!

تلاشى الوجود .

ثم تلقيت الكون وأشياءه ورموزه مرة أخرى كأنني أولد من جديد .

أمتلئ بالراحة وأتحرر من كافة المتاعب .

هكذا بغتة ..

-٢-

هأنذا .

مع جمع من الأصدقاء في السيارة التي تشق الفجر كصاروخ نحو الساحل .. وصوت ضوضاء صاحب ينعش الروح .

نحو مارينا.. نحو الموعد السنوي للمُتَع.
ماذا يحدث؟! لا يهم.. فلأنعم فقط بما يجري..

-٣-

الصيف.
لذلك ينشرح صدري.
وأقف على الشاطئ فور وصولنا. وحيدًا مع الشروق، فتفعمني النسيمات القوية بإلهام يفوق حدود جسدي فأهتز من النشوة.
وأرقد فتحتضن الرمال الباردة جسدي وتتخذ مسامي كمئات من إبر التخدير اللذيذة.
أقبل الصيف.. ورحل الربيع.. البغيض.. لذلك ينشرح قلبي.
الربيع موسم الذكريات المعفرة بالرمال.. موسم الكدر والعواصف والأمراض المنثورة في الهواء كحبوب اللقاح.. والأزهار التي عقب رحلة قصيرة مثمرة تستسلم للموت أسفل السيقان الرطبة، فتفوح الأرض بروائح العطن. وتفوح روحي بذكريات أكثر عطناً تهب على النفس كلما أقبل الربيع وهاجت زفرات الخماسين الساخنة.
مَنْ ينسى؟!!

وداع نوران ذات ربيع.. في أواخر مارس تحت شمس حارقة ومناخ أصفر.. ثم رحيل ماما بعد أعوام في منتصف يونيو.. أيضًا قبل نهاية الربيع.
فلينذب كل عذابٍ تحت هذه الأمواج التركوازية والحر اللافت المُرعرع بالنداءات المبهجة والشهوانية..

-٤-

أتساءل عن سبب وكيفية وجودي هنا ولكن بلاجدية. أو أن السؤال نفسه يتلاشى على رغمي كما تتسحب الموجة بعد ثانية من تمددها على الرمال الناعمة، ويتوه في ضجيج المصطافين المرتفع الذي يحيطني ويتسرب إلى داخلي بعنف، فلا أهتم بملاحقته.
ثم أتساءل إذا كان الحل يسيرًا هكذا، وإذا كان انفراج الهم قريبًا لهذا الحد، فلم كنت أتعذب؟! ولكن من أي شيء كنت أتعذب؟! لا أذكر.. ولا أهتم بملاحقة السؤال.
وأخلص للمُتَع والإلهام والنداءات التي لا تخلو من رائحة الهرمونات السابحة مع الرياح القوية على الشاطئ الحار.. وأتعجب من عودة الأيام الحلوة فتملؤني النشوة..

-٥-

أنا في الخامسة والثلاثين.. بحسب صورتني في المرأة داخل قميصي السماوي مفتوح الصدر، وحجم شعوري بالكون، ودرجة سخونة الرغبات التي تقور في الدم، ونسبة الضجر الذي يتكلس على حواف الشرايين، وسخافة القلق الذي يتكور في الأوردة كقنفذ..

-6-

جميع الأصدقاء تزوجوا.. وجميعهم ينتحي جانباً كل حين منفرداً بموبايله سارداً تقريراً عن حُسن سلوكه وملتقياً تعليمات جديدة من «الحكومة» التي بقيت في القاهرة!
وأضحك هازئاً بسوء ما فعلوا بأنفسهم حين استسلموا لفكرة الزواج، وأنا أطوي الروح على جرحي الأليم.

ووسط المُتَمَع والضحك والرحلات الصاخبة، بل وربما في منتصف قُبلة حارقة مع جميلة من الجميلات تدهمك صورة قديمة لنوران فيبوخ كل شيء وتصير جميع جولائك الطويلة نحو نسيانها مجرد حركة في المحل.. رغم عشر سنوات.. وآلاف الساعات.. وملايين الموجات التي تمسد الشاطئ بعناية كل صيف..

-7-

ترن بجواري ضحكة ذات إلهام غامض وتردد مُدهش كأنها لي وحدي.
وألتقاها بما يليق من الاهتمام واللذة وأنا ممدد على الرمل معتمداً مرفقي، بينما الغروب يزحف فوق البحر الناعس والأجساد العارية النشوانة والشماسي التي نامت باتجاه الغرب حتى لامست شرباتها الرمال فصارت تحجب الجالسين كبارافانات.
أتخلى عن حذري، وأميل بجذعي لأقصى ما أستطيع لأرى صاحبة الضحكة بين المستلقيات خلف الشمسية المجاورة. ورنّت ضحكتها مرة أخرى فعرفتُها قبل أن أتساءل مَنْ هي بينهن!
كانت الجميلة اللينة ذات البيكيني الأسود..

-8-

بهجة مُباغثة.. ونشوة تستحيل على الوصف.. وحُسن نادر.. هذا ما كان ينقص صيفي ليستوي كالحلم إلهاماً وجنوناً.. وكالحلم جرى تعارفنا بنعومة موجة تسيل على الشاطئ عند الأصيل.
ومنذ تصافحت كفانا أيقنت أن الماضي يمكن أن يموت..

-9-

أجلس بجوارها على رمل الشاطئ البارد الغارق في الظلام قبيل الفجر.. نتاجي وحيدين بهيام لا يرتوي، وفضول نحاول إخفاءه بينما تعبت أصابعي فنقبض على الرمل ثم تنبسط. يعبت النسيم الليلي بشعرها وبني.. ينثر على وجهي خليطاً من عطر جلدِها المثير، وبهجة مشبعة برذاذ الموج..
والأمنيات. هل أصادف الحب من جديد بعد عشر سنوات من الألم؟! وأقول بجرأة متحدياً التوجس وحذر جس النبض:

- أي حظ سعيد!

فتقول بحياء - لا يليق بملامحها المثيرة- وهي تنظر صوب موضع البحر الغارق في الظلام:

- أنا أيضاً أشكر هذا الحظ.

ثم بعد لحظة:

- سترحل غداً؟! -

أقول بأسف:

- أسبوع كامل مضى.. فياللألم!

فتقول بحسرة أودعتها إغراءً مكنوناً:

- أسبوع كامل؟! هكذا تمر الأيام الحلوة.

وأودّعها. ثم أراقبها وهي تدلف إلى الفيلا التي تنزل بها. ثم أسير وأنا أدهش من قوة النداء الذي يسيطر عليّ منذ التقت أعيننا تحت الشماسي قبل أسبوع. ومن النشوة التي تتاديني بكل اللغات التي أفهمها. ومن جسدها الذي انغمس بأكمله في بئر الإثارة حتى أترع كل ركن فيه بالنداءات الحارة التي لا تخطئ هدفاً.

وعلى الموبايل قبل أن أنام، أجد رسالة:

«لا يجب أن ننهي كتلك الرحلة القصيرة.. ماجي».

فأغوص بكامل كياني في النشوة، بينما هدير البحر يملؤني بالجنون.

وأشعر بارتجاجة جسدي والكون من حولي كأني نائم على سطح المياه..

- ١٠ -

النادي.

معقل الأحداث التاريخية.

عُدت من إجازتي كما يبدو.

وهأنذا أسير في طرقاته، فتعتريني هزة من التوتر والانقباض ويعاودني ضجري المعتاد. ولا أهتم بتحليل ذلك الشعور حين يطالعني النادي بنظرة حميمة قديمة أعرفها كأنها مرت في حلم جميل ذات يوم. وهاهي ذي الأشجار تلتهم بأوراق زاهية رغم قاماتها القصيرة.

وأستريح حين أرى الجبل.

منذ زمن، اختفى الجبل خلف الأشجار الباسقة التي ترتفع هاماتها كل عام، والآن أراه مجدداً في هيئته القوية الرابضة. والرياح التي تنحدر منه تحمل تياراً ساخناً من أتربة ورمال فلا يعوقها عائق. تسعدني حالي الجديدة وتذكرني بتخلصي من متاعب غامضة، فأتساءل كيف كنت حزيناً ولأي سبب؟! -

- ١١ -

بهيرة العزيزة تتحدث في الحديقة منذ ساعة. ويمعني الحب من أن أظهر ضجري من الحديث المكرر. ولكني أجلس كالمنهم في زنازين أمن الدولة. مقيداً أمامها بالاحترام، أعاني التوتر والانقباض التاريخيين.

الحديث يتدفق كأنها تعجز عن التوقف:

- لا بد أن تتحرك يا طارق.. لا بد أن تجدّ في طلب بنت الحلال يا طارق.. لا أدري لم تستسلم

بهذا الشكل العجيب يا طارق؟! هل تتصور أن تعيش وتموت راهبًا يا طارق؟! ما فات فات يا طارق.. ثم كيف تحزن بينما أنت من قرر الهجر والفراق يا طارق؟! ما بالك لو كنت أنت الضحية يا طارق؟!

منذ ماتت ماما وهي تقوم بدور الأم. بضع سنوات يتكرر فيها هذا الحديث.. فهل يضجر مثلي الجبل؟!

- ١٢ -

ولعل الضجر هو أهون ما يحدث. فسرعان ما يجرح حديثها أبغض ما أعاني من أحاسيس وذكريات فيجف الابتهاج الغامض ويعتلّ الجو المُشمس بسفحات صفراء تشبه الخماسين المقبضة. وتصفني، كومضة فلاش مُباغثة، نظرة نوران المفزوعة من موقفها بالقرب من دكتور هاني داخل غرفة مكتبه بالكلية. رغم السنين الطويلة ما زالت نظرتها الثاوية في ذاكرتك تتضح بالرعب والمفاجأة وهي تنظر نحوك بينما كنت تقتحم المكتب بأريحية كعادتك. ما زلت حتى الآن تشم رائحة الغضب والصدمة التي سدّت أنفك وكتمت أنفاسك قبل أن تغلق باب الغرفة خلفك، وتهرب إلى لا مكان. وتتحدّر من جبلك رياح خماسينية تصفر بسخونة داخل عقلك المنهك. وتبكي نوران وتستحلفك أن تسمعها، وأنت بمقام العاشق الصوفي ترفض الحديث، وتقول بصدق:

- لن أفتح هذا الحديث.. قلبي يُحدثني بصدقك وأجلًا أو عاجلاً سيقتنع عقلي!

ولكنها تصرخ:

- أي جنون.. لا شيء مما يدور بعقلك حدث.. صدقني.. دعني أفسر لك.

ولكنك ترفض أن يدور هذا الحديث بينكما، وتُصر على اختبار قوة عشقك وإيمانك بها وبصدقها. ولدهشتك تتجح في ذلك، فنتسى ما حدث تمامًا. ثم تتفجر الأحداث ويقع الفراق، فتُلَفظ جثث الماضي، حينها تقول نوران - بعد وداعكما بأسبوع- في مكالمة وحيدة لم تتكرر:

- اليوم فقط تذكرت الحادث القديم وفهمت لم تبيني بهذه البساطة! إنك لم تغفر لي حكاية مكتب دكتور هاني.. والمؤسف أنني نسيته تمامًا كما طلبت مني.. والمؤلم أنك نجحت في انتقامك، فأبقيتني على ذمة حبك سنوات، ثم عاقبتني ببشاعة في الوقت المناسب على جُرم لم يحدث.

وتتساءل أنت: أحقًا فعلت؟! أم تُراك أحببت أمك وقدّستها لدرجة الجنون حتى نفذت رغباتها في طاعة ذميمة؟!

ولكن لا.. تبًا لنوران وجشعها.. وإلى الأبد..

- ١٣ -

ترقد ماجي بجسدٍ منذور للفتن على البيسين فوق سطح الكونراد، داخل بيكيني أحمر، يزداد احمرارًا أسفل شمس يوليو الساخنة. تستلقي على جنبها الأيسر لتواجهني بينما أرقد على الشيزلونج المجاور. وتمنحني نظرات دافئة رقيقة تحاول إيداعها ما لا يمكنها من براءة!

ما أشهى ماجي.. ولولا أنني أطمح لأن تكون زوجتي، لما قاومت رغبتني في التهامها من يوم الضحكة الساحرة على البلاج.

أما كيف طمحت للزواج بماجي، ومتى؟! فهذا مجهول كالأحزان التي أعرف أنني أنفلتُ من قبضتها دون أن أتذكر لها سببًا!
كل ما أعرفه بيقين، أنني أحب هذا الكيان الراقد أمامي بكل انفعالي بالجمال وبكل حزن حرمانى السابق، وبكل خوفي من مستقبل مُتَشَجِّحٍ بالوحدة، وبكل رغبتى في الاستقرار والخلاص من إلحاح بهيرة.. ومن إلحاح جسدى وروحي..

-١٤-

في مطعم الفندق نتناول وجبة شهية من السمك. ماجي تعقص شعرها المُبتل فوق رأسها، وقد خلا وجهها من الماكياج فيتوكد لي حُسنها. وتقول وهي تستكمل حوارًا:
- وليس من الغريب أن يطعم المتسكعون في أرملة مثلي.
ولا أدهش وكأننى على علم بكونها أرملة رغم أنني أجزم أنني أسمع ذلك للمرة الأولى، وأدهش من عدم دهشتي! وأقفز فوق كل ذلك لأقول ببساطة وصدق:
- تستحقين ملكًا على أقل تقدير.
وتضحك ماجي.

دائمًا تضحك ماجي.. فيهتز جسدها الأبيض اللدن، وتندفع نحوى موجات أكثر من الفتنة، تغرقني وتنشل قُدرتي على التفكير. وتقول بنبرة مشحونة:
- لسبب لا أعرفه.. لا أخاف منك ولا من غزلك يا دكتور طارق.
فأمتلى بالنشوة وتمتلى عيناى بنظرات عاشق كتوم رغم الجنون الذي يُحلق فوق جلستنا أمام النيل المُتسع في مواجهة شرفة الفندق الزجاجية.
وأكتم عشقى، ولا يمنعني من البوح سوى رغبتى في مراجعة موقفي المالى بدقة كي لا أعرض كرامتى لأزمة جديدة، خاصة مع ما يبدو من ثراء ماجي الباذخ. والحق أنه كان من المستحيل بحساب العقل أن أطمح إليها، لولا هذا النداء السحري الغامض، ولولا اليقين بأنها هي التي تترك الباب مفتوحًا أمام خطواتي التي تتوغل يومًا بعد يوم نحو حياتها الفارغة..

-١٥-

أستلم بيانًا بقيمة اليوم. ألف وخمسمائة جنيه! بالطبع لا أحتفظ في جيبى بهذا المبلغ، فأدفعه من بطاقة الفيزا. وتقف ماجي بجوارى وأنا أوقع شيك المصروفات. وألحظ مراقبتها لملامحي كأنها تتأكد أنني غير نادم ولا مُتبرم من إنفاق هذا المبلغ على يوم قصير. وأحرص على أن أبدو سعيدًا جدًا. وتجمعنا سيارتها الرشيقَة وتقول:
- أين سنلتقى غدًا؟!
ورغم قلقي وشعورى بأننى أُستنزف مادياً. أقول بعشق:
- سأطلبك فور انتهاء النوبتجية لنتفق.
فتبتسم..

-١٦-

أصطحب طيف ماجي المُتغلغل في حناياي إلى كل مكان. إلى المستشفى، وإلى النادي، وإلى البيت، وإلى السرير قبل النوم.
ما الفارق بين جسد نوران وجسد ماجي؟!
هكذا ينفجر السؤال الطائش بوجداني بلا سبب.
لَمْ جذبتني ذاكرتي إلى جسد نوران على حين يستعبد جسد ماجي خيالي وروحي وجميع ذرات جسدي المترع بالاشتياق؟!
وهل اهتمت يوماً - في حومة حُبك الخالص- بتفحص جسد نوران؟! لم يحدث.. إلا ما أهدتنيه مصادفة عابرة حين طار طرف قميصها لأعلى إثر هبة من نسيم متواطئ..

-١٧-

أقود سيارة جديدة وإلى جواري بهيرة كالعادة. تُبارك لي، ثم تقلب نظرها في السيارة. وأخيراً تقول:
- ما لها سيارتك الأولى؟! لم تكن بحاجة لسيارة بهذه الفخامة.
فأقول ممهداً الطريق للاعتراف بقصة ماجي مُتصوراً أنها ستُسِر:
- عليّ أن أتهياً لاصطياد بنت الحلال.
لكنها تُفاجئني إذ تقول بجفاء دون أن تنتظر نحوي:
- بنت الحلال لا تُصاد بسيارة فخمة.. بنت الحلال تصيدها الأخلاق والشهامة.
- ولكن...
تقاطعني في تبرُّم وهي تُتْهي الحوار بحزم:
- احذر أن تبدد ميراثك قبل أن تجد بنت الحلال.
ماذا فهمتُ بهيرة؟! يبوخ جنوني، وتستيقظ هواجسي الذاتية تجاه ماجي. ولكني أتخلص من كل ذلك وأنا أطلبها لنخرج في المساء..

-١٨-

يوم مُبهج جديد.. والشمس تسيل فوق جسد ماجي البرونزي الممدد على شاطئ سيدي عبد الرحمن، وأراقبها بوله بينما أرقد تحت مظلة صغيرة. وأسمعها بصوت كسولٍ مُغرٍ، تقول وهي مغمضة العينين تحت إيشارب سماوي يُخفي وجهها:
- ما رأيك لو اشتركت معكم في النادي يا دكتور طارق؟!
فأقول شاردًا وأنا أفكر في ردة فعل بهيرة:
- فكرة عظيمة.
تضحك وهي تزيج طرف الإيشارب، فترنو إليّ بعينين شبه مغمضتين ووجنتيها اللتين لاحتها شمس المصيف تدعواني للجنون:

- أخاف أن تمل طلباتي.

فأقول بشوق:

- تعلمين أن ذلك لن يحدث.

تزيح الإيشارب وتقول وهي تعتدل:

- أنت جميل يا طارق.

أنت جميل!

هذه الكلمات التي لا تتبئ عن شيء.. ولا تعترف بشيء.. أكرهها.

كما أكره اللحظات التي تتطلق فيها ماجي بضحكاتهما التي لا تتوقف، بينما أنا جاد أمهد الطريق للاعتراف بحبي.

ولكن ذلك لا يمنعني من الشعور بالنشوة التي لا تتوقف أيضًا طالما ماجي بجوارِي، وبعنون دمائي التي تصطبخ كالبحر المتوسط الذي يعربد أمامنا.

وتقوم لتنفض الرمل عن الشيزلونج فتطالعني أردافها الجنونية تحت ظهرها الرشيق، ثم تلتفت وتقول:

- أما زلت تُصر على السفر؟! ألا تمكث معنا يومًا أو يومين؟!!

كاذبًا أقول:

- للأسف.. مرتبط بعمليات هامة غدًا.

ولكني أعرف أنني أنفذ وصية بهيرة في الحفاظ على ميراثي الذي يوشك أن يتبدد.. وأتساءل ألا ينفذ ميراث ماجي رغم بذخها الواضح؟! وأتساءل كيف يمكنني الاستمرار في علاقتي معها، ثم الزواج بها، بينما أخشى نفاذ الميراث؟! يلزمني بلا شك مصدر لا يتوقف عن درّ الأموال.

واقتربت ماجي بشدة لتلقي الباشكير المندى فوق المظلة أعلى رأسي. فأصير على بُعد شبر من بطنها الرشيق. وتقعم أنفي رائحة الصن بلوك ولكنني ألتقط بوضوح رائحة جلدها المُخدرة داخل تهاويم من أحاسيس مذهلة، ونشوات مثيرة وأمنيات خرافية. وترنو إليّ سُرتها كالبدن فوق حافة المايوه. ويُخيل إليّ أنها تبتسم، وأنها تهمس وتُكرر عليّ بدلال الدعوة للبقاء لليلة واحدة! فتجيبها مخاوفِي وأنا غارق في أفكارِي ونشوتي، بأنه يلزمني أولًا نهر لا يجف من الفلوس.

وقبل أن تعود ماجي لمكانها، توحى لي السرة اللعوب بأفكار خطيرة جعلت تتبلور بذهني طوال الطريق للقاهرة حتى اتخذت قرارِي بينما أرتج داخل السيارة المنطلقة على الطريق!

١٩-

أبلغت بهيرة بقرارِي فوجمت. ثم قالت بجفاء كأنها تعرف أن ثمة ما يجري وراء ظهرها:

- وفي أي مجال ستعمل شركتك؟!!

- في مستلزمات جراحة العظام.

- حقًا؟!!

فأقول هاربًا إلى موضوع فرعي كطفل مُذنب، متجاوزًا السبب الحقيقي لسؤالها:

- الوقت الطويل الذي أستغرقه مع الجراحين في تخدير عمليات العظام جعلني شغوفًا...

وتقاطعني فتقول بجفاء:

- ما شاء الله.

- أنتِ تسخرين.

- أبدأ.. ولكن تذكرت حادثاً شبيهاً من عشر سنوات.. ومعارك كبيرة وقعت يبدو لي الآن أنك نسيتها.. ثم هأنذا تقرر ببساطة افتتاح شركة.
صمت تام.. بينما أصداء ضحكة ماجي تتردد داخل كياني كأنها تخبط موجات رقيقة داخل غرفة من الصخور.. وتغمز لي سرتها في ظفر وتشجيع..

-٢٠-

انتهينا من إجراءات العضوية. واليوم تصطحب ماجي ابنتها لأول مرة إلى النادي.
رغم لقاءاتي التي لا تتقطع مع ماجي لم أرَ البنت معها ولا مرة، رغم ما تبديه دوماً من حنان وحب إذا جاءت سيرتها. ومن الحكايات أعرف أنها في العاشرة وأن اسمها «أمينة»، وأن والدها توفي قبل أن تتم عامها التاسع!
كما أعرف- وهو المهم- أنها العقبة الحقيقية بيني وبين أمها! فبإمكاني أن أخفي عن بهيرة كون ماجي أرملة، ولكن كيف أخفي ابنتها؟!
وسؤال آخر لا يتوقف عن الدوران فوق رأسي كمروحة سقف: هل تخشى ماجي هي الأخرى أن تكون البنت عائقاً حقيقياً بيننا؟! هل تفهم ماجي أنني أطمح للزواج بها؟! وهل تحمل نحوي شعوراً حقيقياً يماثل هيامي بها؟! أم هي الراحة لصديق يسره أن يرافقها وأن يكون دوماً بخدمتها؟!
بهذه المشاعر الحائرة أجلس على البسيسين في انتظار لقاء البنت لأول مرة.

-٢١-

تقبل البنت من بعيد. فأعرف أن شيئاً عجبياً يحدث من جديد. تغزوني بغتة أحاسيس غامضة كأنها تدفق غزير.. لا أدري أهو من الماضي أم من المستقبل. لا أرى ماجي التي تمسك بيديها. ولا أسمع ضجيج النادي. ولا أتيقن من زماننا.
لا أرى سواها ولا أسمع سوى صوت أنفاسي كأنني أحلم. أي خوف يدهمني؟! وشيء كالغثيان يخنقني. وترقب مرعب يدق على أعصابي. وهالة من الغموض تلف جسدها الصغير فأفزع بينما هي تقترب شيئاً فشيئاً.. بهيئة حزينة تقتلني..

-٢٢-

أقف كتمثال. وتمسك ماجي بيد البنت الخجلى فتضعها في كفي التي أمدها بلا إرادة كالمُنوم، وهي تقول:

- سلّمي على أونكل طارق.

البنت لا تمتنع ولا تُرحب. تترك لأمها كل شيء. وأصبح أنا وهي في شرود كالحلم. وتسقط كفها

في كفي وتتصل أعيننا. فتدهمني الحقيقة التي كذبتها على مدار دقيقتين كضربة مرزبة ثقيلة على رأسي.. كحادث انقلاب سيارة.. كتوهج الشمس على بُعد متر واحد من عينيك. أقاوم شعورًا حقيقيًا بالغثيان. وأقاوم مذلة أن يُغمى عليّ أمام ماجي. وبيريهان!

-٢٣-

أسأل في تشكك:

- اسمها أمينة؟!!

فنتظر ماجي للصغيرة التي تسبح في البيسين باستمتاع يستولي على جميع حواسها فلا يبدو أنها تُلقي بالآ لأي شيء حولها، وتقول:

- نعم.. على اسم أم زوجي.. الله يسامحهم.

أردد في هذيان:

- أمينة.

تحدجني ماجي بدهشة وهي تقول:

- ما لك يا طارق؟! اسمها قديم.. أعرف ذلك ولكن لا يستحق منك كل هذا التفكير.

أرنو إليها تائهاً. فنقول:

- ربما أستطيع تغييره في سجلات الحكومة ولكني لم أجد الوقت لذلك.

تراقب ماجي نظراتي نحو بنتها بذات الاهتمام الذي تراقب به توقيعي على شيكات مصاريفها الكثيرة.

هل تخشى هي الأخرى أن تكون البنت عائقًا حقيقيًا بيننا؟! ولكنها لا تدري أن شرودي في البنت أعمق مما تظن وأصعب من أن تفهمه.. أو أن أفهمه أنا أصلًا!

هل يسير الزمن للأمام؟! أم للخلف؟! إنني تائه في الزمان.. عالق.. وعاجز على سبر غور هذه الهالة الضبابية التي تكتنف الوجود حولي فتجبرني على النظر إلى اللحظة الراهنة وحدها رغم علمي بأن هناك ما هو كائن خلفها.

هذه ليست أمينة.

إنها بيريهان.

أقسم إنها بيريهان.

رغم براءة الملامح، وسداجة الصوت، والأعين الحزينة الذابلة، والشعر الأسود الطويل الذي لا يشبه شعر بيريهان المصفر!

من أين تهبط عليّ بيريهان؟! وأين كنا قبل أن نلتقي الآن؟! وكيف يحدث ذلك؟!!

-٢٤-

تلوح ماجي لابنتها بساندويتش، فتسبح البنت نحو سلم البيسين بغير جدال فتدهشني طاعتها وأضيفها إلى قائمة الأشياء التي لا تشبهها!

وتخرج من البيسين بقامتها الطويلة وقدها الرشيق اللافت، وتتألق بشرتها المبللة بقطرات الماء بفعل شمس صيفية ساخنة. ويسوؤني أن أصطاد عددًا من الأعين التي جرت كالماء فوق إهابها الأبيض.

أغار؟! أم أشفق على طفولتها أن تتعرض لأذى الذئاب؟! وتدفعني قوة غامضة لأن أنظر إلى مؤخرتها كأنما لأتأكد من أحاسيس ماضية مسيطرة، فيدهشني أنها تعد بالثراء القائل في زمن ما، وأني أملك نحو تلك المؤخرة إحساسًا عتيدًا.. وأزفر وأنا أتساءل متى كان اكتشافي لهذه الأرداف وكيف تترك في هذا الأثر الذي لا يُنسى؟! وكيف أنظر لأرداف طفلة؟!!

وتلتقط البنت الساندويتش من ماجي. وتتناوله وهي ترفع حقيبة ملابسها على كتفها وترميني بنظرة مستطلعة عجلي فأوشك أن أقول: ألا تذكرين؟! ولكنها تمضي نحو عُرف خلع الملابس.

غثيان وحنق وجنون.. كيف أحب طفلة صغيرة بهذا العمق والجنون؟! هل اختلطت عليّ الحكاية؟! هل تشوش ذهني بفعل جنون طارئ فوضع مشاعري الساخنة نحو ماجي باتجاه الطفلة الصغيرة؟! لأي سبب يمكن أن يحدث ذلك؟! أسبب من تأثري بيئتها وحرزها الشجي؟! لا.. إنني أتذكر - رغم ضوء الشمس المبهر الذي يمنعي من النظر في عمق ذاكرتي- أن جنوني ومشاعري الملتهبة كانت تجاه بيريهان.. لا ماجي. ولماذا أسميها بيريهان؟! هذا يؤكد أن الأمر أعقد مما يبدو.. كما أن قسماث الشابة المُسماة بيريهان والمحفورة بوجداني العاشق لا تُشبه ماجي إلا قليلاً وإن اقتبست من دلالتها المثير وأنوتتها المفرطة. ولكنها شيء آخر. وأحاديثنا أحاديث أخرى، وقصتنا قصة أخرى. أتذكر ملامح بيريهان المحبوبة المجهولة وهي تضحك بينما أنعم النظر إلى التماعها أسفل شمس تسقط من نافذة في غرفة مغروسة في جو خريفي لا فكرة لي عن مكانها رغم شعوري بأنها غرقتي. هل كانت زوجتي في حلم ما؟! أو زميلتي في المستشفى؟! كل القصة حاضرة ولكنها مغروسة في حلقات من الضباب كالكلمة التي تقف على عتبة الذاكرة ولكن لا تعرف كيف تتطققها. وتقتحم ماجي معاركي الذهنية فنقول بحماس:

- هاه.. حدثني عن الشركة الجديدة.

أرد بشرود وأنا أتلوى من الألم:

- أنهينا تسجيل الشركة واستلمت كافة الأوراق.. وفي ظرف أسبوعين أسافر إلى ألمانيا لحضور معرض مهم ربما أتمكن من حيازة توكيلات هامة أبدأ بها عمل المكتب.

تنداح ابتسامة ماجي في رضا أراه للمرة الأولى. ولا تتطلق ضحكاتها للمرة الأولى أيضًا. فأشعر بجديتها، ومع ذلك تقول في إثارة:

- هل يمكنني أن أسافر معك إلى ألمانيا يا دكتور؟!!

أنعم النظر في ملامحها.. وتدق المرزبة رأسي مرة أخرى فأترنح تحت ثقل ضربتها. وأتيقن أنني ضحية للعبة عابثة.. من الذي يتحدث إليّ؟! ماجي أم بيريهان؟! وأتحسس ندبة غائرة على سطح القلب. فأتساءل أي حادث ترك على القلب تلك الندبة؟! ومتى سمعت هذه الجملة المترعة بالجنون والثورة؟! «أسافر معك».. كيف فقدت الجاذبية فوق أرضية الزمان فطرت في الأزمان كأنك على سطح القمر؟! أوقن أن الجملة وما يتبعها من أثر جهنمي لم يُقل في الماضي، فهل صرت ولياً أرى الحاضر والمستقبل بعين واحدة؟! ولكن أي مستقبل؟! هل سأحب يوماً أمينة؟!!

أحاسيس مروعة تجتاح قصة ماجي البهيجة فتستحيل إلى شيء لا يشبه سوى الفزع والغثيان..

-٢٥-

أستيقظ اليوم مفعماً بشجن غامض.. لا كيان حقيقي له ولا أثر.. كأنه عطر نفثته مبخرة ثم ذاب في تضاعيف النسيم، فلم يبقَ منه في نفسي عند استيقاظي سوى ذلك الحزن النبيل الذي تنتشي به الروح. وفراغ في حضني كأن هناك من احتلته طوال الليل، وصدى يتردد في الروح باسم امرأة عاشقة معشوقة تدعى فايذة..

-٢٦-

ألنقي ماجي لأشفي من العذابات التي هبطت على حياتي بغتة. بضحكتها الهازئة بكل شيء ستنتشع الغمامات السود التي تعبر سماء أغسطس الصافية. نجلس في مطعم فوق النيل على ارتفاع ثلاثين طابقاً. وأتناول غدائي على أنغام صوتها المحبوب. وأحتسي قهوتي محوجة بافتتاني الجنوني. ماجي الآن أقرب وأقرب ربما لأنني أقف أكثر اطمئناً على أبواب الثراء. ورغم عدم تصرّحي بحُبي حتى الآن، ورغم تجنبها أي حديث عن الزواج، إلا أننا نعرف أننا في قلب العلاقة. وتمنحني ماجي بسمات راضية جديدة. وتختفي ضحكاتها ولكن تهديني ضحكة واحدة فقط. وتتحدث بجدية رغم الإغراء الذي لا يفارقها. تسأل باهتمام عن الشركة وعن كل ما يتعلق بمستقبلي. فأشتعل بالعشق بلا مُبرر..

-٢٧-

أتذكر أمينة- ومشاعري الغامضة نحوها- فجأة، كأنني كنت نسيت كل شيء عنها. فأتعجب كيف أنساها وكيف أتجاهل غرابية ما يحدث فأستمر في قصتي مع ماجي. ثم أطوي قلبي على رعي وفزعي. وأحاول أن أتناسى كل شيء وأنا أستعيز بالله كما أستعيز من كابوس ليلي.. ثم أنساها كأن لم تكن!

-٢٨-

- بهيرة ترميني بنظرها اللائمة كلما التقينا. ولكنها تسألني في حنان أعرفه رغم عبوسها:
- أخبار شُغلك؟!
 - فأقول باسمًا:
 - كل شيء يسير نحو نجاح مُمتع.
 - عرفت أنك عيّنت نانسي سكرتيرة قسم التخدير بشركتك.. كيف أقنعتها بترك الحكومة؟!
 - ألا يخفى عليك شيء؟!
 - قدرني ونصيبي أن أراقبك طول عمري.
 - ولم كل ذلك؟!
 - وصية أمك.. هل نسيت؟!
 - لم تقتنع الله يرحمها أنني صرت رجلاً.. وكذلك أنت.

تبتسم في سخرية، فيحلو لي أن أسألها مشاكساً:

- وماذا تعرفين أيضاً من أسرارى؟!!

فتحدجني بنظرة ماكرة وهي تهبط من السيارة، فأوقن أنها تعرف كل شيء عن ماجي. ولكني لا أهتم..

-٢٩-

الشركة تتجح بسرعة جنونية عجيبة. يزداد عدد الموظفين كل شهر. وأوقع عشرات من فواتير البيع ومظاريف المناقصات كل يوم. أتمل بالنجاح وتقمع أنفي رائحة الصن بلوك المختلط برائحة ماجي المثيرة. لا شيء يفصل بيني وبين أن أقبل سرّة ماجي..

-٣٠-

شفتي الجديدة تُطل على النيل بكامل عرض شرفتها. كما تُطل نفسي على الدنيا بكامل وجداني كأنني أقبض بيدي على كل شيء. أمتلئ بأمل لم أعرفه من قبل، وبحبور عز أن يوجد على الأرض. وتتردد في النفس نغمات بعيدة تنثير حنيناً غامضاً لامرأة لا أعرف أين التقيتها. وتفتحم ماجي الشرفة وهي تحمل فنجانين من القهوة على صينية فضية. تقف على العتبة وتشهق لرؤية السماء والنيل من هذا الارتفاع. وتقول بعشق أراه جلياً لأول مرة:

- مبروك يا طارق.

تضع الفنجانين على السور، ثم تضع الصينية الفارغة على منضدة صغيرة في جانب الشرفة الشرقي، ثم تطالع الأفق بافتتان وهي تستند على السور براحتيها. تغمض عينيها وتعب أنفاساً عميقة من الهواء المنعش رغم الصيف. وأنعم فيها نظري، فيتألق حُسنها وأتلقى نداءه كأنه لي وحدي، تماماً كضحكتها الأولى على الساحل الشمالي. ويتملكني الجنون، فأستجيب لنفثات الهرمونات التي تتطلق لأول مرة بلا سدود، متسججاً بالطموح والنجاح وبانفرادي بماجي الفاتنة لأول مرة. أطوق خصرها بذراعي فأجذبها إلى صدري. فدهشني رقة جسدها الذي طالما تصورته أكثر قوة. وتلتقي شفتانا فيدهشني أن تستسلم لي الملكة بهذه البساطة. وأتلقى في ذهول شفتها السفلية المكتنزة المشحونة بالجنون. ويسيل في فمي مذاق النعناع فأتساءل هل تهيأت ماجي للقبلة؟! هل استعدت لتلك اللحظة التي تصورتها وليدة جنون لحظي؟! هل تسبقني ماجي بالتفكير بينما أظن أنني الفاعل؟! ورغم هواجسي وتفكيرتي أستسلم لجلال اللحظة النادرة. وأستحلب مذاق الجنون المختلط بالروح والنعناع فتندفع الدماء المشتعلة إلى جميع أطرافني. وأحكم ذراعيّ حول خصرها فتلتصق بلا مقاومة بجسدي. وتشتعل قُبُلنا إلى الحد الذي أغراني بالتمادي. فتسير أصابعي على الإهاب الناعم الذي يرقد كفتنة تحت القميص الرقيق فأشعر أنني أرتقي نحو نجوم لا يحجبني عنها شيء. وحين أصل لهدفي، تدفعني في صدري بهدوء. وتلتفت ببساطة فترشف رشفة من قهوتها. ثم تقول بنبرة لا أثر فيها لما حدث وهي تنظر نحو الأفق:

- لا أحب أن يحدث بيننا أصغر الأشياء دون زواج يا طارق..

-٣١-

مرة أخرى أستيقظ بالشجن الغامض والعشق المجهول والاسم الغامض الذي أشعر أنني رددته ألف مرة طيلة نومي.. فائزة..

-٣٢-

إنها مأكرة تعرف من البداية كيف تُدير لعبة الجنون. وتعرف كيف تقودك إلى أرضها. كل ما فيها عرف كيف يُحكم سيطرته عليك.. من سقف حلقها الذي أطلق الضحكة، حتى أنامل قدميها التي طالما أغرتك وهي تغوص بأظافرها الوردية في رمل الشاطئ.. ولكن لم تتكشف لعيني الآن هذه الحقيقة وأنا أغرق في العشق؟! لم أرى ماجي الآن بهذا المكر؟! هل كنت تتمنى أن ترى بعينيها الحزن لتتقذها منه، بدلاً من تلك النظرة الطافرة؟! أو أنك كنت تتمنى ألا يرد ذكر الزواج إلا عن طريقك لتشعر بقيمة ما تفوز به؟! هل أزعجك أن تتكشف أن ماجي تخطط للزواج منك دون أن تعرف قبل ذلك أحببتك أم لا؟! هل تتزوجك لتتقذ ذاتها وابنتها من إفلاس وشيك؟! وشيك؟! أوه.

لم أرتد عن حُب ماجي في اللحظة التي تفتح لي فيها باب الجنة؟! ولم أشعر بأنني أمتلك خبرات قديمة بقصص الحب والزواج رغم أنني لم أعرف سوى قصتي مع نوران؟! لم أشعر بأن مشاعري وأهدافي وجميع أحداث قصتي مع ماجي ليست إلا لعبة بازل محددة مسبقة، وأنني أضع كل شيء في مكانه ثم أتفاجأ الآن أن القطع لم تعد مناسبة للثقوب التي لا تزال تملأ رقعة اللعب؟! أوه.

-٣٣-

وثمة آلام أخرى وحيرة وعبث.
تجمعني جلسة في مقصورة البيسين بأمينة في غياب ماجي. ترنو إليّ أمينة بعينيها الحزينتين فأشرف على الجنون. وتقول في قلق أعرفه جيداً:
- هل كنت تعرف بابا؟!
مزيد من التمزق والحزن. وأقول بحنان:
- لا.
تشرد وتتوه في حزنها من جديد. فأقول مشجعاً:
- ولكنني أعرف أنه كان إنساناً عظيماً.
تلقت نحوي بنظرة سرور لم تتغير رغم الزمن، وتهمس:
- إذن أنت تعرفه!
- لا.. ولكن سمعت عنه من ماما.
- ولكنه لم يكن يحب ماما.
- حقاً؟!
.

تقترب بكرسيها مني، وتهمس:
- كان يُقبلها كثيرًا.. كنت أراها وأنا خلف الباب.. وكان يقول لها «أحبك» ولكنه في المساء كان يجيء لينام بجوارِي.
تدق الدموع بوابات روحي ولكني أقاوم، وأقول مُشجعًا إياها على الحديث:
- وماذا كنتما تفعلان؟!
يتهدج صدرها وتقول:
- كان يحكي لي قصصًا.
- سندريلا وسيت الحُسن وذات الرداء الأحمر؟!
تلتمع عيناها بنظرة الظفر المُسكرة القديمة:
- لا.. أو أحيانًا.. ولكن كان غالبًا ما يحدثني عن شركته الجديدة..
أشبح بوجهي ناحية الجنيحة كي لا أبكي.

ويغزوني شعور عميق مُذكرًا بشوق قديم وبلقاءات قديمة كانت الشركة جزءًا أصيلًا منها! هل ولدت كل الأشواق الغامضة بسبب العطف كما يحدث الآن؟! ولكني أسمع همس روحي وجسدي وذكرى تتردد عن رغبات نارية، وأحضان ساخنة، وقُبلات في سيارة هائمة في الصحراء، فتمتلئ نفسي بالتقرز، وأعاف التمادي في السير تحت الضباب. كيف يحدث ذلك وأي شيء يمكن أن يُبرره؟! خمسة وعشرين عامًا كاملة بيني وبين الطفلة الصغيرة. ربع قرن يفصل بيننا فكيف يمكن لأي شعور أن يكون؟!!

ولكن كيف اختفت بيريهان المثيرة لتصطمم بأمانة الصغيرة؟! أي لعبة سخيقة؟! وإذا كان ما رأيته حلمًا يخبرك بالمستقبل فكيف ستعشقها؟! هل سأطمح يومًا أن أتزوج من طفلة في عمر ابنتي لو كان قُدر لي الزواج والإنجاب من نوران.

وأحدج أمانة بنظرة حائرة فأتساءل متى سيحوز جسدها الطفولي هذه الإثارة الخرافية التي تقتلني ذكراها؟! كيف ستتحول من «أمانة» لـ«بيرِي» فأستحلب نكهة الكرز كلما نطقت اسمها؟!.. إنه سحر أن يحدث ذلك!

ولكنني برغم ذلك كله أتساءل في غضب وأنا أهصر دواسة البنزين وأنا عائد للبيت: ألا تعرفيني يا بيرِي؟! ألا تذكرين ما حدث ذات يوم؟! يوم لا أعرف إن كان في الماضي أم في المستقبل؟! هذه لمحة من عينيك التي طالما أسكرتني.. ولمحة من الأشواق التي تداعبني كلما اقتربنا.. كنا قريبين ذات يوم من سطح القمر.. فكيف لا نعرف أين كنا؟! مَنْ يُخلصني من الكابوس؟!!

-٣٤-

تزروني ماجي لأول مرة بالمكتب. أتلقاها بشعوري الجديد الخليط من العشق والقلق. ولكني أتية بالفخر وأنا أرى انبهارها بمكتبي وشركتي بعد أن أسكرها منزلي. وحين تتصرف تدخل نانسي لمكتبي فتقول:

- دكتور طارق.. من السيدة؟!!

فأصمت متعجبًا، ولكنها تقول:

- قدمت لي نفسها على أنها خطيبتك .. فأحببت أن أتأكد منك حتى لا تكون نصابة .
أصمت فتقول مرة أخرى:
- تعلم أن شركتنا الناشئة تحتاج لسُمة بَرّاقة .. لذلك خُفت أن تلعب المرأة لعبة ما في السوق .
أقول:
- لا تقلقي .
فتتصرف .

ماجي تخطط لكل الخطوات، وتُدِير كل الأشياء وأنت من ضمنها . هل تغيرت ماجي فجأة أم أنك تترقي بثرانك إلى المقصورة التي تمكّنك من أن تراها بوضوح؟!
أتعذب تحت ضغط شكوكي التي تعصرني فوق حجر صلد من عشق راسخ لا ينفقت! ما أبغض الحب الذي يأتينا ككابوس نتلذذ بعذابه ..

-٣٥-

بهيرة تلف وتدور وأنا دائخ بالأساس . لذلك أستاذنها وأنصرف من المستشفى عقب زيارة قصيرة لعيادتها .
أجلس في النادي وفوق حجري أمينة تجهش ببكاء عميق، أتعجب من سمو روجي وأنا أحتضنها كابنتي . وتقول:

- هل ستتزوج من ماما؟!!

فأدهش وأقول:

- هل قالت ماما ذلك؟!!

- نعم .

- وماذا قلتِ أنت؟!!

- لم تقل لي .. ولكنها كانت تتخانق مع عمّو مروة .

- عمّو مروة؟!!

- أخت بابا .

وتتنال عليّ رغبة صادقة في طمأنة هذه النظرة القلقة التي تترنح داخل الحدقات العسلية المحبوبة .
فأقول:

- لن يكون هناك ما يسوءك؟!!

فتجهش مرة أخرى ببكاء عميق بينما ترنو إليّ بنظرة الامتنان القاتلة التي أتذكر كُرهي لها . ولكنها تثير الآن عطفی الصادق .

يطمرني حزن غامر . وأبكي حتى نهاية اليوم . وأدعو الله أن يحمي أمينة من شر خلقه . وأن يطيب جراحها وأن يملأ مكان أبيها .

وأعرف أنني أفقد ماجي، وأن جبالاً تقوم بيني وبينها بلا مقدمات، فأمتلئ بالحسرة، وأتساءل ما فائدة النجاح والشركة؟!!

-٣٦-

تلفتني رنة كعب رشيقة معروفة إلى القادمة في ردهة المستشفى فألتفت بفرع. تلتقي عيني بالمرأة الجميلة التي تخطر نحو قسم النساء فتتوكد ظنوني. وتتوقف هي في دهشة وهي تحدجني بنظرة متشككة. ثم تقترب فأهب من موقفي وأسير وأنا أمد يدي في زهول قائلاً:
- نوران.

تصافحني بود. أحاول أن أتذكر لم كنت أنقم عليها فلا أذكر شيئاً. أتوه داخل غلالات الضباب التي تعزلني عن الماضي والمستقبل ولكني أتذكر يوم وقفت تبكي في زهول داخل أتربة الخماسين. وفجأة أقول بلا سبب:
- أنا آسف.

فتضحك ولا تتطق. وأضيق بضحكتها وبحيرتي ولكني أتطلع إلى ملامحها فأكتشف أشياء جديدة..

-٣٧-

في كافتيريا طالبة قصر العيني التاريخية، تجلس نوران قبالي. أنعم النظر في ملامحها بقوة أشواقي التي ينتابني إحساس مؤكد أنها تفوق سنوات الفراق العشر. كأنني أعود من رحلة ربع قرن. وهذا ما تؤكده أيضاً ملامحها التي كبرت كثيراً. وتقول نوران بصوت أنضجته السنوات:
- أي صدفة جميلة!

فأقول بحماس كأنني كنت أنتظر هذه اللحظة:

- أقوم بهذه الزيارة كل أسبوع، قصر العيني من أهم عملاء «شركتي». وأضغط على «شركتي» لأطالع بلهفة اندلاع الدهشة في عينيها التي تكتنفها تجاعيد أدهش لرؤيتها إذ ما زالت الملامح الشابة القديمة منطبعة بذاكرتي. وتقول في حزن:
- شركتك؟!!

- قرار تأخر فلم أنفذه إلا هذا العام.

تختلس نظرة إلى أصابعي فتنداح نظرة ارتياح، لكنها تقول لنتيقن:

- هل تزوجت؟!!

- لا.

- لم؟!!

- قرار آخر تأخر.

ألمح ارتياحها، فأقول:

- وأنت؟!!

- لا تُذكرني.

تكفيني إجابتها. ولكني أتهرب من إحراجها فأقول كاذباً:

- أقصد زيارة المستشفى.

تتحول فتقول في حزن:

- أنا أيضًا أقوم بهذه الزيارة كل أسبوع!
- أما زلتِ تمارسين الطب والتدريس؟!
تشريح بيديها في استهانة وتهمس:
- نسيته ضمن ما نسيته.
- ما أسوأ ذلك!
- زوجي كان أسوأ من كل ذلك.
أتهرب من استكمال هذا الحديث، وأتهرب من تصور أنها كانت يومًا لرجل آخر غيري، كأني
أهرب من أمام مكتب دكتور هاني. وأقول:
- فلمَ تزورين قصر العيني؟!
- الفحوص الضرورية لامرأة تخطت الأربعين.
تدهمني نوبة الدوار من جديد. كيف تخطت نوران الأربعين بينما أنا في الخامسة والثلاثين؟! هل
كانت نوران تكبرني بكل هذه السنوات؟! فلمَ أتذكر أنها كانت تصغرنني بعام؟! وتنتز عني نوران من
دوامتي:
- أما أنت فلا تبدو عليك السن.
ثم في حسرة:
- كأن الزواج الغلط يدمر البشر.
أهم أن أقول لها: «كيف تجاوزت الأربعين؟!»، ولكني أكتم هواجسي وأنا أرى التجاعيد التي
نشوه ابتسامتها الجميلة. وتجاعيد أخرى تسير كالشروخ على أصل رقبتها الناعمة. فأنمزق من
الحزن وأهم باحتضانها. إنني أحبها رغم كل شيء. وأقول:
- نوران أنا أحبكِ.. أكثر مما تصورتِ دومًا.. وأبعد عن كل ظنونكِ السيئة.
ابتسمت في ارتياح. ولكن التجاعيد سكبت على مشاعري ماءً حارقًا.. وأتساءل كيف تشيخ وهي
في بداية الأربعين؟!
وقالت بهيرة:
- هذا ما يحدث عادة، وقليلات من يتجاوزن هذه السن بلا أثر!

-٣٨-

دعاني شجن غامض شبيه بشجن الأحلام الحزينة التي تزورني، أن أسير بصحبة ماجي على
الممشى في آخر النادي وكأني أستعيد ذكريات أيام جميلة ماضية مع امرأة أجهلها. وبرغبة في
تعذيب ذاتي أو في هتك ستر المشاعر المزيفة أقول كاذبًا:
- تتعرض الشركة لمتاعب.
فترد هي بلهفة تحنقني:
- هذا ما حدثه وأنا أرى وجومك منذ التقينا.. طمئني ماذا يحدث؟!
كنت أتمنى أن تكذب ظنوني وأن تكون لهفتها علي لا على الشركة. وأتجاوز حنقي فأقول:
- الشركة في بدايتها، وهذا شيء وارد.

ولكنها تقول في قلق:
- ولكنك قلت إنك تُحقق نجاحًا عريضًا.
- هذا حق.. ولكن للدنيا موجات.
- ومتى تستقر الدنيا فتطفو فوق قمة لا يطالها الخوف.
- قريبًا بإذن الله.
تشجعها جُمليتي، فتحتضن ذراعي وتلتصق بصدري وهي ترفع رأسها نحوي في إغراء وتشجيع:
- طر يا طارق وارفع.. الدنيا ليست إلا للناجحين الأقوياء.
- وأنتِ؟!
فتقول بإغرائها الثري وعبير النعناع يفعم أنفي:
- كالدينا تمامًا.
- ما أفسالكِ؟!
- وإلا فتحت الباب لكل مُتسكع.
أقول كأنني أردد قولاً محفوظاً من نصوص طفولتي:
- ولو كنت تمورجياً؟!
تضحك بلا جدية كضحكات زمان الباردة وتقول في إصرار جاف كجدوع الكازوارينا حولنا:
- كُف عن العبث.
فأكف!

- ٣٩ -

أكمل السير وحدي غير مُنتبه لرحيل ماجي.. يحدوني الحنين الغامض نحو المرأة المثل.. وقطعة البازل في يدي لا تنطبق على ماجي التي أعشقها ولكنها لا تنتظر أن ينقذها حبي من الأحزان الوجدانية ولكن من الخوف من المستقبل.. ولا على نوران التي أعشقها وتعشقتني ولكنها تتزوج غيري وتشبخ قبل الأوان!

العتبة الثانية

تحلي رؤيتي الغائمة شيئاً فشيئاً فأجدني وجهاً لوجه مع آلام حقيقية وحزن أكيد.

وعلى مقربة مني يجلس دكتور محسن أزمان باسمًا. أتلقى ابتسامته بمزيج من حنق واشتياق لسطح مستقر بعد النية داخل الدوامات الضبابية التي أنهكتني. وأقول:

- ماذا حدث؟!!

فيُفهقه بصوت مرتفع:

- أخبرني أنت.

- هل هذه هي اللعبة؟!!

- نعم.. بعضها.

- أي ألم وعذاب؟!!

- طالما تغنينا بالماضي بينما نحن ننسى قسوة حيرتنا الممزقة أثناءه.

- لم يكن الماضي، بل كان شيئاً عجيباً.

- بل هو الماضي في أغلب الوقت.. ولكنك التقيت بمن فصل المكان بينك وبينه في زمن سابق..

فاشتبكت حياتكم بعد أن جرت في المرة الأولى بعيداً عن بعضها البعض.

- آه.. لذلك قابلت أمينة.

ترتفع ضحكته من جديد. ولكنه يتجاوز كل ذلك ويسأل في مكر:

- صف لي إحساسك نحو بيريهان.

أقول في تقزز:

- أمينة!

ثم أتساءل:

- كيف كانت تختفي بيريهان.. أو أمينة.. وتظهر؟! كيف كنت أنساها وأندمج في قصتي مع ماجي

رغم هذا الجنون؟! كأن هناك من يفتح الملفات ويطويها!

- هذه قواعد اللعبة.. أنا أتحكم في كل الخيوط وفي ذاكرتك.. وكان يجب أن تسير في كل طريق

لنهايته دون خلط بطريق آخر.

- لعبة قاسية.. لم تنته في اللحظة التي عرفت فيها بيريهان الجديدة.. أقصد القديمة؟!!

- كشف باقي اللعبة الكثير.. منها مثلاً أنك زهدت ماجي بعد لقائك بنوران!

- هاه!

- حب ماجي لم يكن أصيلاً كحبك لنوران.. كما أنك كنت تعشقها بوازع من نداءات جسدك كرجل

في الخامسة والثلاثين.

- ولكنني كنت نقياً جداً معها.

- هذه شخصيتك التي لا تتبدل بتبدل عمرك.. ولكن ذلك لا يمنع أنك كنت تعشقها بجسدك.. وحين

ظهرت نوران تنبعت لقلبك من جديد.

- أوه!

وأقول بحزن:

- لكن كلتا هما لم تكن جديرة بمشاركتي النجاح!

يخبط على الطاولة ويقول:

- المهم.. دعنا نتوقف هنا.. صف لي شعورك نحو بيريهان.

- شعور مؤلم لا أحب أن أتذكره.

يُقهقه في تشفّ فأوشك أن أسبّه. لكنني أصمت في فضول متجنبًا أن أفسد اللعبة قبل نهايتها.

ويقول:

- لقد عاينت لعبة الأيام على حقيقتها بغير أقنعة الزمان.. هل رأيت كيف أن خمسة وعشرين عامًا

تتبدى كسور شاهق يتسحيل عبوره في زمن، وتتبدى في زمن آخر كعقبة بسيطة يمكنك تجاوزها

بشيء من الملل؟!!

- هذه حقيقة.

- إذن فأنت الآن تعرف أنك لا تحب بيريهان.

أصمت طويلاً. أفكر. ثم أقول مؤجلاً قراري:

- ربما؟!!

فيتساءل في خبث كأنه فطن لحديثي الداخلي:

- ولكنها تحبك! فماذا لو التقيتها شابة جميلة؟! ترى هل نتركك؟!!

- لا أعرف.. ولكن...

- هاه؟!!

- نوران.

- نوران! ما لها؟!!

- أظنها أيقظت نغمة قديمة.

- كنغمات فائزة أحمد؟!!

- لا لا.. نغمة قديمة.

- نغمة أصلية؟!!

في خجل أقول:

- ربما.

- رغم هيامك بفائزة أحمد؟!!

- إنني لا أفهم نفسي.

وأصيح فجأة كأنني أتذكر حيرتي:

- هل قابلت فائزة في اللعبة؟!!

قهقه:

- أنت الذي حضر اللعبة.

- وأنت الذي أدارها.

- هل قابلتها؟!!

- لا أنكر.
- إذن لم تقابلها.
- ولكنها كانت حاضرة بشكل ما.
- هذا دليل على أشياء كثيرة.
- أتهرب من الحقائق، وأقول:
- هل للعبة فصول أخرى؟!.
- أنت الآن تعرف كثيرًا قل لي...
- نوران.
- نوران مرة أخرى؟! ما لها؟!.
- كانت أجمل من زمان.
- يضحك باستهانة ويقول:
- هذا لأنها تجاوزت الأربعين فتخلصت من الطيش وعرفت قيمة الاستقرار وقيمتك.. ولكني أؤكد لك أن الشخصيات كما هي لا تتغير.
- أريد فقط تتبع اللفظة التي لا تموت.
- بلا موافقة أو اعتراض، يفكر دكتور محسن أزمان بعمق. ثم يقوم إلى غرفته..

- ١ -

- أين أنا؟!.
- بل ومتى؟!.
- تلاشى الوجود.
- ثم تلقيت الكون وأشياءه ورموزه مرة أخرى كأنني أولد من جديد.
- أمتلئ بالراحة وأتحرر من كافة المتاعب.
- هكذا بغتة؟!.
- أين متاعبي؟! بل ما هي متاعبي؟!.

- ٢ -

- هأنذا في طريقي نحو البيت.
- في طريقي القديم نحو البيت.
- ما أجمل ذلك!
- أسير في الطريق مغتبطًا كأنني أتنفس حُرية وسكينة، جسدي ممتلئ بالحرارة، وعضلاتي لا تجادل أوامري، وتتأغم جسديّ/نفسيّ يكاد يحملني لأطير، رغم الطقس الربيعي العاصف، والتراب

الأصفر المؤذي وهباته الساخنة.

الطريق العتيق بيعث في الروح مباحج وأماني عزيزة.

ثم يُحيرني السرور الذي يهتز داخلي كأنني أعيش داخل ذكريات قديمة، وأعود لحصني وأهلي بعد طول أسر، رغم أنني تركت البيت منذ ١٠ ساعات لا أكثر.

ورغم السرور غير المُبرر ورغم حيرتي فيه، ترتفع سحابة من الأفكار شيئاً فشيئاً كأنني أمتلى بالمعلومات كجهاز كمبيوتر. فأتذكر أشياء ثم أشياء، ثم لا يلبث أن يغشاني بسببها شيء من الكدر أقاومه بقوة من طموح غير محدود، وأمل شبابي راسخ لا يفنى، ولا يبدو أنه سيفنى ذات يوم.

ما أقوى الشباب وأمتع أيامه! ألا يمكن أن نجد ذات يوم علاجاً لسريان الأيام؟! وأضحك بشدة وأحكّم وضع المنديل على أنفي وفمي اتقاءً للأتربة الناعمة التي تخنق الجو.

-٣-

يطالعني البيت القديم المحبوب بمصر الجديدة، في شارعنا الطويل الذي اكتسب حميمية خاصة بسبب من ضيقه الرطب، والأوراق المتربة لأشجار «الفيكس نيتيدا» على الطوار تهتز تحت صفعات الخماسين الصفراء. ويستقبلني صوت حكيم يرتفع من سماعات محل الخردوات الملاصق للبيت فيلطف قليلاً من قسوة الجو:

افرض مثلاً.. مثلاً يعني..

إني خاصمتك يوم

فأبتسم للغنوة وأنا أدلف إلى مدخل العمارة، منتوياً أن أبتاع الشريط فأهديه لنوران غداً في الكلية لأصالحها. وأبتسم وأنا أرقى السلم نحو الدور الثالث، مُتذكراً بمزيد من الحب والعطف عبوسها الذي يُمزقني شفقة عليها، وغضباً منها.. كما يغريني بالضحك على غضباتها التي لا تنتهي!

أه.. ولولا الحرام والعييب لما قاومت رغبتني الجنونية بتقبيلها!

وأتساءل وأنا أفتح باب الشقة هل أتمكن يوماً من حل المعضلة المؤلمة: أمي وأحلامي، أم نوران وجنة الحب الموعودة؟!

-٤-

وأدخل إلى الشقة، فتهزني الذكرى.

البيت التاريخي.. وماما.. وحكايات ترسخ في كياني كالعظم.

ماما تعبر الطريق من المطبخ للسفرة وهي تحمل صينية بطاطس لا أخطئ رائحتها الساخنة الشهية. وتقول في إغراء، بصوت واضح قوي، دون أن تلتفت صوب الباب الذي أغلقه خلفي في ذهول:

- غير هدومك وأدرك الصينية قبل أن تبرد!

-٥-

هي ماما.. هي ولا سبيل للشك.
ولكن ليست ماما التي عشت معها ستة وعشرين عاماً.
بل – ولا أدري كيف- هي ماما التي طالما شحذت خيالي وحُبي في صور شبابها الكثيرة التي
كانت تحتفظ بها فوق الدولاب.

ماذا يحدث؟!!

أسير في ذهول نحو السفارة لكنها تلتفت نحوي وهي تضحك وتقول في قوة وحنان:
- غير هدومك واغسل يديك أولاً.

وأحدق بها في ذهول.. من أين استعادت أمي هذه الملامح المترعة بماء الشباب؟! ما أجمل
وجنتيها المحمرتين تحت ظلال الرموش الطويلة لعينين سوداوين ترنوان إليّ في مرح يداعبني. وما
أقوى جسدها وهي تقف في قوة مستقيمة الظهر بارزة النهدين منحوتة الخصر كأنها في سني وسن
نوران! وتستدير عائدة إلى المطبخ وهي تقول:

- أعرف أنك تعشق البطاطس ولكن النظام نظام ولا تهاون فيه.

هذه صرامتها. فأتأكد أكثر أنها ماما. ولكن هذه الثياب وهذا الشباب!

وأرنو إليها قبل أن تغيب. هذه الملابس أتذكرها جيداً. الطاقم الذي كانت ترتديه في صور الأقصر
أثناء رحلة جامعية قديمة. وقت أن كانت مفعمة بالحياة قبل أن تتبدل تماماً بالحزن على فقدان أمها ثم
زوجها. البلوزة البيضاء التي ينحسر طوقها عن كتفيها البيضاوين. والميكروجيب الأسود الذي يُبرز
تفاصيل ساقها الرشيقتين.. تماماً كالصورة القديمة.

هذه تفاصيل لم أعيشها مطلقاً. فكيف أسترجعها؟! وكيف استعادت أمي؟! هل عُدت وأمي في
الزمان؟! ولو عُدنا في الزمان، فكيف أعاصر مراهقة أمي وأنا الآن شاب في الخامسة والعشرين؟!
من المفترض أن أكون في هذه اللحظة بغيب الغيب، فمن الثابت أنني لم أجد إلى الدنيا إلا بعد النقاط
صور تلك الرحلة بنحو أربعة عشر عاماً حين كانت أمي تخطو نحو الثانية والثلاثين عقب عنوسة،
ثم تأخر في الإنجاب.

فمن أين استعادت أمي كل ما مضى لتعيشه في الحاضر؟! أو كيف أعيش أنا الماضي كأنه
الحاضر أو المستقبل؟!!

-6-

على السفارة تقول ماما بابتسامة تكشف عن ثغرها المتألق:

- هاه.. ما آخر أخبار المجنونة التي تعشقها؟!!

تتفشع عن نفسي غرابية ما يحدث كأنها سحابة تتجاف لحظة عن وجه الشمس، فتعود نفسي إلى
شيء من هدوئها، وأقول ببساطة وأنا أحدج في جدل الملامح الجميلة:

- خصام كالعادة.. طلباتها لا تنتهي.. وفي أعقاب كل طلب لا أتمكن من تنفيذه «قصّة» وخصام!

- عليك أن تُصالحها يا طارق.

وأرفع نحوها عينين مملوئتين بالدهشة، ولكنها تقول بصوت حالم وإن لم يخلُ من حزمها المعتاد:

- أنه غداًك وقم فاتصل بها وصالحها.

أحاول التيقن مما أسمع، فأقول مرة أخرى:

- هي الغلطانة!

فتضحك وهي تضع الملعقة على حرف طبق الأرز وتقول:

- يا صغيري الجميل.. البنات مجانيين.. ومن جنونهن أنهن يتصورن دائماً أن الرجل الذي أحبته «سوبرمان».. فحين لا تُنفذ أمنية من أمنياتها، فهي لا تعتقد أنك لا تستطيع تنفيذها، ولكنها تجزم أنك لا تريد تنفيذها لأنها لا تعني لك شيئاً!

- هذا جنون.

تضحك وتقول في تأكيد:

- هذا هو ما قلته.. البنات مجانيين.. ولكن هل تحبها؟!!

- طبعاً.

- لأي درجة؟!!

- جداً.

- إذن تقوم وتتصل بها.

- وكرامتي؟!!

- إذا فكرت في الكرامة بهذا الشكل فالأفضل أن تعتزل النساء!

- حقاً؟!!

تضحك مرة أخرى وتقول:

- إن الرجل الذي يحب وهو يتحسس كرامته أشبه ما يكون بالملاك الذي تثور كرامته لأن خصمه

ضربه بالبوكس! لا مكان للكرامة في قصص العشق ولا حلمات الملائمة يا صغيري!

أضحك رغم شعوري بغرابة ما يصدر عن ماما، ورغبتها أن أصلح نوران.. إن ما يحدث

عجيب.. كأن أحدهم يُعيد كتابة القدر.. أو يعيد ترتيب وضع الأرض في المجموعة الشمسية..

وأدوخ من الحيرة ولكني لا أهتم.

فقط أمتلئ ببهجة بكوني وأمي قد صرنا في صف واحد إزاء موقفنا من حب نوران. ويقيني أن

جانباً عظيماً من معارك حياتي الملتهبة سيتوقف، وأنه يمكنني من الآن فصاعداً أن أستمتع بنوران

دون أن أقاوم القوة الغاشمة التي تجذبني بعيداً عنها.. قوة أُمي المحبوبة العنيدة التي صارت الآن

محايدة.. بل ومؤيدة.

ما أجمل أن يجيء الفرج بغتة بلا تدبير..

-V-

يأتيني صوت نوران في الهاتف بدلال ساخر:

- ولم تتنازل وتُصالحني بهذه السرعة؟!!

فأقول مداعباً وأنا أغرق في نشوى اشتياقي الحقيقي للصوت القديم:

- إذن أعتذر عن تسرُّعي.

- كنت تتوي أن تجعله خصاماً لأسبوع كامل كعادتك.. أليس كذلك؟!!

أضحك لأستفزها:

- بلى.
- إذن لمَ غيّرت رأيك؟!
- أهمس من أعرق أعماقي:
- أشتقت إليك.
- لا أصدقك.
- إذن فلمَ تظنينني أتصل؟!
- لا أعرف.. كفت عن محاولة فهمك منذ زمن!
- أقول بصدق مفعماً بذهول كالحلم:
- إذن فلا سبب سوى أنني وددت سماع صوتك.
- ماشي.
- ماشي! أهذه مكافأتي؟!
- ضحككتي.. تخاصمني وتحرق دمي ثم تصالحنى وتطلب مكافأة.
- ننفجر في الضحك.. فأجد لذلك لذة فردوسية عجيبة، وسكينة تنساب حتى تستقر في قاع روعي..
- وأعب من الهواء كأنما أحمي نفسي من الغرق في تلك اللحظة الأسطورية.
- يضغط على جنبي ألم خفيف أتجاهله لأنعم بكل قطرة من السرور. ويدور حوار طويل، تجيء في نهايته سيرة أمي، فأقول ببراعة كأنني أود أن أنقل لها خبر تحول أمي المدهش:
- أقسم لك إنها لا تكرهك.. على العكس هي من طلبت مني أن أتصل لأصالحك.
- وتند عنها آهة طويلة كأنها تعثر على حل لغز مُعقد، ثم تقول:
- فهمت.
- ماذا فهمت؟!
- إذن فلولاها لاستمرَّ خصامك لي أسبوعاً كما توقعت.
- أقول مبهوتاً:
- لا طبعاً.
- كل يوم أكتشف أنها من يُدير حياتنا.
- نوران من فضلك.
- لا فائدة من الكلام صدقني.
- نوران.
- فترد بحسم:
- طارق.. عندي مذاكرة.
- ونُغلق الخط وأنا أغرق في الكدر كالعادة. وأتساءل ماذا جنيت إذن حين انسحبت ماما من الميدان؟!

يوم خماسيني جديد .

وهأنذا أدلف إلى نادي الصيد كالعادة مليبًا دعوة آل نوران لقضاء يوم في النادي . يملكني سرور بأنني على وشك لقاء الأحبة، وأسير وسط دَوّامات هواء صفراء تدور بالأوراق والأكياس الفارغة، وبالرغم من ذلك أجد أفراد العائلة الكبيرة - ومعظمهم من الأطباء- مجتمعين على طاولتين في الحديقة لا في النادي الاجتماعي بلا اعتبار للجو المتقلب! وأقترب فأرى نوران تجلس فوق قدمي شخص لا أرى ملامحه خلف رأس نوران وشعرها المتطاير . أقترب في ذهول.. وبعد خطوات أعرف من الرجل.. إنه دكتور هاني! والحقيقة أنني لسبب غامض كنت أتوقع ذلك .

يتهدج صدري، وتخفني غصة عميقة وتنقلص معدتي وأنا أقترب أكثر فأكثر . وتلمحني نوران فتهب واقفة وتسير نحوي في تَوْدَة وثقة.. مشيتها وكبرياؤها المعشوقان.. ما أحبهما!

ولكني أتألم من أفكارني التي تتفجر بغتة.. ويفاجئني شعور جديد بالغيط.. لم لا تبتسم نوران حين تلقاني؟! ولم لم أَلحظ ذلك من قبل؟! إن السرور الأسطوري الذي يحف اجتماعنا هو دائماً ولید شعوري بلقائنا فقط.. وحتى كبرياؤها المحبوبة، أنا الذي منحها صفة المحبة فرأيتها من سمات حُسنها.. ولكن أراه الآن غير ذلك.. هل هذه خطوات عاشقة تسير صوب معشوقها؟! ولكن لم أكتشف ذلك الآن، فتجتاح الزوابع الخماسينية عَشَى الصافي؟!

وتلتقيني نوران على مبعده يسيرة من أهلها، وفي عينيها نظرتها القلقة المعتادة التي لا توحى بسكينة ولا أمن. وتتصافح فتبتسم أخيراً هذه الابتسامة المسحورة التي تُمكنني دائماً من ابتلاع تساؤلاتي وحيرتي وشعوري الدائم بعدم الأمان، ولكني أشير إلى الجمع وأنا أهمس:

- لماذا تجلسين على حجر دكتور هاني؟!

- وما القضية؟! دكتور هاني عمي يا طارق.

تُباغتني.. هذا غير حقيقي.. دكتور هاني صديق والدها منذ تزاملا بالجامعة طلابًا ثم أعضاء في هيئة التدريس، كما أنه مستشار لإحدى كبرى شركات بيع الأجهزة الطبية!

وتجذبني من يدي بمرح لننضم إلى الجلسة، وأنا منشغل بمحاولة تفسير ما يحدث . فأتوقف وأقول:

- نوران.. دكتور هاني عمك؟!

- ما لك يا طارق؟! طبعًا عمي.. ولكنه ليس شقيقًا لوالدي.

أجد ذلك منطقيًا بعض الشيء. فيهدأ جزعي. وأردد بلا وعي:

- ليس شقيقًا..

- نعم.. أخو بابا من الرضاعة.

فأقول كالمُنوم:

- هذه حقيقة مذهلة.

- وما الداعي للذهول أو الدهشة؟! إنك لم تره سوى مرة واحدة!

مرة واحدة! تدور بي الدنيا كدَوّامات التراب.. تَبًا للذاكرة المراوغة.. مرة واحدة! إن عاصفة من التراب تحول بيني وبين ذكريات محفورة في الذاكرة.. أتق أنها هنا خلف تلك الغلالة الترابية التي لا تتقشع.

مرة واحدة! إنه سبب عذابات عُمر طويل.. ولكنني أعجز عن العثور على السبب أو الدليل بسبب من قصور الذاكرة الخائنة.

وتردف نوران بدهشة وقلق:

- هل قابلته قبل تلك المرة التي صادفنا فيها في الطريقة بالكلية؟! - لا.

- هذا صحيح.. فطوال دراستنا كان عمو هاني في الجزائر ولم يعد إلا هذا العام. هذا قول مذهل آخر.. فالمؤكد أن دكتور هاني درسني الهيستولوجي في الفرقة الرابعة.. ولكني أعجز عن التيقن.. لماذا تتقلب الحياة؟! أمي ونوران ودكتور هاني.. كل يفاجئني بهيئة وحكايا أبعد مما يخطر بخيالي أو بعقلي.. كأن أحدهم يحل حياتي أو يعيد ترتيب كواكب المجموعة الشمسية. تتقبض روحي قليلاً، وأشعر بوخز ألم هائل، فأتأوه من أعماقي. ويدهشني أن نوران لا تلاحظ ذلك.. بل تنتسح ابتسامتها الساحرة حتى تغطي على كل ما حولنا. ثم لا تلبث ألامي أن تنفرج عن هدوء وسكينة مفاجئتين.. أطيّر داخل سحبات بيض يزيد لها طيف ابتسامة نوران ألقاً.. وأشعر بالراحة تسير بأعضائي من جديد وأتيقن من حבורي الخالص أن تحررت من كابوس كحجر ثقيل اسمه دكتور هاني وعلاقته بنوران، دون أن أتذكر شيئاً حقيقياً عن أصل هذا الكابوس المستتر خلف غلالات التراب التي تستفز عقلي..

-٩-

وسط هبة ترابية جديدة ووسط الجو المصفر أقف أمام قرص الشمس القائظ، ونوران تحاول أن تنظر نحوي فتحجب براحتها الرقيقة الشمس وذرات الرمل التي تهيج عينيها. ويفاجئني أننا في الكلية لا في النادي! في الساحة التي شهدت الحدث العظيم، تقول نوران:

- إذن ما هو قرارك؟! -

هذه لحظة تاريخية فارقة! أقاوم شعوراً متمكناً من أنني أحضر إعادة حديثة لمشهد قديم.. ويتمواج المشهد ونوران أمام ناظري كأبخرة دخان بفعل ذهولي. وهاهي ذي فرصة نادرة تلوح فرمبا يمكنني الإمساك بكل ما ضاع ذات يوم. لا تضع الفرصة من جديد. وأقول بترقب لأختبر حقيقة ما يحدث وتأثير قلبي وتوابعه على حياتي الجديدة:

- أنا موافق.

- ستعمل مع دكتور هاني في الشركة؟! -
وتدمع عينا نوران.. فأبتهج لحظة.. ثم أتشكك.. فلا أدري أمن الفرحة تدمع عيناها أم بفعل ذرات الرمل!

-١٠-

في عمارات العبور بصلاح سالم أصعد بصحبة نوران لمكتب دكتور هاني في الشركة الكبيرة التي تحتل دوراً كاملاً في العمارة. نوران تتألق بالسرور كأجمل ما تمنيت أن أراها دائماً. تفيض بالحماس ولا تكف عن الكلام عما ينتظرنا من آمال ونجاح طوال طريقنا في الطريقة الطويلة من الأسانسير حتى باب الشركة. ويمنح الابتهاج مشيتها نعمة كأنها الرقص. ويرقص قلبي سروراً رغم الهاجس الباطني الذي لا يكف عن التساؤل كيف يجري كل ذلك؟! ولم أشعر أنني أشاهد مشاهد

من زمان سحيق رغم أنه يحدث الآن؟!!

- ١١ -

أنا وماما على الكنبه في الصالة أمام التلفزيون وبين أيدينا أكواب شاي لا أشعر بدفئتها. أمي أكثر نضجًا واتزانًا. كأنها كبرت عشرين عامًا في يوم. هذه الهيئة الثلاثينية المتأخرة طالما احتوتني بينما أنا في أول سنوات الطفولة، وهذه الملامح لا أذكرها إلا كحلم من منظور سفلي، إذ أتطلع ناظرًا إليها كلما رفعت رأسي المستريح فوق صدرها الحنون بين الحين والحين لأتمتع برويتها كما أتمتع بصوتها الحنون وهي تحكي حكايات لا نهاية لها عن ذاتها وعن أبي وعن العالم.

هل مات بابا؟! إنني لا أراه، ولا يرد اسمه أو ذكره في أحاديثنا، ولكنه يقينًا لم يموت، وإلا لأظلم هذا البيت الزاهر المفعم بالشباب والحياة كما كان مظلماً دومًا. ولكن متى أظلم؟! هل كنت أعيش ذلك أم أنني أتنبأ؟! وأرنو إلى أمي المنطلقة فأتساءل في حنق كيف لم أنتبه طيلة عمري للتناقض الصارخ بين صورها في الألبومات وفي ذاكرة طفولتي، وصورتها الحزينة البائسة قاسية القلب؟! كيف لم أفسر ذلك؟!!

وتهبُّ من الشباك نسمة مُحملة بشذا أزهار البرتقال من حديقة فيلاً مجاورة، فأقول:

- هذه الرائحة المُبهجة من حسنات الربيع القليلة.

فترد أمي وهي مُتعلقة العينين بالتلفزيون:

- ومع ذلك فلن تذوق ثمارها إلا بعد الخريف.

وترشف رشفة من الشاي وترمقني بعين ثاقبة رغم حنانها، وتسالني:

- كيف الأحوال؟!!

فأقول بصدق:

- كُله جميل.

- يُعجبك العمل في الشركة؟!!

فأقول بتوجس وأنا أراقب انفعالاتها:

- هو أمتع من عملي بالمستشفى.

- جميل.. والراتب؟!!

- لا مقارنة.

- هذا هو الأهم.

ثم تعتدل وهي تضع فخذها على الكنبه لتواجهني:

- عليك أن تبني مستقبلك في العشرينيات.. تبني الـ career الخاص بك وتُدخر ما يمكن من مال.. ولا سبيل لذلك إلا أن تعمل ما تحب وأن تعمل من أجل من تحب.. تحرر من كل ما يعوقك عن بلوغ أمالك.. ولتبتهج بالشباب ولتحسن استغلاله فإنه لا يعود.

ثم تغمز وهي تضحك، فأضحك في ذهول، وأحدق بها غير مصدق، لكنها للعجب تبرق بابتسامة رضا، فأقول بقلبي مُتحمسًا أقوالي:

- ربما أتقدم للمستشفى بطلب إجازة بدون مرتب حتى أتمكن من التركيز في الشركة.

لا تهتز ابتسامتها، بل تقول بدفء:
- ربنا يصلح حالك.. أنت عاقل وأنا واثقة في حُسن تدبيرك.
- مبسوطة؟!
- جدًّا.. ولم لا؟!!

أرنو إليها طويلاً وأنا أتأرجح داخل أحاسيسي المبهمة التي تتخطفني كل حين متسائلةً عن معنى ما يحدث، وأوشك، بدافع من شعور ابن صغير حائر، أن أسألها عن كنه ما يحدث لعلِّي أجد عندها تفسيرًا، ولكني أمتنع عن ذلك مخافة أن يتهاوى هذا الواقع السعيد الذي لا يخطر إلا بالأحلام. ثم أقول في سعادة وثقة:

- لا شيء.
وتقول من داخل ابتسامتها الجميلة:
- ونوران؟!
- لم يسبق لي رؤيتها سعيدة هكذا.
- الحمد لله.

وصمتت. فخمّنت أن ثمة ما يجب أن يُقال.. عني وعن نوران كالعادة.. ولكنها أولتني عارض وجهها الجميل وهي تتابع المسلسل التلفزيوني كأنها لا تملك مزيدًا من التوجيهات أو التحذيرات. ولكني أهمس بتحريض شوق غامض:
- ماما.

فتلقت نحوي، وأنا أوشك أن أدوب من الوجد بفعل حنيني إلى تلك الملامح، وبفعل سروري بالعثور عليها مجددًا. ولما طال صمتي، شعّت عيناها بدفء نادر طالما اشتقت إليه. ويغلبني نُعاس مفاجئ أحاول مقاومته لأشبع من اللحظة. ولكني أرى انسحابها بعد أن سحبت فوقني كوفرتة بينما أنا أنعس على الكنبه. وأهمّ بأن أناديها ولكني أستسلم راضيًا للنوم الذي لا يُقاوم..

- ١٢ -

يخترقني ألم عظيم يمزق جنبي وأشعر من خلف سُحب النعاس المتكاثفة بأيدٍ كثيرة تحاول أن تعدل وضعي على الكنبه. ورغم الألم الذي لا يُطاق لا أستيقظ.. وأقبض على يد أمي ولكنها تطل عليّ بهيئة أخرى غير منكرة لامرأة ذات شعر أسود ينساب حتى خصرها محيطًا وجهها الأبيض وعينيها الخرزيتين..

- ١٣ -

خلال اجتماع للمبيعات بالشركة يأتيني استدعاء لمكتب دكتور هاني. أغادر غرفة الاجتماعات وأدلف إلى مكتبه، فأجد نوران في حضنه بينما يتحسس ظهرها في حنان وهي تضحك.
أشعر براحة عجيبة! ويتملكني إحساس مؤكد أنني أراقب باطمئنان مشهدًا قاتلاً من خلف زجاج مقاوم للرصاص.. أو كأنني كنت أرى كل ذلك قبل دخولي للغرفة.. ويتردد نفسي هادئًا: لا ضير إذ إنه عمها.. بل فوق ذلك أشعر الآن أنني واحد من العائلة؛ وبالتالي فإنني فرد مميز بالشركة!

ويُشير لي دكتور هاني بالجلوس، فتنتبه نوران لدخولي وهي تبتعد عن حضنه، وتتلاقى أعيننا فيسعدني أن أرى تلك النظرة الصافية البريئة التي تكنس رواسب سوداء قديمة أشعر بها ولا أتذكرها. وتقبل فتصافحني ونجلس متقابلين أمام مكتب الرجل. ويسألني عن أحوالي، فأقول:
- الحمد لله.

والمح بطرف عيني نوران تُراقب ردي بتركيز، ثم يفتّر ثغرها عن ابتسامة راضية. هذه الابتسامات الراضية، شحيحة وعزيزة، لا تُصدّر عن نوران إلا مرة كل عام.. ورغم حُبنا العريض الذي لا شك فيه فإن عقلها لا يتوقف عن حساب الفائدة والضرر بمنطق وحيد.. هو الثروة والمال. وأتساءل بشكل مُباغت: كيف بدأت قصة حبي مع نوران؟! وكيف تمسكتُ بها إلى هذا الحد؟! ويتحدث الرجل إليّ بحديث يبدو هاماً، ولكني أتوه وراء مفاجأة لمعت كنيزك فسحبتي خلفها، إننا بمكتب دكتور هاني في الكلية لا في الشركة.. ويخبط الرجل على مكتبه بالقلم فالتفت إليه، فيضحك ويُكمل حوارًا لا أسمعه أيضًا رغم تركيزي..

-١٤-

أسير بجوار نوران فوق كوبري الجامعة ونسمات نيلية منعشة تُداعبنا رغم حرارتها.. وهفيف من ذكريات أثيرة تعز على النسيان تهب على قلبي.. ويعبث النسيم الرقيق بطرف القميص فيكشف بين لحظة وأخرى عن بطنها الأبيض المشدود، وعن الحزام الذي يحتضن المفاتن الثرية، فأغبطه.. أشتل.. ورغم العشق لا تتلامس حتى أصابنا.. كم أتوق إلى احتضان راحتها وإلى تذوق شفثيها المحبوبتين، وإلى معرفة ما يختبئ تحت القميص من كنوز يجب أن تصير ملكي.. لولا ميراث أصيل من العادات والتربية الصارمة قامت عليه أُمي بإصرار وبلا توانٍ، ثم دأبت بهيرة بعد ذلك على حراسته كحارس أمين، أما أنا فقد تقبلته بروحي وقلبي وعقلي.

وأسألها عن درجة الشفوي ورأي دكتور وفاء، فتقول:

- طظ فيها.

وتضحك وأنا أراقبها بدهشة، فتُردف بلا اهتمام:

- لا يهمني رأيها.. ولا درجتها.. يكفي أنني أعرف تميزي الفريد في المادة، وبذلك يشهد الجميع كما تشهد الغيرة الظاهرة دومًا في أعين الحيزبونات في السكاشن.. وذات يوم سأكون مكان وفاء هذه وسأدرّس المادة بأسلوب أروع وأفضل.

ويمس حديثها قلبي لسبب غامض كأنني أستعيد حديثًا سابقًا مع مراهقة مجهولة فأغرق في الشجن..

-١٥-

نجلس في هناء بينما النيل يجري تحت أقدامنا بمكاننا المعتاد في الكازينو.

ما أعذب ملامحك يا نوران!

أنتِ نموذج الحُسن الأصلي والمفضل رغم كثرة ما رأيت.

عيناك العسليتان.. شعرك البني الذي يلمع كلما سال فوّه شعاع الشمس.. شفثاك الورديتان..

وجسدك الجميل الذي لم أتمكن من رؤيته إلا بعين التقديس رغم احتراقي.
أنتِ الجمال كله.. لو كنتِ كنسمة الخريف الهادئة.. ولو منحتني عينك شيئاً لا أعرفه.. ولكنه
ينقصني بشدة.

هل التقينا مؤخرًا يا نوران؟! أين ومتى؟! لا أتذكر.. ولكني أوقن أنكِ كنتِ معي ولو بغير
صورتكِ وهينتكِ هذه! كنتِ معي قريباً، بلا جدال، خلال عاصفة غامضة مزقتني بعنف.. هل خُصنا
معاً معركة مع العقل والضمير والعمر وما يصح وما لا يصح؟!
تَبّاً للذاكرة المائعة.

وهل تعذبنا قبل ذلك بفراق وحزن ودموع؟! أين ومتى؟!
وأعصر ذاكرتي، ولكنها لا تمنّ عليّ بلمحة واحدة من أحداث العاصفة المجهولة، ولا الفراق
الذي يؤلمني ولا أتذكره.. ولكن أي شيء يمكنه أن يبرر شعوري الجارف بالحنين لنوران كأننا
نتلاقى بعد دهور؟!!

وتتكلم نوران فأنتبه، ولكني أقول مقاطعاً:

- بهذه الطريقة ربما نعلن خطبتنا بعد شهر.

وتؤمض عيناها بنظرة أكثر التماعاً من الصيف:

- لا تتصور سعادتي!

فأقول بشوق:

- ولا سعادتي!

ولكنها تتبدي بغتة في وجه آخر حزين تجلى ذات يوم في مناسبة بغیضة، وجه أتذكره جيداً إذ لا
يغيب مطلقاً عن ذاكرتي وإن غابت المناسبة ذاتها، ثم تهمس كالباكية:

- طالما تصورت أنك ستبيني بسهولة.

ويتردد الصوت مرعباً كأنما يجيئني من بئر سحيقة، وأتخيل أشخاصاً وأحداثاً تتحرك خلف
الغلالة الترايبية التي لا يمكنني اختراقها، وأجز على أسناني محاولاً أن أكتشف ماذا يدور خلف
الستار في الذاكرة المراوغة، وأفضل، فأهمس بدوري ذاهلاً راجياً أن تُرشدني هي إلى السر:

- ولم أبيعك؟!!

- تملك من الأسباب ما لا يُحصى.

- حقاً؟!!

- أمك.. تحفظك على حرיתי.. جفولك أمام طموحاتي.. غروري وكبريائي.. رغبتك أن أنعم عليك
بنظرة انبهار وابتسامة رضا.. وأخيراً تعلقك المرَضِيّ بعملك ورغبتك أن تكون طبيباً رغم تفاهة
دوافعك.

كأنها تقرأ من عقلي، فأقول بفرع:

- كيف تعرفين كل ذلك؟!!

فلا تجيب، بينما ألمح ترقُّق الدمع في عينيها اللتين هربنا إلى مجرى النيل الداكن أسفل سحابة
تعبير فوق عين الشمس. وأعود فأهمس بصدق:

- ولكني أحبك يا نوران.

- حبي في كفة وباقي الأسباب في كفة.

- ولكن حبك أكبر من كل ذلك .
- لا تنسَ أيضًا شكوكك تجاه دكتور هاني.. لو أحببتني ما انجرفت لقاع الشك!
- أي شكوك؟!
ترمقتي صامتة بتحدِّ، فأقول برجاء:
- أليس هو عمك؟!
تضحك بقسوة وهي تقترب مني بعينيها الدامعتين:
- جميل أن تتناسى ذلك الحادث المرعب بالمكتب.
يخترقني سيخ حديدي محموم، وتدور بي الدنيا، وأصرخ تحت وطأة ألم مُباغت لا يُحتمل. ثم
ينقشع كل ذلك فيُسفر عن فراغ أبيض وراحة صامتة مرة أخرى..

-١٦-

أجلس بانتظار دكتور هاني، ثم أنتبه بدعوة من المجهول إلى فتاة براقعة تُسلم أوراقًا لسكرتيرة
مكتبه. يخفق قلبي بعمق.. وينبئني الحدس أنني بانتظار حدث ما.. وتلتفت الفتاة فأدوخ.. ثم تنداح
موجة من الذهول حتى أوشك أن أغيب عن الوعي.
وأراقبها وهي تُقبل باتجاهي، ثم تجلس بالقرب مني على الطرف الآخر من الكنبه الوحيدة
بالمكان.
أرتجف وأنا أصطدم بملامحها، ثم أسقط في مجالها الجاذب.
هذه ذكرى قديمة أخرى!
ولكن أين؟! ومتى?!
ومرة أخرى ألمح تحرك الأشخاص الغامضين خلف غلالة التراب.. رجل وفتاة عاشقان في
مكتب.. في كافيته.. في سيارة.. وأشهق وأنا من الغيظ في نهاية.
أم تكون ارتجافتي لجمالها؟! جميلة جدًا.. ولكن ما معنى ذلك؟! فنوران - حبيبتني - جميلة جدًا
أيضًا.
ولكن مهلاً.

الحق أنها تشبه نوران بشكل ما، وهي غالبًا في الخامسة والعشرين أيضًا، ولها ذات البشرة
البيضاء الناعمة، والملامح العذبة التي لا تخلو من إغراء، ولها ذات الجسد المثير باستثناء تلك
المؤخرة الشامخة التي لا تملكها نوران.. كما أن ملابسها جريئة إلى الحد الذي يُشعرنني بالضيق
الذي يشبه الغيرة!

إذن يستحيل أن تكون ارتجافتي بسبب من الحُسن وحده.. هذا بالإضافة لإخلاصي الصادق
لنوران.. فلم أرتجف؟! ولم أتصور ماضيًا لم يكن؟! ولم أشعر بالضيق الذي يُشبه الغيرة؟! الضيق
الذي لا يصيبنا إلا حين نلتقي لأول مرة بمن سيصير ذات يوم حبنا الكبير!
ورغم ذلك.. لا أتوقف عن التحديق بشوق وحنين جارفين في زوايا الوجه الباهر.. وينتابني من
الشوق المجهول ما انتابني عند رؤية ملامح ماما ونوران.. ولكن هذه الملامح ليست كملامح ماما
ونوران التي انحرفت في وجداني كذكرى من الحاضر الذي تحول شعوري به بين ليلة وضحاها

كأنه ماضٍ بعيدٍ أشتاق إليه.. هذه الملامح جديدة تمامًا.. وقديمة تمامًا.. فكيف؟! كأنها الماضي والمستقبل!

ورغم الحبور الذي أنعم به وجودها بالقرب مني، لا أتوقف عن التفكير: لم يكون هذا الوجد العميق؟! وهذه الغيرة؟! هل هو حقًا الحب من أول نظرة؟! وهل تكون الفتاة نصيبي ذات يوم، لذلك يناديها قلبي بهذه الطريقة؟! إذن فقد صرت وليًّا يقرأ الغيب يا دكتور طارق!

ولكن هل تحل إحداهن محل نوران يومًا؟! هذا مُحال.

وتقوم السكرتيرة وهي تقول:

- تفضلي يا دكتورة بيريهان.

حتى الاسم أعرفه.. والله أعرفه.

وتقودها السكرتيرة إلى داخل المكتب، فأتابع انصرافها بقلب يتمزق، وأتساءل كيف يمكنني ألا أفقد الخيوط التي توصلني بها مرة أخرى؟!!

-١٧-

أجالس نوران ولكني مشوّش. تُطالعني كل حين بهيئة البنت الجميلة بيريهان وتختلط ملامحهما. ويعصرني ضميري لومًا ولكنها لا تتصرف عن بالي إلا قليلًا.. وأكتشف أنهما تملكان الكثير من القسمات والتقاطيع المتشابهة.. الشباب والجمال والطموح.. وهيامي بهن!

وأجالس أمي وتسالني كالعادة عن عملي وعن نوران فأزداد شعورًا بتأنيب الضمير.. ولا أجد سببًا يُبرر انجذابي المجهول لبيريهان رغم إخلاصي.. ولا أجد أيضًا سببًا قويًّا يقنعني بالانسحاب!

وأثناء عبوري للطريق، يستوقفني نداء، وأنظر فإذا بهيرة تُشير بأصابعها محذرة من داخل سيارتها، وأهم بأن أسألها لم تحذرنني؟! أو كيف عرفت؟! ولكنها تطير.. وأفهم أن عملية ولادة مستعجلة بانتظارها..

-١٨-

بينما أتهيأ للارتباط الرسمي بنوران المعشوقة، بعد انتهاء الأسباب التي حرمتني منها طويلاً، أتلقى أنباءً سعيدة بانضمام الفتاة الجميلة للشركة.

ورغم العشق والإخلاص فإنني أتلقى ذلك النبأ بابتهاج، وأعد وجود بيريهان في هذه اللحظة من حياتي زيادة في السعادة لا ضرر منها.

وتستقر بيريهان كحبة كرز مُثيرة فوق تورتة شهية بالأصل.. ويسكن ضميري قليلاً وهو يرى أن الأمر لا يُنذر بخطر ما دمت أحب نوران، كما أنه خارج عن السيطرة!

وفي الليل أبتسم مننشياً لذكرى ابتسامته من بيريهان علقته بذاكرتي وقلبي فأتساءل بصدق: إذن لم تكن نوران وحبها شيئاً أسطورياً كما توهمت يومًا! ولم تكن متوغلة في قلبي إلى الحد الذي ظننته دائماً؟!!

ويعذبني ذلك وأتهرب من الاعتراف به..

-١٩-

تهب الزعايبب مرة أخرى بلا سبب من وجهة نظري. وتقول نوران:

- ألا تقف في صفي مرة واحدة؟! -

فأهدر غاضباً رغم عدم معرفتي بسبب الجدل الساخن:

- إنك لا تعترفين بخطأك أبداً، هذه هي المأساة!

وتحدجني بياس وتقول:

- طارق.. لقد مللت كل ذلك.

وأقول بتحدٍ وقوة، وأنا أضع حبنا فوق قمة المنحدر على خلاف العادة:

- وما يعني ذلك؟! -

ولكنها تمسك كالعادة عن الاندفاع لأبعد من ذلك، وتنتظر أن أراجع ولكنني أرحل فوراً..

وفي الطريق يربت على قلبي طيف بيريهان..

-٢٠-

أجلس مهموماً على السفرة أتناول العشاء في صمت. وتراقبني ماما وهي تلوي بوزها في لوم.

وتضع أمامي طبق السلطة وهي تقول بحزم:

- كل جيداً.

وأنتظر أن تفتح معي نقاشاً حول نوران وأن تطلب مني أن أصالحها فأجد مسكناً لكرامتي، ولكنها

تبدو حزينة غارقة في ذاتها. وأختلس منها نظرات عجلي، فتهاوني تلك التجاعيد التي تحق بعينيها

وشفتيها. يتلوى الرعب ببطني، هاهو ذا الكابوس من جديد، وهاهي ذي أمي العجوز والذكريات

السود. ويدق قلبي مُنذراً بانطفاء الأيام الحلوة فجأة كما اشتعلت شموعها فجأة.

وأناديها، فتتظر نحوي في وهن كأنها تعجز عن انتزاع ابتسامه.

وأحاول أن أشبع من ملامحها من جديد، رغم الإحباط الذي أخذ في الانتشار في دمي..

-٢١-

لم يعد من النادر أن أهرب من حنقي على نوران وآلامي في حبها، بالولوج إلى لمحات بيريهان

التي تضيء بغتة بين الحين والحين في الذاكرة العجيبة، ثم يعصف بي على إثرها خاطر معذب وأنا

أتفكر في غيرتي اللارادية عليها! فقلبي يتساءل كأنه صاحب حق: ترى أين هي الآن؟! وهل تعود

للبيت في وقت مناسب؟! وألا يدفع تحررها شاباً وقحاً للتجروء عليها؟! وهل ترتدي الليلة ملابس

مناسبة؟! -

ولكن متى ارتدت بيريهان ملابس مناسبة؟! -

وأقول في نفسي: ألا يزورنا الحب إلا بصحبة الآلام؟! -

-٢٢-

تمر من أمام مجلسنا بالكلية سيارة جديدة، أرى بها زملائنا دكتور سامر وإلى جواره صديقه ميساء. يدهشني جمال السيارة، وألتقت لأجد نوران ترابطهما وهي تشتعل من الغيظ، أدرك سبب غضبها بلا عناء. ولكنني أتعهد أن أسألها كأني أضعها دفعا للغلط! وتنظر نحوي صامتة وهي تقف، ثم تقول:

- يجب أن أروح.

ولكنني مدفوعا باستهتار وشجاعة لم أتمتع بهما يوما تجاه علاقتنا، أعيد سؤالي ببرود:

- ما لك؟!!

أن لكرامتي أن تنتصر.. رغم العشق ورغم قدرتي التي لا تتفد على الصبر عليها.. أن لي أن أجبرها على احترام حينا، لا أن يصير دائما محل اختبار، وأن يكون رهنا بنجاحي العملي والمادي الذي سوف يضمن لنا ما تسميه حياة كريمة.

ومع صبري وتسامحي وعشقي، فإنني أيضا قوي، لا ألين، ولي نوبات مباحة من عناد تهابه رغم كل شيء.. عناد يجبرها دائما على التراجع عن الاستمرار في النزاع حتى لا نصل للانفصال.. ولكن الحقيقة أن الاستمرار في العلاقة لم يعد هو ما أطمح إليه.. بل ستصير رغبتى الدائمة من الآن أن أرى في عينيها استسلاما عميقا غير مشروط!

هذه النظرة التي أفنيت عمري بحثا عنها.. هي وحدها الحب! وبدونها ما أزهدي في حبك يا نوران.

وهنقت نوران رافضة أن تعلن أنها تحزن لأننا لا نملك مثل تلك السيارة التي يملكها سامر:

- لا شيء يا طارق.. أرجوك دعني أرحل.

ولكنني بقيت جامدا.. أما قلبي الخائن فجعل يبذل عينيها الصارمتين بعيني بيريهان الهادئتين.. فأرى ما كان يمكن أن أكون عليه من الهناء لو تخلت نوران عن طموحها المؤذي.

وتبكي بغتة، فيرق قلبي لحظة.. ولكنني أكتشف أسفا أنني لم أعد أصدق هذه الدموع.

وفي طريقي للبيت، وبينما الحزن يحتدم بفؤادي، تُداعبني صورة لبيريهان ونحن نتحدث لأول مرة أثناء راحة بين محاضرات التدريب بالشركة أمس، ويغزوني يقين جازم أنني رأيت بعينيها النظرة المرجوة، وأنها كانت ترنو إليّ بافتخار وإعجاب واستسلام إلا أنني أعجز عن تذكر متى حدث ذلك بالضبط؟! وكيف يحدث ونحن نتعرف أمام طاولة الكوفي بريك بالمكتب لأول مرة؟! هذا غير معقول على الإطلاق لكنه حدث!

ورغم كل شيء يصدق قلبي بالغناء..

- ٢٣ -

أجلس أمام دكتور أشرف والد نوران.. وينخزني شعور مؤلم بأنني أتعذب.. الرجل يجلس على كرسي عالٍ فإذا تحدثت إليه رفعت رقبتى فتؤلمني كما تؤلمني كرامتي التي ترفض هذا الشعور بالضالة، فأرزع تحت وطأة الجلسة كأنها كابوس.. وتحتي كرسي صلب رغم هيئته المخملية الوثيرة.. وتستقزني ذرات من الرمل تختلط بعرق الغزير فتحز رقبتى تحت ياقة القميص المقفولة بفعل الكرافة الضيقة.. وتتلوى أصابع قدمي من الألم والعرق وأتساءل كيف نسيت أن أرندي

- جوربًا! وأندم على مجيئي بلا استعداد وتأنً.
- ويفاجئني الرجل بقوله:
- يجب أن تكتب باسم نوران سيارة مرسيدس.
- ويشخص بصري ذاهلاً وأنا أقول للرجل الذي تركني وقام:
- عندي شقة في مصر الجديدة.
- ولكنه لا يسمعني.. وأزفر من الحر والألم.. وعن يميني أرى نوران تجلس في صمت.. تغزوني راحة طارئة.. وأسر إليها بمتاعبي.. ولكنها تقول بحنان:
- ترى هل يعجز دكتور هاني عن طلب تافه كهذا؟! وأصرخ بملء آلامي:
- هل جُنتم؟! ما لي ودكتور هاني؟! ولكنها تقترب مني وتربت على شعري وهي تقول:
- طارق.. يستحق حبنا العظيم منك تضحيات أكبر.
- كما يستحق منك تنازلات أكبر.
- لا تنازل عن العيش الكريم.
- والحب؟! موجود.. وكبير.. وسيكون تحفة بيتنا الجميل.
- لا أريد أن يكون الحب تحفة بيتنا.. بل أريده أن يكون بيتنا.
- هأنثدا تغرق في أحلامك القديمة مرة أخرى.
- كانت أحلامنا.
- حقاً؟! لم يكن بيننا أحلام مشتركة سوى الزواج والعيش الكريم.
- وأشخص ببصري محاولاً التثبت من شخصيتها، وأقول بغضب ويأس مختنقاً بالعرق وذرات الرمل على رقبتني وبين أصابع قدمي:
- ماما قالت ذلك.. فكيف عرفت؟! ولكنها لا تسمعني.
- وأجلس أمام نوران في النادي، ممتعاً من انقلاب وجهها كالطبيعة المغبرة من حولنا. وأقول محاولاً اكتشاف سبب غضبها وسبب رغبتها في تأجيل إعلان خطوبتنا:
- لا أفهم سبباً لقلقك.. معنا من المال ما يكفي كما أن دخلي بالمستشفى سيزيد ولا شك.
- أولاً.. لا تقل معنا من المال.. بل قل مع مامتك.. فالمال مالها.
- مالها هو مالي.
- لا يا طارق.. لن أعيش حياتي أتسول من امرأة تكرهني.
- نوران.. هي ماما فلا تمسيها بسوء.
- وأنا؟! حبيبتني.
- أرني أمارة على ذلك.

ولسبب ما لا أستشهد بتركي للطب وعملي بالشركة، وكأن ذلك لم يحدث.
ونصمت، بينما الرياح حولنا لا تتوقف عن الصفير وكنس الطرقات.
وملأ يتنامى بداخلي كالليل الزاحف، وضجر يستولي على كل آمالي..

-٢٤-

وبيريهان!
عذبة كأنها مقدم الخريف وصفائه.
ومتغلغلة بداخلي كأنها عصارة أشخاص كثيرين سكنوني عمراً طويلاً.
وحضورها المغناطيسي كل صباح يحتويني ويعبئني بالسعادة كأنها الفرج الذي يجيء بعد الصبر.
وتلتمع عيناها الذكيتان إذا تبسمت فتضيء وتكشف لقطات مشوشة من مشاهد أرى فيها عظمتي
وشموخي عكس تيهي وضالتي الحالية.. فأتساءل متى تلقيت منها نظرة الانبهار والاستسلام؟!
ويعذبني ذلك الشعور المؤذي بالحيرة وبأنني لا أملك ماضياً رغم ازدحام قلبي بأطياف كثيرة
غامضة.

وترفع عينيها، فتلتقي بعيني السارحتين، فتضحك بمكر مُغرٍ. ثم تنبهنى بغمزة لمتابعة الاجتماع
وهي تشير في خفاء إلى الشاشة التي يقف أمامها مُشرف المبيعات مُراجِعاً ملحوظاته عن أدائنا
وعن فرص السوق.
فأبتسم في خجل.
وأذوب أكثر..

-٢٥-

صباح مساء لا شيء سوى بيريهان.
أحبها.
هكذا بلا مقدمات ولا زمن كافٍ.
أحبها بصدق.
بل أحبها رغماً عن إرادتي.
وأراقب أعين الزملاء بالشركة فأعرف أنني لست وحدي.. فكيف يمكن أن تختارني وحدي؟!
هذه أمنيات بعيدة بعيدة.
ولكن هل يمنعني ذلك من حبها؟!!

صباح مساء أتلقط المعلومات التي تدور حولها، فأعرف أنها من أسرة ثرية، وأنها خريجة
صيدلة، لذلك فهي تتفوق عليّ بالثراء والمكانة الاجتماعية وبأعوام من الخبرة العملية.. كما رأيتها
تهبط صباحاً من سيارة فخيمة عرفت أنها سيارتها.
وأجتز مرارة لقائي بوالد نوران العالقة بالحلق.. فأتساءل هل سأعيد تجربتي المؤلمة؟! ما أسخف
الحب الذي يختارنا قبل أن نملك مقومات مقتعة لهذا الحب! وما أبغض ما يضعنا فيه من تجارب

محرجة وهذا الشعور بالضالة كأنه لا يختارنا إلا ليتلذذ بتعذيبنا!

ولكنني أحبها وأندفع في شعوري بلا تفكر.

ثم أتفكر في غيرتي عليها.

ويمتعص قلبي إذ أشعر بأنني لا أزال بعيداً عنها للغاية.. بعيداً إلى درجة أنني لا شيء بالنسبة إليها.. ولا شيء لأغار عليها.

وأتساءل: هل يمكن أن أتسامح مع ملابسها الضيقة؟!!

ولكن الحق أنني لا أرى ملابسها ولا جسدها المترع بالفتن مطلقاً، إلا إذا اشتعلت غيرتي أو رأيت أعين المتلصصين إلى جسدها البض.. فأفور بالغضب والغيرة وأنتبه إلى ثراء فنتتها.. أما قلبي فلا يرى إلا حُسنها البريء وما يعد به قربها من هناء إذا صرنا حبيبين.. تماماً كما حدث مع نوران.

وما أعظم هنائي لو صرت وبيريهان حبيبين، فيمكنني أن أحوز تلك النظرات الرقيقة وهذا الحُسن الأثير وحدي.. وأن أنعم تحت نورها بعشق سماوي.

وأتحين الفرصة بعد الفرصة.. أساعدها وأرشددها، بل وأقوم عنها ببعض الأعمال رغم خبرتها التي تفوقني بعامين على الأقل.. ولكنني أقرب أكثر فأكثر.

ولا شيء يُشجعني على المضيّ سوى الدافع الغامض.. وبسمة رقيقة صرت ألتقاها من فوق شفاهها كلما التقينا فأشعر بها تهمس: سأحبك حتماً.. أنتِ الأقرب.. وطوبى للصابرين.

وفي طريقي للبيت كل يوم أشعر بأنني بحاجة لمعرفة ماهي الغنوة التي تتاسب حضور بيريهان وتوغلها في حياتي.

وأتساءل متى توقفت عن السماع حتى إنني لا أتذكر أغنية بهيجة؟!!

لن الله الملل والضجر.. والحب المغشوش!

-٢٦-

يخترق جنبي سيخٌ حديدي، يترك آلاماً ملهبة على طول طريقه إلى رئتَيّ.. وأصرخ بملء وجعي:
يا فائزة.

وأتساءل: مَنْ هي فائزة؟!!

ثم ينتشر الهدوء كسماء سبتمبر الصافية.. ولكن موجة دافئة من عشق وحنين غامضين تسري فتملاً ما نشأ في روعي من تقوب.. وأتساءل مرة أخرى: مَنْ هي فائزة؟!!

ويدفعني الشعور الغامض دفعا فأمسك بالتليفون لأجرب الاتصال ببيريهان لأول مرة.. وأميل برقبتي لأمسك بسماعة التليفون فوق كتفي ريثما أخرج رقمها.

ولكنني لا أستطيع مقاومة النعاس الذي يداهمني بغتة..

-٢٧-

يرتاح رأسي على صدر ناعم يتنفس في عذوبة باعثاً في روعي طمأنينة وخدرًا. وأرفع رأسي بهدوء فأجد وجه أمي وتقاطيعه المحبوبة.. من أي زاوية أنظر إليها أجد جمالاً حقيقياً.. ومن هذه الزاوية كنت أنظر إليها طوال طفولتي التي عاصرت شبابها.. ويغزوني انشراح عارم أن استردت

أمي شبابها مرة أخرى. وتؤلمني رقبتني فأريح رأسي على صدرها ثانيةً وأنا أهمس بينما النوم يحاول جذبني بنعومة:

- ما أشقى الأيام التي أبحث فيها عنك فلا أجدك.
- فتقول بصوتها الثلاثيني الدسم:
- لعن الله الحزن.
- والشيخوخة.
- لعن الله الحزن الذي يُسلمنا للشيخوخة قبل الأوان.
- وأنا أحبك.
- وأنا أحبك أكثر.
- رغم الحزن؟!!
- رغم الحزن.. ورغم الشيخوخة.
- ولكنك أحببتِ بابا فانهرتِ عقب وفاته.. حتى تركتِ نفسك وتركتني.
- لا حيلة في الرزق والعمر والحب.
- ألم أكن أستحق حناناً أكبر؟!!
- أكان من العقل أن أغدق عليك حناني في غياب حزم الأب؟!!
- ولكنني تألمت.
- بل تعلمت.. وصرت إلى ما أردت.
- وتدمع عيني وأقول بنبرة مُذنب يعترف:
- ولكنني تركت الطب.. فخيبت أملك.. طالما عدّبتني ذلك في الليل رغم نهاراتي المفعمة بالنجاح.
- ألمي كان سعادتك.
- والطب؟!!
- كان أمل أبيك وكنت أمينة عليه فقط.
- إذن فأنتِ غير حزينة؟!!
- كيف أحزن وأنت سعيد؟!!
- وأتدبر فيما يجري فأقول بشوق عارم:
- كم كان ممتعاً أن نكون صديقين في سن واحدة.
- فتضحك بأنوثتها الشبابية وتهتف:
- وكيف يمكن ذلك؟!!
- هل تعرفين لعبة الأيام؟!!
- فتقول مُداعبة لتُجاريني:
- عرفني.
- ولكنني أزهدي في الشرح، وأستأنف الحديث:
- كانت حياتي ستتغير لو أمكن أن ننعم بصداقة بدلاً من الأمومة والبنوة.
- لا شيء يتغير.

- الحزن غيرك .
- بل كنت دائمًا أنا .. ولكن أسفل تلك القشرة الصلبة التي وضعتها لحمايتك من الفساد .
- ونوران تغيرت .
- لا شيء يتغير .
- هذا رأيك الذي لم يتغير .
- بل هي الحقيقة .
- طالما أفرغك أن تستحوذ عليّ .
- طالما أفرغني أن أرى بعينيها أشياء بغیضة لا تفهمها إلا امرأة .
- وأطعتك وتركتها .
- بل أطعت عقلك الراجح الذي ورثته عن أبيك .
- من المؤسف أنني لا أتذكر ذلك .
ولكنها تقول بغتة بصوتها الذي طالما هدهدني في مهدي :
- نم مطمئنًا يا طارق .. إن السعادة ملك يمينك .
- ها أنا أشتاق إليك .. إلى حنانك .. إلى حبك .. فتتعر سعادتي .
- نم مطمئنًا يا طارق .. إن الحب ملك يمينك .
وأقلام النوم بكل قوتي .. ولكنها تريح رأسي على الوسادة .. وتنصرف بينما لا أزال أشعر بأنفاسها
تتردد بانتظام فوق شعري ..

-٢٨-

ويقرر زملاء الشركة الاجتماع لسهرة في الوبك إند .. ولا أعير الأمر اهتمامًا . وقبل أن أنصرف
من المكتب ذات أصيل تقول بيريها :
- هل ستذهب يا طارق؟!
فأسألها :
- هل ستذهبين؟!
فتهمس بإغراء :
- لو ذهبت سأذهب!
أدوخ من السعادة وأهتف :
- سأذهب .
فتلتمع شفاهها ببسمة جديدة :
- سنذهب إذن .
وأذهب للبيت مفعمًا بأمال تغمر قلبي بسعادة باردة ..

-٢٩-

وتفاجئني ببيريهان فتقوم لترقص وسط موسيقى صاخبة. وأذوب منصهرًا في جحيم من الألم..
بيريهان بعيدة لا تزال أو أنها تقترب وتبتعد كأمل لعوب.
رحبت بي في بداية السهرة ثم انفصلنا فلا أثر لحديثنا الذي كان في المكتب وانتظارها لقراري
بالحضور.. وأراقب انطلاقها ومرحها ورقصها فأدوخ من الحيرة.
بيريهان أبعد من النجوم.. عني وعن نفسي وعن اختياراتي.. ولكنني عاجز عن القرار.. كالمقيض
على قضبان قطار قادم بأقصى سرعة.
وأسترجع آلامي وأنا أنتظر من نوران الاستسلام للحب، ورغم ذلك لا أستسلم لفكرة هجرها.. هل
سأعيد آلامي من جديد؟! لماذا لا يجيئني الحب إلا ككابوس أستتيم إليه.
وقبل أن تنتهي السهرة تجلس بجواري، وتضع بسمتها الخاصة كتاج فوق رأسي فتزيج كل ما
عركها من أفكار وقلق.. وتسالني:

- لماذا تبدو مهمومًا؟!

هل أقول؟! لا.. يجب عليّ أن أعامل الصداقة الناشئة بحرص صائد الفراشات. وأرد:

- صداع لا أكثر.

فتبتسم وتقول:

- ستذهب جميع الآمك.

وتنتهي السهرة ولا أنصرف قبل أن أشاهدها من مخبئي بين السيارات تركب سيارتها «بمفردها»
وتتصرف.. صارت أخيرًا بمأمن من أعين الجميع.. كأنني جئت اليوم كحارس لها.. وأنتفس لأول
مرة باطمئنان.. ومن بين ما يتبقى من مصهور ألمي السائل تلتصق فكرة نجت كجوهرة أصيلة.. أنا
أحب ببيريهان.. وهي تفكر في نفس الفكرة ولكنها لا تزال مترددة..

- ٣٠ -

أي جُرأة تدفني للاتصال ببيريهان في الويك إند رغم حداثة صداقتنا.. ومن العجيب أنها ترد بلا
حرج.. فأقول في تهور عجيب كأنني مدفوع إليها:

- هل يمكن أن أراك؟!

فتقول ببساطة:

- هيا بنا.

أنتفس من جديد وأنا أتجاهل شخوصًا تتعارك في مؤخرة رأسي.. نوران وماما وبهيرة وآخرين
في ظلال الغموض المقيت الذي لا ينجلي..

- ٣١ -

مرة أخرى يغزوني الأنس لمرأى ببيريهان.

ومرة أخرى أتساءل كيف أطمئن لحضورها كأنها من أجمل ذكريات الماضي بينما أنا بالكاد
أسعى للتعرف بها؟!

متى وكيف تكون لي؟!

وأمام سميراميس تفاجئني، فنقفز على سور الكورنيش الخالي إلا من عابر هنا وعابر هناك، ثم تسيير مفرودة الذراعين كبهلوان وهي تضحك وسط كونٍ أصفر ورياح متوسطة القوة، وتهتف:
- اطلع معي.

يملؤني الإعجاب بشبابها كأنها من جيل آخر.. أغبطها على الانطلاق والسرور.
وللحظة أنظر إلى سعادتها كأني أباه! ولكنني لا أهتم بتحليل ذلك الشعور الطارئ.. وتتوقف وتتحنى فتمد يدها مُكرِّرة طلبها:
- اطلع معي.

وتلفحني رياح حارة تهمس في وعيي: إنك وبيريهان في عُمر واحد فلم تحجم عن الجنون؟! ويغص حلقي وتدمع عيناى سرورًا لهذا الاكتشاف.. وأقفز على السور وراءها، فنسير كأننا نتأهب للطيران، وتغزوني موجة ممتعة من دفقات هرمونية وخليط من الأفراح الجنونية والسماوية، وأتخلى عن العقل والأخلاق، فيسعني أن أتأمل بلا حذر ولا قلق جسدها الفرنسي الساخن وعجيزتها المصرية المدهشة وكيانها المحبوب بالكامل.. ثم أغوص بقلبي وعقلي إلى جوهرها المترع بالنشوة والآمال كباطن الأرض الحاوي لجميع الكنوز والمعادن النفيسة.

ما أجملك يا بيريهان.. ما أتمنك وأروع كيانك كله.. وما أكبر عشقي لك.. ويقين باطني غامض من خيالات الذاكرة ينبئني أنك بركان من الإثارة إلى جانب براءتك هذه الجلية ونظراتك العادية.. ولكنني بإحساسي الجديد وخجلي الشبابي أعجز عن استجلاء مواطن الفتنة التي تشي بها نفسي.. كأني أنظر إلى واجهة خلفية لقصر فأكذب من يتحدث عن جمال واجهته الأمامية.. فمتى رأيت وجهك الثاني.. ونظرتك المثيرة؟!

وأمتلئ بنغمات مَوْغلة في الزمان تتردد في وجداني وتتسامى فتُسكِر عقلي وتُخدر أطرافي ثم تتلاشى كأبخرة الكحول قبل أن أتمكن من أن أقبض عليها أو ترديدها بشفتي.

ومع الحبور يعودني شجن عميق كأني أسمو فوق عمري فأتساءل حتام يدوم هذا الشباب؟! ولكن سخونة الحب وطاقة السعادة التي تصهرني تُذيب السؤال قبل أن يستحيل لفكرة حقيقية..

ما أمتع الشباب.. وما أبدع ما تتغرس به في الأرواح من نشوات غامضة حارة، وطموح عريض لا يني يقتعنا أن كل ما نرجوه من آمال الحياة واقع لا محالة.. وأن كل ما تقع عليه أعيننا من مُتَع سيكون ملكنا يوماً ما.. العمل المهم.. السعادة.. البيت.. النجاح.. والحب الأسطوري أيضاً.. وإن كنا نختنق بالضجر والملل فهو ضجر وملل المنتظر لا اليأس.

كل شيء سيكون ملكي إذن.

بل كل شيء رهن يدي من الآن.. رغم الحزن ورغم ضالتي الحالية.. لا يعترف الشباب بالمعوقات، بل هو يسكب في دمائي مُخدرًا ومضادًا لليأس! ومضادًا للاستسلام أيضاً.. فهاهي ذي بيريهان تغوص بكل قوة داخل قلبي بينما نوران لا تزال داخله.. ما أوسع ما صار عليه قلبي.. بل ربما صار لي أكثر من قلب!

ولكنني رغم ذلك أعجز عن التصريح بهذا الحب.. ما أجين الشباب!
ويخفق قلبي مع رقصتها المنطلقة فوق السور، وأسألها في إشفاق:

- ألا يضايقك عُبار الخماسين؟!

فتقول بصوتها المنعوم:

- لو كنتُ أوقن أنني سأعيش لما بعد الربيع فربما أمكنني أن أضجر من فصل وأحب ما يليه.
- ياه!

- ما دام القادم مجهولاً.. فالحاضر إذن هو كل العمر.

- ولكن كيف يمكن أن نتقبل هذا الغبار؟!

- إذا نظرنا إلى الورود التي تتفتح فوق شجر الطوار.

لم أشعر أنني أستمع إلى بهيرة؟!

وتلقت بيريهان، فنقف متواجهين في صمت متوجس، وأستلمح الشعور بطاقة الشباب الذي يحيطني من الخارج والداخل.. ما أعظم هذه القوة! إن العالم ملكي حقاً.. وهأنذا أتحرر من قيود وحمول أثقلتي طويلاً ضمن هذه الذكريات الغائمة المراوغة التي لا أهتم الآن – بينما بيريهان بين يديّ- بمطاردتها.

وهذه بيريهان مُلخصاً كاملاً للفتنة، وصوتاً للأمال التي لا تتوقف عن التغني بالوعود.. وأذوب تماماً في حضورها الموسيقيّ.. وتنعم عليّ برنوة ناعمة تكفي للشفاء من كافة ما ضرب رُوحِي على مر العصور.. ولكنها تقول بشكل مُفاجئ:

- طارق.. حدّثني عن حبك.

والحقيقة أنني لا أود أن أحدثها إلا عن حبي المفاجئ لها.. كما أود نسيان كل ما قبله..

- ٣٢ -

بجواني بهيرة وأنا أقود لها سيارتها، وأهتف:

- ماذا أفعل؟!

ولكنها تقول بلا تعاطف:

- لقد ورّطت نفسك في لعبة خطيرة.

- ماذا أفعل؟!

ودون أن تلقت:

- دعنا نُنهي أولاً عملنا الأهم.

وتفعم أنفي رائحة غرفة العمليات فيتقلص بطني وأقول في غيظ: لمَ أنا هنا الآن لا في الشركة؟!

لم تبدأ إجازتي المفتوحة؟!

- ٣٣ -

نجلس بكافيه هادئ الإضاءة، في عينيّ حب عميق أجاهد لإخفائه عن بيريهان مخافة أن تعيد النظر في صداقتنا. وفي عينيها أرى مودّة وترحيب حذرين. وأغوص بعمق حدقتيها كلما أمكنني فلا أطالع سوى دفء طبيعي يمكن أن تمنحه لأي صديق مُقرب.. أما النظرة التي تعدني بها ظنوني المخادعة فلا أثر لها على الإطلاق. وتفاجئني بقولها:

- أقول لك سرّاً يا طارق؟!

أشعر بلا سبب مفهوم أن نطقها لاسمي بلا لقب «دكتور» هو شيء غريب. ولكنني مسحور بتقتها

أهمس:

- قللي.

- طالما شعرت أنك تواجه أزمة في علاقتك بخطيبتك.. وحين اتصلت بي تؤكد شعوري..

رغم ترحيبي بطرقها لهذا الحديث لأتمكن من الانزلاق إلى مقصدي، إلا أنني فرعت:

- خطيبتي؟! إننا لم نرتبط بعد.

ضحكت بمكر ضايقتني، فقد بدت لي أنضح من سنها وأكثر خبرة، وقالت:

- حسناً يا سيدي.. طالما شعرت أنك تواجه أزمة في علاقتك بحبيبتك.. وحين اتصلت بي تؤكد

شعوري.

وبلا حساب أقول:

- إنني أعيد من جديد التعرف على معنى الحب.

توجم للحظة.. هذه الأنثى الذكية تفهم ما أرمي إليه.. ولكنها تهش التوتر الذي أوشك أن يحط على

الطاولة بضحكة عالية ثم تقول:

- منذ متى وأنت تعرفها؟!!

أمتعض لإصرارها على تذكيري بنوران، وأقول:

- من أول سنة في الكلية.

وأتفكر كيف عرفت نوران من أول سنة في الكلية بينما المفترض أنها أصغر مني بعام؟! ولكني

أعود لبيريهان التي تقول:

- من عُمر واحد؟!!

- نعم.

فتشرد حتى يتجلى بعينيها لأول مرة حزن طارئ، فأقول بعشق وبلا حساب للمرة الثانية:

- لا يليق الحزن بعينيك.

فترفع نحو عينيها العسلين، وتبتسم ثم تقول ولماً تسترد مرحها:

- هل أقول لك سرّاً؟!!

- قللي.

- لا يوجد على الأرض من هو أحزن مني.

- بعد الشر.

- هي الحقيقة..

- ٣٤ -

إنني أستكين إليها.. ويفعم حضورها روعي بنسمات قررة من طمانينة رغم حرارة الربيع القانظ.. وتذهب إليها نظراتي ترفل في حاشية من حرير وأحلام.. لكن حرارة الحب الذي لم أبج به تحرق الحرير وتذيب الأحلام.. فأطوي حناياي على الألم والأمل.. وأرنو إليها وقد استقر في يقيني أنه لولا هذا الحب الذي يُضنني كتمان، والذي يخضع ذاتي للانتظار القلق رغم إرادتي، ويعذبني بالأمل المُرّوغ بين النعم واللا، لكنك أكثر قدرة على الاستمتاع باقترابي منها.. وبهذه الأحاسيس السماوية

البهيجة.. وبمراقبة هذا الحُسن الخالق للسحر.. دون الاحتراق بهذه الشعورات البغيضة التي ترقط الإهاب الأبيض للحب.

لو أمكننا أن نتخلص من الحب لاستطعنا أن نستمتع بالمحسوب أضعافاً مضاعفة؟! وهي؟!

إنها دائماً ما تروغ من الأحاديث الشخصية التي يمكن أن تقضي إلى اعتراف تعرف فيما يبدو أنه سيجيء حتماً.

هل بدا من نظراتي – رغم حرصي الشديد- أنني أتحن الفرصة للاعتراف؟! ما أسخف الحب الذي يُرقق جلودنا لنصير كائنات شفافة فلا نتمكن من إخفاء خاطرة ولا همسة راجية..

-٣٥-

ولكن يؤلمني في لقاءاتي ببيريهان.. أنني أنتبه مرة بعد مرة أنها تشبه نوران في كثير من اللفات والسمات!

ورغم أنها أكثر نعومة.. ولها صوت موسيقى رقيقة.. ولكن شعوراً مُلحاً كالم الضرس يؤكد أنها لا تختلف بشكل حقيقي.. وأنها ليست سوى صورة أطف وأجمل من نوران.. وأنها فقط الفتاة التي على حدود حدقتها الساحرتين تنتظرني النظرة الموعودة التي تطاردها آمالي.

ومدفعاً بأفكاري التائهة ألج إلى كافييه، فأجد بانتظاري دكتور محسن عبد الدايم. يقوم فيستقبلني ضاحكاً، وأنظر إلى التجاعيد التي تملأ وجهه وإلى شعره الأبيض، وأشعر بحرج بالغ كأنني أمام أستاذ في الكلية، ولكنه يعاملني بعفوية كأننا في عُمر واحد، ويخبط على ركبتي وهو يقول ضاحكاً في ظفر:

- هل صدقتني؟!

ولا أفهم ولا أهتم.

-٣٦-

أما أكثر ما يمتعني في لقاءاتي ببيريهان، فهو هذا الشعور العجيب أنني أسيطر بشكل ما على ما يحدث، فهي دائماً لا تشذ عن تخيلاتي كأنني أنا الذي أحركها وأنا الذي أحلقها وأنا الذي يمنحها هذه الزينة والميكب، بل والملابس رغم رفضي لها! حدث غريب ولكنه يبهجني على أي حال.

ويراودني حنين غامض لأن أرى التماع طرف شعرها وحدقتها العسلينتين تحت شمس هادئة كأنني أستعيد ذكريات ماضية، فيحدث ذلك! وتقول بشفاه كرزية لامعة بينما تغادر الكلية قبيل الغروب:

- كان يوماً متعباً.

ويدهشني أننا في الكلية بينما كان المنطقي أن نلتقي في الشركة أو في مستشفى من المستشفيات التي تتعامل معها شركتنا. ولكن شعور الهيام العارم الذي يشبه الذهول لا يترك لي فرصة للتفكير.

وأقول بحنان:

- سلامتك.

فتضحك بغرور.. وكنت أنتظر أن تبتسم بحياء.. وتراقب وجومي ثم تقول بعد أن نركب سيارتها الفارحة:

- هل تضايقت ضحكتي المرتفعة؟!

إن ما يضايقتني هو ما يحدث.

إنني أركب إلى جوارها فيتملكني شعور حاد من الألم والضالة.. إنه عكس ما يجب أن يكون.. ولكن ماذا يجب أن يكون؟! لا أعرف.. ولكنني لا أراني إلا أمام الدركسيون بينما هي إلى جوارني تأتلق بالنظرة المفعمة بالإعجاب والاستسلام.. أما ما يحدث الآن فمؤلم ومُحبط.. وأعاني بقوة من شعوري المُخزي إذ أركب بجوارها لتوصيلي إلى أقرب مكان.. وأفكر هل توافق أمي على أن أبتاع ببعض ميراثي سيارة؟! وتلوح لي ملامح بهيرة الرفض.. فأصرفها عن ذهني.

وأنشغل بأفكاري عن الرد على سؤال بيريهان.. ثم أنعم النظر في مُحياها وأقول في نفسي وأنا أراقب حُسنها وثرأها وانطلاقها الواثق: أمامي ربع قرن على الأقل لأظفر منها بالنظرة المرجوة! ويقتلني إحباط حاد كسيخ يخترق جنبي.

وفي طريقي للبيت أحاول أن أتذكر أين سمعت مثل هذه الرنة المميزة في ضحكاتها؟! وأرى فيما يتراءى لي من الخيالات الترابية امرأة حسناء غامضة لا ترتدي سوى البيكيني..

-٣٧-

قابلت نوران بعد استدعاء عاجل منها. جلست أمامي بمجلسنا الأثير في الكازينو على النيل بالقرب من الجامعة.

تبدت جميلة وناعمة، على ذات الهيئة التي فتنتني في بداية تعرفي عليها بالجامعة، والتي أغرتني بمراقبتها في الرواح والمجيء، مُضحياً بمحاضرات وسكاشن عديدة، حتى تم تعارفنا.. قالت دون أن أتمكن من النظر في عينيها:

- أنا أحبك يا طارق.. أحبك جداً.. ولا أتصور أنني يمكن أن أحب غيرك يوماً..

ولكنني أعجز عن الرد، مُكتفياً بنفثة الراحة التي انسكبت في دمي. ويذوب لقائنا، ولكنه يترك في رنتي أوكسجيناً، ونسمة باردة، ومزيداً من السعادة..

-٣٨-

في المساء ألتقي بيريهان بعيادة عميل من عملاء الشركة، وننصرف بينما الشوارع تنتهي لهجة طويلة. ويطول سيرنا في الطريق نحو سيارتها كأنه بلا نهاية.

أشرد عن معظم ما يدور بيننا من حوار.. وأحترق بدبيب نَمَل سائك يسري في عروقي وأنا أفاضل بلا توقف بين سعادتي الحالية بالوصل والقرب البهيج مُستعيداً كل ما سمعت عن فوائد القناعة ودم الطمع.. ورغبتني المُلحة أن أصارح بيريهان بحبي وليكن ما يكون.

وبيريهان كالدنيا.. لا تتعد ولا تسقط في يدك.. وبسمتها ما زالت تتشد مدائح في صبر العاشقين.

وتصمت ويطول صمتها، فأهمس لأمنع الأودية المتصلة بيننا من التصحر:

- هل أحببتِ قبل ذلك يا بيريهان؟!
تستمر في النظر للطريق كأنها لم تسمع. وبعد برهة تقول:
- لا يجب أن أحب.

- ولم؟!
تضحك وتقول في استهانة:
- يمكنكِ اعتباري مريضة.
أضحك لأصرف ظنونها عن رغبتني في الاعتراف. وأقول:
- ألف سلامة.

فنتظر نحوي بينما ضحكاتنا تتحسر، وأشعر أنها تهتم بالحديث، لكنها تبتسم وتصمت.
هل تعاني أزمة حقيقية؟! أم أنها تصرفني أنا عن التفكير في حُبها؟!!

- ٣٩ -

في لقاء من لقاءاتنا المسائية التي صارت عادةً مُبهجة وسبباً للنشوة التي تكس الضجر، تقول
بيريهان والكافيه ينعم ببرودة مكيف الهواء كما أنعم أنا بثقتها وصادقتها:

- وكثيراً ما أشعر يا طارق أنني شخصان!

- كيف؟!!

- لا تنتظر إليّ.. فداخل هذه الفتاة التي تراها الآن بنتٌ حزينة انكسرت وهي تستعد للفتح.

- احكي لي.

زفرت وهي تستند إلى ظهر الكرسي كأنها تستدعي أحداثاً من الماضي:

- توفي بابا وأنا في التاسعة.

مرة أخرى ينتابني الذهول البغيض الذي يُذكرني بأنني عشت تلك الأحداث من قبل. وتُردف هي:

- كانت وفاته حدثاً مُفزعاً.. تخيل أن تستيقظ في الصباح ليُخبروك أنك فقدت ذراعيك.. للأبد.. وأن

كل ما تبقى منه هو صورة داخل إطار مُذهب ذي شارة سوداء في ركن منه.

أُتذكر رأس طبي مُحنط رأيتُه ذات يوم في مكان غامض، فأجفل من الألم.. وبيريهان تهمس:

- هل يمكنكِ حينئذ أن تستكمل حياتك دون أن تتوقف أو تتغير؟!!

- كم أسف لسماع ذلك.

- إنك لا تتخيل كم أحببت بابا.

- ولكنك تجاوزت ذلك يا بيريهان.

- لولا ماما لما تجاوزت محنتي.

وتظفر دمعة فتمسحها سريعاً وهي تبتسم، وتقول مُحوّلة مجرى الحديث بغتة:

- كانت ماما قوية جداً.. مَرحة ومتفائلة ومُقبلة على الحياة.. هل تعرف؟! هي صاحبة الشخصية

الثانية التي تنتظرون إليها.. هي صاحبة تلك الضحكة المنطلقة الهائلة من كل شيء.. منها استعرت

كل ذلك لأعطي على الفتاة البائسة الحزينة التي كنتها طوال طفولتي ومراهقتي.

أقول مُحاولاً انتشالها من الحزن:

- لا أتصوركِ بائسة ولا حزينة.. تلك أشياء لا تليق بكِ.
- بل هي أنا.. صدّقني لم أكن لألفت نظر إنسان لولا محاولتي التخلص من الماضي ولو بشكل ظاهري.
- هذا عجيب.
- وأكثر من ذلك.. هل تعرف أنني كنت أدعى «أمينة» في طفولتي؟! لقد كنتُ شخصًا آخر بكل ما يعنيه ذلك.
- أراقبها مذهولًا أقاوم الغثيان، ولكنها تنفجر في ضحكة تستدعي الذكريات الغامضة، وتقول وهي تُحاول التماسك في مَرِح هَس:
- ولكنني قررت أن أتخلص من كل ذلك.. فتخلصت من اسمي فور بلوغي السادسة عشرة.. وتخلصت من الفتاة الحزينة المنكسرة حين بدأت مساري العملي بعد تخرجي من الصيدلة.. والحق أنني أفدت من ذلك تمامًا ومضت حياتي العملية في رُقيّ سريع.
- ولكن ماذا عن حياتك الشخصية؟! أعني الباطن.
- أحاول التأقلم مع الحياة.. ولكنني أدرك جيدًا أنني أحتاج لذرَاعِي.
- ويغص حلقي لدمعة طارئة فأقول بعشق صادق:
- تحتاجين للحب يا بيريهان.. الحب سيمنحك كل مفقود.
- حقًا؟! فماذا أعطاك الحب؟!!
- يفاجئني سؤالها فأضحك لأداري خيباتي، ولكنها تقول بلا انتظار لجوابي:
- لو أعطاك الحب ما تفتقد ما كنت تجلس معي الآن.
- حقًا؟! ألا يحتمل أن نخطئ في الاختيار ونصلح خطأنا؟!!
- ومن يضمن ألا نخطئ مجددًا؟!!
- قل لي أنتِ.
- لا ضمانة.
- وما الحل؟!!
- أن تعرف ما ينقصك بالعقل لا بالقلب.
- هذا تصورك عن الحب؟!!
- وتصوري الوحيد.
- كم آسف أيضًا لسماع ذلك!
- وما الداعي لأسفك؟!!
- لا أتصورك إلا نهرًا من شعور.
- ومن قال إنني صخرة.
- لا معنى آخر لحديثك.
- إننا اختلفنا في اختيار الحب لا في عطايا الحب يا طارق.. عطايا الحب سيمنحها قلبي بلا شعور ولا إرادة مني لحبيبي الذي اختاره عقلي.
- وتقول بينما تلتصق حدقتها وشفتاها وأطراف شعرها البُنّي:

ذابت ضحكتي وقلت باحترام كامل:
- آسف.

زفرت بهدوء ثم قالت بهمس:

- كثيرًا ما ترك بابا غرفة ماما لينام إلى جوارى.

- وفيم كنتما تتحدثان؟! هل كان يروي لك قصصًا ما قبل النوم؟!!

- لا.. بل كان يحكي لي عن عمله وشركته والمشاكل التي جعله الله يتغلب عليها.. ويحكي لي كيف فتح الشركة بعد أن كان موظفًا صغيرًا في شركة أخرى.. كان يسرد عليّ تفاصيل يومه.. متاعبه.. نجاحاته.. شركته الجديدة التي تكبر مثلي يومًا بعد يوم.. ويطلب مني أن أهتم بالمدرسة لأنجح مثله.. وأن أحلم معه أن أكون مديرة شركته.. ويحكي لي عن المهام التي سيطلبها مني والمهام التي سنعملها معًا لتكبر شركتنا.. كثيرًا ما قال: ما أجمل أن تعلمي معي في الشركة! أرايت؟!!

- ماذا أرى؟!!

- كان يحبني أكثر من ماما.

- بيريهان، أنت جادة؟!!

تفرست في ملامحي فلمّا تأكدت أنني غير مُفتتحة، ضحكّت في هستريا ثم قالت:

- ما لك يا ابني؟! إنني أمزح!

تصنعتُ تصديقها ولكن ألف يقين بقلبي أكد أنها لا تمزح.. وربما بدا ذلك على ملامحي.. فغضبت ولكنها جعلت تغطي غضبها بضحكتها المتشنجة ثم مدت يدها إلى الحقيبة فأخرجت صورة دفعتها إليّ فهالني أن أرى صورة امرأة حسناء محفورة في قلبي بالبيكيني الأسود.. وسحبّتها سريعًا وهي تقول:

- أرايت؟! هذه ماما.. هل تتخيل أن يحبني بابا أكثر منها؟! إنها ملكة.. ليبتني رُبعا.

ابتسمتُ في شرود، ولكنها تقول مؤكدة في إصرار:

- كنت أمزح يا طارق صدقني.

ابتسمتُ مُهوّنا بينما أود أن أحتضنها حتى تُفرغ دموعها التي أراها تتجمد خلف ملامح مُتبيسة تخشى الانهيار..

- ٤٢ -

اتصلت بي بيريهان قبل أن أصل إلى المنزل، وأتاني صوتها مُنهارًا تمامًا، وقالت وصوتها يتهدج بجدة:

- لم أكن أمزح يا طارق.. أحبّتي بابا أكثر مما أحب ماجي، كما أحبّيته أنا أكثر مما أحبّته هي.

يُمزقني كمُدّ مرعب وانقباض، وأقول:

- اهدئي يا بيريهان.

ولكنها تستمر بذات النشيج:

- أنا غبية ولكنها الحقيقة.. أتعرف؟! إنني لا أنسى نظرته لي بينما أنا على المسرح في حفل

مدرسي أؤدي دور سنو وايت .

ولكنني أهتف بفرع:

- لا .

وقبل أن نستأنف الحوار يخترق ترقوتي ألم لا يُحتمل، فأصرخ مرة أخرى:

- لا ..

-٤٣-

أصطحب ألمي إلى اجتماع هام بالشركة .

بيريهان لا تفارق روحي منذ اعترافات الأمس .. وحبها صار يستكن بين العظم والأعصاب كشوكة لا تُنزع ولا يمكنني التغاضي عن ألمها .. وروحي بكل يقين تقول: سأحبها رغم كل شيء .. وستُحبنى .. ألا يعد إسرارها لي بخبيئة نفسها إلا تأكيداً لعمق ما يربطنا من مشاعر وأسرار؟! ولكنها تعود فتقول: ولكننا كثيراً ما نبوح للصديق بما لا نبوح به للحبيب، فإننا لا نخشى أن يفشي

الصديق سرّاً بقدر ما نخشى أن نفقد الحبيب باعترافنا!

وبيريهان ماهرة في السحر .. تلبس الحب ثوب الصداقة .. وتلبس الأبوة ثوب الحب .. وتلبس هي ثوب نوران .. وتلبس الزمالة ثوب الصداقة العميقة!

وتتحرك الشوكة بين العظم والأعصاب فتدمع عيناها وأشتاق إليها حتى تدمع عيناها .

وأصل متأخراً .. وتلتقيني السكرتيرة مُسرعةً لتناولني ملفاً قبل أن أدخل لغرفة الاجتماعات .. أتناول الملف بسرعة وأسحبه لكنها تتمسك به، فأرفع وجهي مُستفهماً، فتقول في همس:

- هذه البنيت تسعى لمصيبة!

وأهتف بفرع:

- نانسي؟! هل تركت عملي بالكلية؟! وكيف لم أعرف أنك هنا؟!!

لكنها تشير بإصبعها أن أخفض صوتي . وينفجر وعيي، فأقول:

- ولكن .. من البنيت؟! وأي مصيبة؟! هل تقصدين أن ...

ولكنها تتصرف بلا جواب ..

-٤٤-

تملاً أشرعتي ريح سوداء تدفعني دفعاً لأقتحم غرفة الاجتماعات التي لها باب غرفة دكتور هاني بالكلية!

والغرفة مظلمة إلا من بؤرة البروجكتور المتوهجة وأمامها يقف دكتور هاني بين أناقته وثقته المعتدة بذاته وثرائه وإغراء كهولته ذات الشعر الأبيض، وظله الأسود الضخم الذي يملأ الشاشة خلفه ويستولي على بقية الجدار حتى السقف .

وأمامه مفتاح المرسيديس وأوراق كثيرة .. وأمامه بين الزملاء، بيريهان .. ترنو إليه بعينين ناعستين .. ومن الأحداق الساهمة .. تطل النظرة التي أعرفها جيداً .

وتنتبه إليّ بيريهان .. وأنا على الباب أغرق في حميم مُلتهب من عرقٍ وجوٍّ حار يشوي وجهي ..

وشعور مستحكم بضالة عميقة لن يملأها طموح ولا أمل.. وفي الحلق مرارة الخيانة التي لا يمحوها
إلا القتل.
تتظر نحوي مبتهجة.. وتطالعي باسمه بنظرة رقيقة حانية.. أما النظرة الموعودة فقد ظفر بها
دكتور هاني.. للمرة الثانية!
ويغص حلقي ويتهدج صدري ثم تُظلم الدنيا قبل أن أتمكن من أن أصفق الباب لأنصرف غاضباً..
أو يائساً..

العتبة الثالثة

تجلي رؤيتي شيئاً فشيئاً عن غرفة بيضاء صافية. وفي مُقلتي أجد بقايا دمع كأنني بكيت كثيراً، وصدري بالكاد يتخلص من كمدٍ وضجر الكابوس.

وتخترق سمعي ضحكة عالية، وألتفت لأرى دكتور محسن أزمان بمكانه على الكرسي يضع ساقاً فوق أخرى وقلمه ودفتره مستلقيان فوق الطاولة، بينما أنا لا أزال ممدداً فوق الكنبة. وينتهي ضحكته ثم يقول وهو يصفق:

- أنت عبقرى.

وأزفر وأنا أحاول أن أستجمع ذاتي. فيقول:

- خسارة كبيرة أن تضل طريقك إلى الطب النفسي.

وأقول وأنا أحاول تجربة أحيالي الصوتية:

- كابوس جديد.

- بل شوط جديد مُوفّق يا عبقرى.. إننا نقترّب من الشفاء.

- أشعر أنني أغرق في معضلات جديدة.

- بل أنت أقرب ما تكون إلى النجاة.. كيف اهتديت إلى خطة «إليكترو»؟!!

- لا أدري.. تدخلت قوى حاسمة فقلبت الحلم كابوساً سخيلاً.

- إذن فهذه هي بيريهان! مريضة مثلك.

لكنني بدافع من الكرامة وبدافع من عدم رغبتى في الاعتراف بسخافة عمري الماضى أصيح:

- كنا خائفين.. ضجرين.. نبحث عن أرواح تحيينا.. وهذا يطعن في دقة النتيجة!

يضحك ويقول:

- حقاً؟! مثل بحثك عن النظرة الموعودة؟!!

أتجاوز تهكمه فأقول:

- ومثل بحثها عن الأمان!

- لكنها لم تمنحك النظرة ولم تمنحها أنت الأمان.

- لهذا لا أعترف بهذا الشوط من اللعبة.

يضحك وهو يقول:

- حقاً؟! إنك جاحد للنعمة كما أنك عبقرى.

- النعمة؟!!

- ماما مثلاً! ما رأيك في لقائها.

تجتاحني دفقة ناعمة من هواء بارد فأهمس:

- حقاً.. هذه نعمة تستحق أن أشكرك عليها.

ويتأملني كأنه يتأكد من جديتى فأردف:

- انتبهت إلى خسارتي لصدقتها الممتعة طوال العمر.. لعن الله الحزن.

- لا تتسرع فتلم الحزن وحده.. فربما تكشف باقى أشواط اللعبة عن أبعاد جديدة..

أهز رأسي في وهنٍ وأمل. ويقول هو:

- ونوران؟!!

- ماتت إلى الأبد.

- والنغمة القديمة.

- كانت وهماً لا أكثر.. هل رأيت كيف كانت تُقابلني كل مرة؟!!

ويضحك وهو يقول:

- حتى حيلتك العبقريّة التي وضعت دكتور هاني في مقام عمها لم تقلح في إنقاذها!

أقاوم الامتعاض الذي يخنق نفسي فجأة لسيرة دكتور هاني.. وأقول مُغيراً مجرى الحديث:

- ولكن هل تعرف.. نعمة من نعم هذا الربيع العجيب أن أكتشف أنني كنت بحاجة للحب لا لأي

أنثى مهما تكون.. لذلك بصقت نوران ببساطة حين تيفنت أنها ليست نموذج الحب ولا قطعة البازل التي أبحث عنها.

يُراقبني صامتاً فأقول:

- ونعمة أخرى عجيبة.. إنني لم أحزن حين اختفت أُمي ونوران.

- من الحماسة أن نحزن بعدما أدركنا أننا نحيا في لعبة.

- حقاً.. ولكن.. ألا يفسد إدراكي هذا اللعبة.. إنني لا أحكم على الأشياء بحياد؛ إذ إنني أتلقى

إشراقات من الذاكرة.

- من المستقبل الذي تعرفه.

- نعم.

- لا شيء يفسد اللعبة.. إننا في الواقع نتلقى إشراقات شبيهة طوال الحياة.. فهي تنبعث من الماضي

ومن انطباعاتنا المسبقة.. ولكنها وإن اختلف مبعثها فلها التأثير ذاته على قراراتنا.

- لا أفهم.

- لم تنتهِ اللعبة بعد.

- حقاً؟!!

- لم تتخلص من السم الذي حقنك به الممل ذات اليوم؟!!

- الثورة على العقل.

- ورغبتك الجنونية في النفاذ من الأفق إلى عالم جديد.. وحل حياتك وإعادة تركيبها.

أراقبه في قلق عظيم.. ثم لا يلبث أن ينعم عليّ بابتسامة مُشجعة، ثم يقوم فجأة ليختفي خلف

الستار..

- ١ -

أنا.

أين أنا؟!!

بل ومتى؟!

تتحسر عني غيابات ضبابية كأني أستيقظ.

وأفتح عيني، فينبسط، من موضع خدي فوق الوسادة، البحر الأحمر في هدوئه الرزين، والنهار ينعس في الأفق عند طرفه الآخر في وداعة أشبه بالحلم.

وتهبط عليّ التفاصيل متلاحقة كما تهبط السكينة.

أنا في العين السخنة.. في الفندق الذي يحتضن الاجتماع السنوي الخاص بشركتي أو كما نسميه الـ Cycle meeting.

كنت في قبيلة عقب انتهائنا من برنامج العمل المخصص له من الثامنة صباحًا إلى الخامسة عصرًا، وعليّ الآن أن أفيق لألحق بالعشاء وبحفلة السمر التي ينظمها موظفو الشركة في المساء.

متى افتتحت الشركة؟! منذ زمن لا أستطيع تحديده.. ولا أهتم بتحديده.. لأن الرضا الراسخ في يقيني يكفي، كما يخبرني أنها نجحت واتسعت في زمن ضيق كالمعجزة، فتحولت حياتي وانقلبت من نقيض إلى نقيض.

وهأنذا أستحلب سعادة محشوة بالراحة ولا أكاد أعثر – فيما ينتزل عليّ من تفاصيل - على بذرتها الصلبة المُسماة بالملل أو الخوف.

وفي المرأة أهنم ثيابي وأرى أنني في الخامسة والثلاثين..

-٢-

كأن القبيلة شحنتني من جديد.

أسير نشيطًا قاصدًا مطعم الفندق فأخترق حدائق خلابة تنفث برودة مُنعشة بعد يوم صيفي متوسط السخونة وتغرق درجة بعد درجة في ظلمة برتقالية.. ومن أعماق نفسي المطمئنة تهبّ نسيمات ناعمة فأتنفس بنشوة مُستمتعاً براحة طال بحثي عنها.

ويقطع تأملاتي صوت نسائي مألوف يصيح بغثة مُناديًا من بين الأشجار: «بيريهان».

صوت نانسي بكل تأكيد.. وألتفت فأرى شبحها وقد وقفت تتألفت في الظلمة الزاحفة وهي تكرر النداء مرة أخرى وثالثة.

تنداح موجة من الراحة لشعوري بوجود نانسي.. وتثور موجة من الترقب لسماعي نداءها بالاسم المحبوب.. فأتوتر ويغزوني ترقب حاد وشوق.

تمر بُرهة ثم أسمع ضحكات عالية أعرف نغمتها جيدًا.. تستيقظ جميع حواسي.. وأحدّ بصري داخل الحديقة إثر دقة عميقة ضربت صدري.. وأنصهر في انتظار ظهور صاحبة الضحكة..

ويبزع من بين الأشجار الظل اللطيف وهو يجري نحو نانسي.

بيريهان.. هاهي ذي بيريهان.

بجسدها الرشيق وانحناءاته المُسكرة وكيانها الذي لا يني ينادي مجهولاً في روعي فيحتويني كالكهرباء بقوة خفية تعز على المقاومة.

تستيقظ حواسي وتسيل بكياني سعادة عميقة تفوق هلوسات المخدرات.. وأسعد أن ألقاها من جديد رغم عدم وعيي بكل ما يحدث وشعوري المتصاعد بأنني أشاهد حلمًا.. ثم أراها وهي تباغت نانسي

فتحتضنها من ظهرها ثم تترامى إليّ ضحكاتهما فأبتسم في رضا عميق.. وأنعم النظر لبرهة أراقب هائماً الطيف المحبوب وأنا أعاني حنيناً عارماً وشوقاً يمتد إلى ماضٍ لا أستطيع تحديد زمنه بدقة. ثم أستكمل سيرى إلى المطعم وأنا أتُنفس بعمق هذه النسمة الوانية وهذه السعادة المذهلة التي أهدتنيها الحياة منذ مبتدأ يوليو الماضي.. والتي أكبرها بعشر سنوات كاملة من العُمر ومن الثراء!

-٣-

أخذت مجلسي منفرداً على مائدة في الركن وأنا أرد تحيات موظفي شركتي الموزعين في أنحاء المطعم.. وبعد لحظات تدخل نانسي وبيريها ثم يستأذنان في مرح أن ينضموا إلى مائدتي فأرحب بهما.

أتيقن أن الشعور الدائم بالملل والضجر الذي يلازمي كأنه ملامح وجهي قد تخلى عني.. وأرى كل ما عانيت لامتلاكه من آمال مستحيلة يتحقق أمام عيني بما يشبه الفرج. ويجري الحبور بدمي كأنني أحقن به ويستغرقني حتى إنني لا أهتم بالبحث عن سبب الصداقة العجيبة بين نانسي وبيريها وعن كيفية تماثلهما في السن! وتلتقي عيناى بالعينين الحالمتين المُثيرتين لموظفتي الصغيرة الجديدة فألتقى منها مرة بعد مرة النظرة الساحرة المترعة بالانبهار والاستسلام.. فأتنفس ويتوكد شعوري بالراحة. ما أعجب أن تهبّ تلك البرودة المنعشة كلما التقت عيناى بعيني بيريها. وأختلس نظرة نحو نانسي فيطمئن قلبي حين أراها ساهية عما يحدث..

-٤-

تقوم نانسي، وتعتذر بيريها عن مصاحبتهما مُتحمجة بعدم رغبتها في الحلويات. وتراقب بيريها ابتعادها ثم تيرق ابتسامتها المُخدرة وتحذجني بنظرتها الشيطانية وهي تقول بسرعة قبل عودة نانسي:

- لا أصدق أنني أجالس شخصاً في عظمتك يا دكتور؟!

هذا حديث مُعاد.. وهو أهم حديث تتوق الروح لسماعه.. وهأنذا أتلقاه اليوم بلا حسابات ولا حذر كالمرّة السابقة التي يبنيني موقع غامض في الذاكرة أنني أضعت فرصة الرد المثالي عليها في عُمر سابق.. لا أهتم بملاحقة ذاكرتي المائعة وأمسك بالفرصة التي تلوح كمُلحق صيفي فأبتسم وأهمس:

- كما لا أصدق أنا أنني أجالس أميرة بمعنى الكلمة.

وتفتقر شفتاها اللامعتان عن بسمة خجولة تمنحها ملامح طفولية. ولكنها تقول بأنوثة غزيرة:

- متى تُنفذ وعدك يا دكتور؟!

وأشعر بأنّ لا شيء يحول بيني وبين كافة وعودي.. ظاهرها وباطنها.

وتعود نانسي فتضع أمامنا أطباق الحلوى والفاكهة وتدعونا بنظرة لمشاركتها، فأتناول حبة خوخ وأنا أستحلب في خيالي شفّتي بيريها..

-5-

المساء ناعم.. والقمر مُكتمل كأبهى ما يكون.. والصحراء المحصورة بين البحر والجبل تملأ
روحي بالجمال والقوة.. ونسيم السخنة الصيفي مُلهم ودفيء.
أجلس منتظرًا.

تحتي بساط وثير من الإسفنج يعزلني عن ملمس الرمال تحتي.. وأمامي ذؤابة شمعة رشيقة
تتراقص في إغراء نافثة في الجو أريج برتقالة.. وسلّة من عنب وتين شهى تنتظرها معي.. والمشهد
بأكمله يقوم داخل حاشية من الحرير كأنه حلم أسطوري.

أسابيع ويغادر الصيف، ولكنني أمتن له هذا العام بشكل خاص.. فما أرق ما ترك بقلبي من
عطايا.. بيريهان التي التحقت بشركتي في مطلع يوليو.. ونظرتها العجيبة.. والروح الحارة التي
تطلق منها فتدفعني إلى السماء.. وفوق ذلك عشقها المفاجئ كهدايا عيد الميلاد.

ويرن في جوفي قولي في زمان بعيد لا أتذكره: «إنني بحاجة لحب لا لأنثى».. وأتذكر شعوري
الدائم بأن حادثة قديمة شكّلت قلبي كقطعة بازل وتركته عُمرًا طويلًا يبحث عن القطعة الملائمة له.
فأتساءل: أهي بيريهان؟!

هي ولا شك.

وإلا فما يبرر أن تهبّ نسمة مُنعشة كلما ورد اسمها؟!

-6-

وتُقبل بيريهان أخيرًا كنسمة من نسيمات الشاطئ.. تتفافز على أطراف أصابعها بخفة كأنها تهرب
من مطاردة.. كأنها تتفلت من حلم قديم.

وتقترب.. فينسكب فوق وجهها المعشوق ضوء القمر فألمح ابتسامتها الظاهرة.. أنتفس بعُمق وأنا
أعالج خفقان قلبي الغارق في العشق.. وأبتسم أنا أيضًا في ظفر.. هاهو ذا الوعد يتحقق.

وتجلس وهي تهمس بفحيح مرح:

- كلهم ناموا!

-7-

تستقر بيريهان بمجلسها وتشد طرف البساط على ركبتيها التي انحسر عنها الفستان.. وتتبدل
ملامحها المرحّة فتهمس بوجد كأنها شخص آخر:

- يرضيك يا دكتور؟!

تدق الكلمة ناقوسًا مُنبهًا لِماضٍ ما.. وأقول بذهولي:

- ماذا؟!

- كل هذا الوقت لُتُنْفذ وعدًا بسيطًا؟!

فأضحك وأنا أغوص في السعادة. فتقول وهي تُحاكي نبرتي الغليظة:

- سنقضي اليوم معًا.. وفي المساء سننعشى على ضوء القمر في العين السخنة.

ترن الجملة من داخل أجمة مظلمة.. من أيام عجيبة هربت ذات يوم.. ولكني لا أهتر وأستمر في الضحك المبتهج.. وتقرب مني بيريهان وقد تلون وجهها بمزيج من شعاع القمر الفضي وشعاع التوتّر الأحمر.. وتعتمد فخذي بكفيها الرقيقتين وتمد جذعها فتلثم خدي بحرارة.
يغزوني الجنون المخلوط بالعشق.. ويلتف ذراعي حول خصرها الرقيق وأنا أتوه في وله نجح أخيراً في اجتياز جميع الأسوار فانطلق يقصد السماء الأولى.

لا تفكير.. لا حزن.. ولا خوف من ضمير ولا خيانة لأحد.. فلا أحد أصلاً هناك!
أعزب.. سعيد.. في الخامسة والثلاثين.. أتبه بفحولة تحررت إلى حدّ ما من أسر الأخلاق والعادات والدين.. وشركة ناشئة تكبر.. ونجاح أشم رائحته قوية مؤكدة.. وريح مواتية واعدة بالثراء.. وفوق ذلك قلب ظامئ وظروف مهيّئة للحب والزواج.. وتقابله فتاة عذبة كالغناء تخطو نحو الحب كما أخطو.. وتمد الفؤاد بمخلوط المباهج والآمال والعشق.. ولها سمّت وقسمات أعشقها عشقاً فتساقب داخلي بلا عناء ولا تفكير شأن أي حب عظيم.

وتملأ صدري المتهدج رائحة النعناع المنبعثة من بين شفتيها.. فتسافر شفتاي بلا تفكر نحو ثغرها اللامع وأنا أراقب عينيها المغمضتين.

ألمس شفتها العليا.. فتشهق.. وترتعد ضلوعها الرقيقة تحت أصابعي الراقدة على قميصها.. وتفتح عينيها فأرى البدر يذوب في حدقتيها خلف سحابة من هيام ذاهل ومقاومة هزيلة.. وأتهدأ لمزيد من العشق فأضمها أكثر إلى صدري المحترق.. ولكنها تتسل من بين شفتي ثم تسيل فوق حضني ثم يستقر رأسها على فخذي ويتكوم جسدها على البساط كقطة تنهياً للنوم.. ثم لا تلبث أن تهمس بصوت ناعس:

- تحدث.

- فيم؟!

- أي شيء.

أكظم غيظي وأنا أحاول معالجة أعصابي المستثارة التي سكبت فوقها الماء. وأقول ساخرًا:

- هل أقص عليك حكاية؟!

- لا.

- إذن فيم؟!

تفكر لثوانٍ ثم تقول:

- حدّثني عن اجتماعات الغد!

أهتف:

- حقاً؟!

فتقول كأنها لا تسمعي:

- عن قرارك بهجر الطب وافتتاح الشركة.

- أهذه أحاديث تناسب جلستنا؟!

- عن نجاحك وأحلامك لنمو الشركة.

أتعجب بشدة ولكني أقول ببساطة:

- أنا أحبك يا بيري.

وأتنفس.

كيف استطعت أن أُصرح لبيري بحُبي دون خوض حسابات مُعقدة ودون تَوَقُّع مصاعب تالية؟! ودون حتى أن أنتظر تصريحها بحبها لي؟! ولم أشعر بالظفر كأني جربت قبل ذلك وفشلت؟! وتعتدل بيريهان وهي تحدِّق بي كأنها لا تصدق.. ثم تبتسم برقة عذبة.. ولا تلبث أن تُعيد رأسها إلى فخذي بلا كلمة ثم تسحب كفي الكبيرة فتضعها على خدها في استسلام.

لا ترد بيريهان.. لا تتطرق.. لا تهمس: أحبك يا طارق!
وأسمعها تُغمغم بارتياح كأنها تُحدث نفسها:

- وهأنذا أخيراً أستطيع منحه قُبلة.. كالتي كانت ماجي تستأسره بها! وهاهو ذا ينطق بالحب لي لا لماجي.

عني أم عن أبيها تتحدث؟! وأتقزز وتسقط الشمعة فوق ركبتي فأفزع وأزيحها سريعاً وبجِدَّة.. وأنا أحاذر أن أفرع بيريهان المطمئنة على ركبتي الأخرى..

-٨-

عند الخامسة أجدني مستيقظاً.

كثيراً ما أستيقظ بلا سبب فأغرق في شعوري بالسأم، مُتجاهلاً البحث عن السبب وراء استيقاظي المُباغت.. صفقة باب، سَعلة في الشارع، رنين منبه عند الجيران.. لا أهتم أبداً بالسبب ولكني أعاني من استيقاظي قبل الموعد وغالباً ما أعاني لأنام من جديد.

أشعر بالصداع ولكني أوفر جهدي ووقتي فأقوم وأرتدي ثيابي وأعمد إلى البحر لأنعم بمقدم الصباح قبل استيقاظ الموظفين الذين سيجتمعون للإفطار في السابعة، ثم نبدأ يوم العمل الحافل بالاجتماعات والأرقام والمشاحنات.

والمح في طريقي للشاطئ وسط ضوء الصباح الكسول بساطاً من النور يتمدد فوق الحشائش أمام باب قاعة الاجتماعات القائمة وسط حديقة منفصلة بالقرب من الفندق. يدفعني الفضول.. وألج القاعة فأجد نانسي منهمكة في عمل جاد على اللابتوب فوق الطاولة الرئيسية وهي تُوجه بين الفينة والفينة عمال القاعة، القائمين على النظافة وترتيب أماكن الموظفين وتجهيز الأوراق والأقلام وخلافه. أبتسم وأنا أراقبها بامتنان عميق، وقد تملكني الشعور أن كياناً قوياً يدعم ظهري حتى في أوقات نومي.. ويداخلني سرور صادق لرؤيتي إياها مرة أخرى في الخامسة والعشرين!

وأخطو إلى داخل القاعة، وتلمحني فتهد وتسعى نحوي مُرحبة في احترام:
- صباح الخير يا دكتور.

نانسي المشتتة دائماً بالأمانة والدأب والمحبة الراقية للعالم.. أصفحها بوداً عميق وأنا أقول:

- الوقت مُبكر جداً لتبديني العمل يا نانسي.

فتقول بصرامة وود:

- يجب أن يكون كل شيء جاهزاً.. وقبل الموعد.

أبتسم مُشجعاً فتنبتسم وهي تعود لمجلسها أمام اللابتوب.

أدور في القاعة مُراقباً ما يدور حتى ينتهي العاملون من عملهم. وفور انصرافهم ينتشر الهدوء

بينما أشعة الصباح الدافئة تنساب في أقماع مخروطية من بين الستائر المخملية الثقيلة. أتخذ مجلسًا بالقرب من نانسي.. وأسألها بغتة كأنني أنطق من أعماقي:

- هل تذكرين كيف التقينا يا نانسي؟!
تضحك برقة وتقول:

- طبعًا.. في بداية عملي في سكرتارية قسم التخدير بالكلية.
- كنتِ شغلة نشاط وكنتِ أمهر وأكثر احترافية من أن تكوني موظفة حكومية.. وحين فكرت في تأسيس شركة كان وجودك شرطًا أساسيًا لأشعر بالاطمئنان.
اتسعت ابتسامتها الخجولة وقالت:

- لو لا ثقتي بحضرتك لما خاطرت بترك شغل الحكومة.. ولكنك كنت دائمًا على قدر الثقة.
أتنهد وأنا أقول:

- كان عملنا معًا على مر الأعوام الطويلة ممتعًا.
فتخني رأسها موافقة وقد بدا في نظرتها الامتتان للذكرى.. ويخطر لي خاطر عجيب نفذته بلا تردد، فأسألها:

- لماذا لم نرتبط أو نعيش قصة حب يا نانسي؟!
تضحك بشدة، ثم تقول بجديتها العريفة كأنها تكبر خمسة عشر عامًا دفعة واحدة:
- هذا لأنك محترم.

- وما علاقة الاحترام بالحب؟!
- المحترم لا يحب بلا سبب.
- حقًا؟!
- فهو لا يجذب إلا لمن تملك الصفات التي ينتظرها! المحترم لا يدخل في علاقة إلا وهو يعرف نهايتها.

- ومن يعرف النهايات؟!
- المحترمون يعرفون.
- إذن فلم تفسد قصص حبّ لمُحترمين؟!
- لأننا لا نجيد الاستماع إلى الإشارات.
- حقًا؟!
- جرب بنفسك.
- كيف؟!
تبتسم بلؤم، ولكنني أشعر بالهام غامض كالنذير..

يجيء دوري عند الظهيرة لأعقب على النتائج التي عرضها موظفو المبيعات والتسويق خلال النصف الأول من اليوم، فأتخذ موقعي أمام الشاشة البيضاء وأبدأ في الحديث ممثلًا بالنجاح والثقة، وحين يسقط وهج البروجكتور على وجهي أثناء مروري، أرمي ببصري صوب بيريهان فأجدها

هائمة تمنحني تلك النظرة!
تهبني بيريهان روحًا جديدة كالخلود.
وأتساءل متى تعترف بحبها!؟

- ١٠ -

على تليفون غرفتي وبينما أتهياً لتبديل ثيابي أثناء راحة الظهرية تتصل بي نانسي، وتقول بنبرة أليّة:
- دكتورة بهيرة ستصل السخنة خلال نصف ساعة.. وستتغدى معنا.. تقول إنها اتصلت بحضرتك كثيراً على الموبايل.
أرمني بنظرة على الموبايل فأجده صامتاً منذ نهاية الاجتماعات فأعتذر لها وأشكرها..
أغلق الخط وأتصل فوراً ببيريهان أدعوها لمشاركتنا الغداء مع بهيرة..

- ١١ -

مُفعمًا بالسعادة والرضا أجلس أمام مائدة ممثلة بصنوف الأسماك والسلطات، عن يميني نانسي وعن يساري بهيرة ثم تتضم إلينا بيريهان شهية كحياة ملؤها العافية.
ويدهشني أن بهيرة لا تنتظر أن أعرفها ببيريهان. وتقول بلا تمهيد:
- كم عمرك يا بيريهان!؟
وتحدجها ببيريهان بنظرة ثابتة ولا تُجيب. وعلى الفور تقول نانسي:
- ٢٥ سنة.
فتقول بهيرة وهي لا تُلقي بالآ لتجاهل ببيريهان:
- جميلة أنت يا بيريهان.. وذكية.
تتحرف شفتا ببيريهان فيما يشبه ابتسامة، وتقول:
- ميرسي.
ثم تُردف بلؤم:
- حدّثني دكتور طارق كثيراً عن حضرتك.
مما يعني أنّ ثمة حديثاً دائماً بيننا. لكن بهيرة لدهشتي تسعد بذلك وتقول ضاحكة:
- حقاً!؟ ماذا يقول عني!؟
- كل خير.
فتقول وهي تضغط على حروفها:
- طارق أخي وابني.
ثم تلتفت إليّ بنظرة رقيقة مطمئنة.. وتميل على أذني وهي تهمس:
- أخيراً!
أتساءل بنظرة وأنا أراقب نظرات ببيريهان الممتعضة، فتميل مرة أخرى وتهمس:

- أشعر أننا سنحتفل قريباً بوداعك للعزوبية الطويلة وشفانك من سم نوران القاتلة!
لا أتذكر من نوران إلا أنها سبب إحساسي الممتع بالشفاء.. بينما يملؤني الهناء وأنا أرى رضا
بهيرة عن بيريهان!

-١٢-

في المساء ألتقي بيريهان على الشاطئ المظلم بعيداً عن الأعين.. وأقول:
- ألاحظ وجومك منذ الغداء.
تجلس على الرمال أمام شيزلونجات الشاطئ الناعسة، ثم تقول وأنا أرى اختلاجات ملامحها
المضطربة على ضوء القمر:
- هل أقول لك سرّاً؟! ولكن عذني ألا تغضب.
أجلس بجوارها وأنا أقوم قلقاً غامضاً يزحف كالموج فوق نقوش السعادة، ثم أقول صادقاً:
- أعدك.
فتزفر لتستجمع شجاعتها ثم تقول:
- الحقيقة أنني لم أرتح لدكتورة بهيرة.
هاهي ذي مُغصات جديدة تجيء بلا دعوة. فأسألها وأنا أشفق من دخولي في عاصفة جديدة بعد
صفاء الجو:
- ولم؟!
- لها نظرة مؤذية.
- بهيرة! إنها ملاك.
- هكذا تراها أنت.
- ولماذا تظنين عكس ذلك؟!
- لها نظرة عين عمته مروة.
- ماذا؟!
- لها نظراتها الحادة التي كانت تُصوبها دائماً نحو ماما ونحوي.
- هذا غير صحيح.
- أنا لا أهذي.. النظرة محفورة في قلبي كالوشم منذ الطفولة.. وهي نظرة دكتورة بهيرة أيضاً.
- ولم يحدث ذلك؟!
- إنها تحبك كما أحببت عمته مروة بابا.. لذلك فهي ترى دائماً أنك لا تستحق إلا امرأة بمواصفات
خاصة.
- مواصفات خاصة!
- على مزاجها.. لتضمن راحة بابا وراحتك.
ونصمت وأغرق في تأملات عميقة وداكنة كالليل.
إن بيريهان تغار.. وهذا أساس انطباعها العجيب عن بهيرة.. ولكن.. ما هذا.. إن سيرتي لا تأتي
إلا برفقة سيرة «بابا».. أم أنني أتوهم ذلك!؟

-١٣-

يوم عمل جديد.. ولكن حديث الأمس قد ترك فيما يبدو أثره على ذهني وتعكر بالي.. لذلك أترك لنانسي إدارة الاجتماعات وأسير هائماً على الشاطئ.. أو أنطلق بسيارتي كالصاروخ في محاذة البحر الأحمر على طريق السويس.
هل يمكن أن نهناً برحلة ناعمة بينما إطارات سيارتنا معطوبة؟! وكيف تطيب الحياة وشرابينا تضيق بحجارة الماضي السوداء؟!
وأراجع طوال اليوم بعينٍ مُدققة، وقلب مُتيقظ للإشارات - كما طلبت نانسي- غرق بيريهان مرة بعد مرة في ذكريات خيالية عجيبة..

-١٤-

بينما أجلس على البحر في آخر اليوم أراقب الغروب الهابط تأتي بيريهان، فأبتسم بعشق خالص وأنا أوجل صراعاتي الداخلية. وتجلس بجواري شاخصة إلى البحر الهادئ والأفق البرتقالي، ثم تقول:

- أنت بخير؟!

أرنو برجاء إلى ملامحها الأنعم من الغروب وأرد:

- وجودك بجواري هو الخير.

تبتسم رغم ما أراه بادياً من تغيرها. وتقول:

- هل تحبني يا دكتور؟!

- دكتور!

تضحك بشدة، وتقول:

- أسفة.

ثم وهي تنظر لعمق عيني:

- هل تحبني يا طارق؟!

- ردي معروف.. لذلك أرغب في سؤالك ذات السؤال.

تضحك بغتة.. ثم تقول مُراوغة:

- هل عندك شك؟!

- أريد أن أسمعها منك صراحة.

- هل أقول لك سرّاً؟!

- قولي.

- كنت سأحبك أكثر لو كنت أكبر من ذلك بخمسة عشر عاماً مثلاً.

- خمسة عشر عاماً إضافياً تعني أن أكون في الخمسين.. ما فائدة ذلك؟!

- ثمة الأمان والحب الحقيقي.

- حقاً! أي جنون!

- جنون! ربما يكون كذلك حقًا.. ولكن متى كان الحب منطقيًا؟!
أهز رأسي مُتفكرًا، ثم أقول:

- والآن.. ما هو مقدار حبك لشاب في الخامسة والثلاثين؟!!

تفرج بين إبهامها وسبابتها مقدار سننيمترات، وتتفجر في ضحكتها المراوغة.. لا أبتسم.. فتصمت
ثم تُطيل نظرتها إلى عيني كأنها تُفكر في مهرّب جديد.. أندھش من جفولها ومن محاولتي انتزاع
كلمة الحب من شفّتيها إذ أتيقن أنها اعترفت به قبل ذلك مرارًا.. وأرى المشاهد الرمادية تلوح في
أعماق ذاكرة تهتز على بوابتها أغصان الأشجار فلا أكاد أظفر بصورة كاملة..
ولكن ما أبغض هذه النظرة الطفولية التي توقظ آلامًا قديمة منقوشة بماء النار.
وتطول نظرتنا ويطول صمتها.. لا ترد بيريهان على السؤال ولكني ألمح في عينيها حكايات قديمة
مؤلمة تمور بقلبها كحمم بُركان.

لماذا تتعقد الحكاية السهلة وقد بشرت بالحل القريب؟!!

وتُفاجئني بيريهان فتقول بلا مناسبة وبصوت يُشرف على البكاء:
- عدني ألا تتركني.

فأطوي قلبي على مصهور العشق والألم.

متى صارحتني بيريهان بالحب فجرعته ذات يوم دفعة واحدة ككأس خمر وجنون بينما ترمقني
اليوم بعيني طفلة ضائعة؟!!

- ١٥ -

أفتح باب غرفتي فتسلمني نانسي أسطوانة وهي تقول ضاحكة:

- دكتورة بهيرة طلبت مني أن أعطيك هذه السي دي.. وهي تُوصيك بألا تتوقف عن سماعها طول
اليوم.

- لماذا؟!!

لكنها تتصرف ولا ترد.

وحين أضع الأسطوانة تفوح نشوة قديمة.. ويسري همسٌ يعرف طريقه ومُسنقره في قلبي مُرددًا
بين الموسيقى الناعمة:

الورد كله.. كسا الجنانين..

واشمعني إنتي اللي شاردة منا؟!!

فايزة أحمد!

أرنو ضائعًا إلى البحر.

ما أعجب أن تهبّ تلك النسمة المُنعشة وأنا أردد مسحورًا ما تهمس به الأغنية!
وما أحب اسمها ذاته! فايزة..

- ١٦ -

تأتيني بيريهان باكية في اليوم قبل الأخير من الـ Cycle meeting.

وَأَلْتَقِيهَا بَحْنَانَ فَرْعٍ وَأَنَا أَتَنَاوَلُ فَنْجَانَ قَهْوَةَ فِي الْحَدِيقَةِ أَسْفَلَ بَرَجُولًا تَحْفَهَا أَشْجَارُ الْجَهَنَّمِيَّةِ
وَزَقْرَقَاتٍ طَيُورٍ صَغِيرَةٍ. وَأَهْتَفُ:

- ماذا حدث؟!!

فَتَجْلِسُ أَمَامِي دَامِعَةَ الْعَيْنَيْنِ تَحْدِجْنِي بِنَظَرَةٍ لَائِمَةٍ بِلَا كَلَامٍ.. فَأَكْرُرُ سُؤَالِي فِي قَلْقٍ:

- مَا لَكَ يَا بِيرِي؟!!

- نَانَسِي وَبَخْتَنِي أَمَامَ الْمَوْظِفِينَ بِسَبَبِ مَلَابِسِي.

تَدُورُ الدُّنْيَا.. تُعَاوِدُنِي أَشْجَانَ قَدِيمَةً وَقَلْقٌ كُنْتُ نَسِيْتَهُ.. وَأَقُولُ فِي دَهْشَةٍ:

- وَلَكِنهَا صَدِيقَتُكَ!!

- نَانَسِي لَا تُجَامِلُ وَلَا تُصَادِقُ.

أَتَفَكَّرُ فِي قَوْلِهَا شَارِدًا فَتَقُولُ وَهِيَ تَتَأَهَّبُ لِبَكَاءٍ جَدِيدٍ:

- كَمَا أَنْكُمْ تُعَامِلُونَنِي كَأَنَّي مَوْظِفَةٌ بِالشَّرِكَةِ لَا شَرِيكَةَ بِهَا!

أَتَقْرُسُ فِي وَجْهِهَا مَحَاوِلًا الْعَثُورَ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهَا.. وَأُتَسَاءَلُ هَلْ ثَمَّةُ مَا تُخْفِيهِ عَنِّي ذَاكِرْتِي
الرَّمَادِيَّةُ؟! مَا سَبَبُ شُعُورِ بِيرِيهَانَ بِالتَّمْيِيزِ؟! وَكَيْفَ تَكُونُ شَرِيكَةَ بِالشَّرِكَةِ؟! هَلْ تَزَوَّجْتَ مِنْ
بِيرِيهَانَ؟! وَتَرُوعُ الْأَجُوبَةَ مِنِّي كَالْعَادَةِ خَلْفَ الْأَغْصَانِ الْمَهْتَزَةِ عَلَى بَابِ الذَّاكِرَةِ.. وَتَقُولُ هِيَ
بِبَسَاطَةٍ:

- هَلْ نَسَيْتَ كَلَامَكَ؟!!

- كَلَامِي؟!!

- أَنَّنِي سَأَكُونُ صَاحِبَةَ الشَّرِكَةِ يَوْمًا مَا.. وَأَنَا سَنَبْنِيهَا مَعًا.

أَتَشْبِثُ بِأَيِّ خِيَطٍ يُوصِلُنِي بِالْمَجْهُولِ الْغَامِضِ فَأَهْتَفُ:

- مَتَى قَلْتَ ذَلِكَ؟!!

- زَمَانُ.

- زَمَانُ؟!!

وَأَتَقْرُسُ فِي مَلَامِحِهَا.. هَلِ التَّقِينَا قَبْلَ يُولِيوِ الْمَاضِي؟! مَتَى أَتَمَكَّنُ مِنْ ذَاكِرْتِي فَأَقْبِضُ عَلَى
أُمُورِي كَمَا كُنْتُ دَوْمًا.. أَمَا هِيَ فَتَقُولُ:

- قَبْلَ النَّوْمِ كُلِّ لَيْلَةٍ.

فَأَهْتَفُ بِقُوَّةٍ:

- بِيرِيهَانَ.. إِنَّكَ تَهْذِي.

فَتَهَبُّ مِنْ كُرْسِيِّهَا وَهِيَ تَقُولُ:

- أَنَا لَا أُنْسِي.. وَعُودَكَ بِقَلْبِي مَحْفُورَةً كَالْوَشْمِ مِنْذُ الطُّفُولَةِ.

ثُمَّ تُطَالِعُنِي بِالنَّظَرَةِ الْقَاتِلَةِ لِطِفْلَةٍ ضَائِعَةٍ.. فَأَوْشِكُ عَلَى الصَّرَاخِ لَوْلَا دَوَارٌ حَادٌّ يُدَاهِمُنِي كَالْغُرُقِ..

- ١٧ -

كمد.

ملل.. وضجر.. وألم.

وأقترب بلا داع من الأفق الضيق البغيض بعدما طُرت طويلاً في السماء.
بيريهان المعشوقة تضيع من يدي بسهولة بعد أن أوشكت أن تصير ملكي بلا منازع.. الماضي
يبتلعها كالرمال المتحركة ولا ترى في الدنيا إلا ظلاً تجهد نفسها في تتبعه.
وأفكر فيما أدى لذلك الوضع السيئ وذلك الحصار الممزق بين فرصة جميلة سائحة وأفق ضيق
صلب فتراوغي الذاكرة من جديد داخل رأسٍ يترنح كمُصاب بضربة شمس.
ويثقل ضغط الأفق على صدري وأرنو إلى فنجان القهوة أمامي على الطاولة وتفعم أنفي رائحته
الداعية ولكنني أعجز عن تناوله رغم حاجتي إليه.. وتُغني فايزة أحمد:
بكرة تعرف..

تعرف.. يا حبيبي..

بعد ما يفوت الأوان

أغنيتها الأيقونية التي كانت يوماً ذات تأثير حاد في حياتي.

ولكن متى كان ذلك؟!

وبدلاً من التيه العبثي وراء هذا السؤال الذي لن أعثر على جوابه، أتساءل كيف نسيت أن أطفئ
مُشغل الأسطوانات في غرفتي؟!

وتُقبل نانسي مترعة بالنشاط والأمل كأن الكون لا ينهار. وتجلس بجواري وتقول:

- عندي لك مفاجأة عظيمة.

بأنفاسي المتهدجة أ همس وأنا أحترق راجياً أن أجد علاجاً لحالتي:

- قولي.

فنقول بجدها المعهود وابتسامة شابة:

- هل تتذكر مشروع حديقة المستشفى الدولي؟!

- طبعاً.

- وجدت الحل.. المهندسة الزراعية التي صممت اللاندسكيب الخاص بالفندق.

- ما لها؟!

- هي هنا وستُقابلها بعد ساعة.. لو تم الاتفاق معها يا دكتور سنتنقل الشركة نقلة عظمى.. تخيل

قيمة أن نتفوق على جميع منافسينا بأن نضيف لخدماتنا الطبية تصميم الحدائق الخاصة
بالمستشفيات.

ثم تُشير بذراعين مفردتين للحدائق التي تحيط بنا من كل جانب وتقول:

- هل ترى أعمالها؟! إن شاء الله ستكون هي الحل الرائع..

-١٨-

بينما فايزة أحمد تردد:

أنا قلبي لك مَيَّال

تُقبل المهندسة كنغمة مُتممة.

تسير تمامًا خلف نانسي ذات القامة الفارعة والخطوة الرشيقة.. فتبدو وتختفي كما تبرز دقة العود الحانية لحظات ثم تغوص خلف موجات الكمان.. أراقبها وأنا أعاني من الدوار البغيض والرجاء المفاجئ.. وأنتظر مُثولي بين يديها كأنها المالكة الوحيدة للأكسجين والبُن في العالم.
وفائزة أحمد تُردد في إصرار:
ومافيش غيرك ع البال..

-١٩-

نتصافح.. ثم تجلس أمامي وتغوص داخل قلبي.. وتتداح موجة من الراحة والسعادة كأنني أعرث على أمي من جديد. وتُشير نانسي بيننا معرفة:
- دكتور طارق الكيلاني.. مهندسة فائزة عمّار.
وتتلاقى أعيننا فتتحرك أشواق مُبهمة تلقائية كالتنفس والحب.. وترش الأسطوانة حزناً رقيقاً بين نغمات تهمس:

وقدرت تهجر.. يا قلبك

وقدرت تصبر.. يا بختك

فينقبض قلبي بشعور ذنب لا أعرفه بيقين.. وأديم النظر إلى الفتاة التي ترمقني بعين كسيرة فتنتشر بحناياي كبُخار المخدر ويلفني حضورها من رأسي حتى قدمي بهيئتها الحزينة البادية بوضوح.
ورغم ثباتها وصمتها فإنني أسمع نشيج بكائها فتداح الكأبة من مركز ساحة السعادة البيضاء وأقول كالمُخدر:
- عندي مشكلة كبيرة.

فتقوم بغتة وقد ضيّقت عينيها تنظر إلى شيء ما برأسي.. تقترب جداً فيغزوني عطرها المُلهم ويحتويني كيائها المزيج من البراءة والإثارة.. ويستجيب لحضورها إحساس داخلي كما يستجيب ثعبان لمزمار الحاوي.. ويتضاعف توتري.. أما هي فتقول وهي تمد يديها إلى جيبني قائلة بذات الحزن:

- غير هذه الجروح!؟

وأنظر إلى نانسي فتقول بحماس تؤكد قولها:

- إن شاء الله ستكون هي الحل الرائع.

وأقول أنا مرة أخرى وأنا أغوص بسواد حدقتيها الخرزيتين:

- مشاكلني لا تنتهي.

وتغيم نظرتها بحزن يزيد.. وتقول:

- ربما خذلك حبيب.

- لم يحدث.

فتقول بنبرة ذات مغزى:

- فربما خذلت أنت حبيباً.

ما أعتى شعوري الغامض بالذنب.. وما أنبل حزنها.. وما أعمق أثره في قلبي.. كأنه الغروب في جلاله وسطوته وقبضته الناعمة الحاكمة التي لا تقلت كائناً.. وبخاصة قلبي..

-٢٠-

في حزني أجد بهيرة تحدجني في همّ، فأتساءل في دهشة:

- ألم ترحلي بعد؟!
- ليس قبل أن أطمئن عليك.
- إنني مُعذب إلى الأبد.
- يقول محسن إنك تقترب من الشفاء بسرعة.
- أي محسن منهما؟!
- يقول أيضاً إن رأس الطيبي ما زال يطاردك كما يطاردك ظل والد بيريهان الذي انتهى به الحال كصورة في صالة بيتهم.
- إنني أختنق يا بهيرة.
- ولكنك ستنتصر.
- وأشير فجأة إلى ظل فائزة التي تعبر ردهة الفندق بصحبة نانسي:
- هذه.

فيُشرق وجهها بضحكة وتقول:

- ما لها؟!
- أريد أن أتحدث معها على انفراد.
- ألم تكن معها منذ قليل؟!
- كان معنا حزن ولوم وألم.
- تشرد وهي تنتظر إلى فائزة فأرى بعينها نظرة ناعمة، فأتذكر قول بيريهان عن نظرتها الحادة، وتقول:
- غداً ستكون معها.
- وأراقب سير فائزة البطيء كأنها تحمل أوزار البشر وأسأل نفسي: من يتحمل حزن هذا الملاك؟!
- وتترك خلف خطواتها طيف موسيقى حزينة تُردد بلا توقف:
- حمّال الأسية..
- ظالمينك حبايبي..
- فأبكي بحرارة وألتزم الصمت..

-٢١-

أهذا البحر الأحمر أم النيل؟!

أنا وفائزة نجلس في هذا المكان العجيب الذي ينغرس من ناحيته الجنوبية في حدائق الفندق بالعين

السخنة ويطل من جانبه الآخر على النيل كأنه الكازينو النيلِي العتيد الذي شهد مسرّاتي كلها.
وفائزة تجلس قبّالتي يتلألأ وجهها الجميل بومضات ذهبية تُرسلها الموجات الصغيرة اللاهية تحت
شمس صيفية قوية.
ينفرج حزنها قليلاً عن ابتسامة عذبة، فينشرح صدري وأقول وأنا أحاول أن أجد جانباً مُثيراً
للحديث:

- يا لها من صدفة عجيبة!
- فتزوي بين حاجيها مُتسائلة، لُتطالعني بلمح آخر من جمالها الرقيق، وتقول:
- أي صدفة؟!
- منذ أسبوع وأنا أستمع لفائزة أحمد بشكل مرّضيّ.. فكأنها استدعتك.
يُفاجئها قولي كما يبدو فتضحك لأول مرة وتُغطي ثغرها بكفيها العاجيتين فيتركز سحرها المُلهم
في عينيها الساحرتين.. وأقول هائماً مُكرراً قولي:
- يا لها من صدفة عجيبة!
- تتسحب موجة الضحك فتُفسر عن ملامحها الجادة شيئاً فشيئاً ثم تقول بصوت ناضج مُترن:
- إنها لعبة من لعب الأيام.. فلا شيء يحدث إلا لأسباب.
لعبة الأيام؟! أه.. ما أسوأ الذكريات وما أشد عتمة عيني وعبث ذاكرتي! متى عرفت لعبة الأيام
لأول مرة؟! ومن أنبأ فائزة بالسر الخطير؟! وكيف تطيب لها الحياة بعد ذلك؟!
- كل شيء يحدث لأسباب.
- هذا حق.
- إذن فأنت وفائزة أحمد متواطئتان عليّ؟!
- ربما.
- وبهيرة؟!
- ما لها؟!
- هي التي أهدتني الأسطوانة.
- كانت الأسطوانة ستصلك على أي حال.
- إنني لا أكاد أعرف نفسي صدقيني.. لا أدري ماذا يحدث.. ولا كيف أتهور فجأة كأنني أذهب
إليك بفعل موجة تدفع زورقي دفعاً.
فتصمت خجلي وهي ترنو إليّ بنظرة عميقة لها دويّ حركة كونية عظيمة كأنها تخلفتني أو
تستردني من باطن الأرض.
أه.. إن نظرتها ولامحها تغرساني في نفسي من جديد.. وينتابني شعور أصيل بأنني لا شيء بغير
هذه العيون وهذه الروح.. والأسطوانة التي تطاردني تُنشد:
وقدرت تهجر.. يا قلبك
وقدرت تصبر.. يا بختك
فتُعاودني الرغبة العارمة في البكاء ولوم الذات..

-٢٢-

في طريقي إلى عُرفتي ليلاً تشيعني أنفاس الحديقة الباردة وأزيز الصرار.. وسؤال يسعى خلفي
كما تسعى الموسيقى الحزينة خلف طيف فائزة: أي شيء يُبرر هذا الانسراح بينما نحن نلتقي لأول
مرة؟! ولم - في ذات الوقت- تلومني؟! ولم أشعر بالذنب؟! أي شيء تخبئه عني ذاكرتي؟!!

-٢٣-

وعلى باب عُرفتي وبينما أضع الكارت المُمغنط لأفتح الباب، يجيئني صوت بيريهان الدسم يهتز
في عصبية:

- طارق.

ألتفت فيروني شحوب وجهها. وتستيقظ قلبي بعدما غفْتُ طوال اليوم. وتقول بتوتر:

- بحثت عنك طوال اليوم..

عاودني لمرأي بيريهان شعور قديم بغيض افترسني ذات عُمر حتى قلبَ حياتي جحيماً..
ألم الضمير، وشعور بالشفقة على فائزة! ولم؟! وهل فائزة أكثر من خفقة قلب مؤثرة ونغمة عذبة،
مثلها مثل بيريهان؟! أي شيء يُبرر هذا الانقباض البغيض وهذا النفور الخفي من بيريهان
المحوبة.. وأقول:

- كنت في اجتماع وحدث أن طال بعض الشيء.

- قالت نانسي نفس الكلام ورفضت أن تخبرني أكثر.. أين كنت؟!!

- ليس هناك أكثر.

يتهدج صوتها كمن تنهياً للبكاء وهي تقول:

- هل أغضبتك؟!!

- ماذا تقولين؟! لا طبعاً.

- أنا آسفة.

- علامَ تعتذرين؟!!

- لو كنت أغضبتك.

أحملك فيها وأنا أعاني ألماً حاداً.. إن بيريهان تتألم كطفلة لا كأنسة، رغم أنها تقوم أمامي كما
قامت دائماً مثلاً كاملاً للفتنة والأنوثة المتوحشتين التي تعذبني منذ عصور لا أذكر عددها..
ويتحسس شعور ضئيل بالأبوة طريقه من الظلام.. وأمتعض من ذلك، فأمسك بمعصمها وأضمها
إلى صدري فتستكين فيه بلهفة، وتقعم أنفي رائحة البرتقال المُسكررة فيحترق قلبي وتفور دمائي
ورغباتي الوحشية، وأضمها من جديد بعنف جائع، لكن شفاهي تنوه في الطريق نحو ثغرها الشهوي
فتلثم جبهتها الرقيقة في حنانٍ لا أقصده..

-٢٤-

أثناء الاجتماع، وبينما يعرض أحد المديرين أرقامه، ألمح فائزة تعبر خلف الستائر الشفافة للقاعة

فيخفق قلبي وأقوم مُسرِعًا. وترميني نانسي بنظرة مُشجعة بينما لا ألمح أثرًا لبيريهان. وبين صفين من أشجار وارفة تنتقش ظلالها الممشى تحتنا بالزخارف الرمادية ألتقي فايضة، فتبتسم برضا كأنها أمّلت أن أبحث عنها.. وأقول بشوق:

- متى نُكمل حديثنا؟!!

فتقول بترقبٍ ماكر:

- بشأن اللاندسكيب؟!!

أضحك وأقول:

- فليكن.

- تفضل إذن.

فأسألها:

- هل أحببت من قبل؟!!

تلتفت نحوي مدهوشة في دلالٍ جميل. ونبتسم بمكر، وتقول بلا تحفظ:

- لا يجب أن أحب.

- ولم؟!!

تعبس وتقول في خفوت:

- يمكنك اعتباري مريضة.

أين سمعت ذلك القول؟! ضحية جديدة للحزن! ما أعتى الألم!

ثم تقول كأنما تهرب من الترقب اللذيذ الذي شوانا كأننا لا نقف تحت ظلال بوانسيانا وارفة:

- عندي شغل الآن.. ولكن لا مانع لو قمت به معي.

- ينفع؟!!

- سأنتقد الحقائق.. فلا مانع من وجودك.. وبالمرّة نتحدث بشأن عملنا المشترك.

وتضحك ثم تقول:

- وفوق البيعة سأعطيك تدريبًا سريعًا لتتعرف على الأشجار وأسمائها ومميزات كل نوع..

وتشير فجأة إلى البوانسيانا فوقنا وتقول:

- هل تعرف اسم تلك الشجرة؟!!

فتصدمني لمحة من حلم قديم فأقول في شرود:

- علمتني امرأة جميلة ذات يوم كل شيء.

وتحدجني فايضة في تحريض مُترقب.. وتتداح نظراتنا عن بساط مهتر كصفحة البحر الأحمر

الهادئة تعبت به نعمات كنسيم الأصيل:

ونسيت حياتي.. وسنين حياتي

وقدرت تهرب من ذكرياتي

روحي أنا.. ليه بس أنا..

ماقدرتش أنسى يوم ولا ساعة هنا..

تقول فائزة بصوتها رمز الأمان الذي عشقته:

- قالت لي نانسي إنك مالك الشركة.. فهل أنت خريج بيزنس أم طب؟! -

- كنت طبيباً حتى عام مضى!

- حقاً.. ما أجمل ذلك! وماذا كان تخصصك؟! -

- التخدير.

تضحك بمرح مُتشنج وهي تقول:

- كنت أحتاجك منذ عامين.

- لم؟! بعد الشر!

تستمر في الضحك بينما أرى ضيقاً عارماً يتسلل بين نظراتها وإن حاولت مُغالبتها، وتقول:

- دع هذا الحديث لحينه.. قل لي.. وهل تركت الطب؟! -

- بلا رجعة.

- خسارة.. لم فعلت ذلك؟! -

ووجدتني أقول بلا حسابات كأنني أجلس أمام المرأة أو أمام أمي:

- تسممت أفكارى تجاه الطب نتيجة حُب قديم قاتل.. ومررت نحو عشر سنوات لم أستطع فيها أن أتخلص من تأثير الكلمات السامة ولا من رهبة أن أفتح بيتاً بمرتب الطب الضئيل.. ولم أَسعَ أيضاً إلى أن أثرى منه كما فعل زملاء كأنني أستسلم لشعور خفي بالذنب تجاه نوران رغم يقيني أنني لم أظلمها.

وتجتاح ذاكرتي خيالات تهتز خلف الأغصان فأقول بلا تدبير:

- وبسبب من امرأة جميلة أحببتها ذات يوم.. وبسبب من عشقها الأزلي وورغبتى في أن أكون جديراً بها وأن أعالج أجزائها الطويلة تركت الطب وافتتحت الشركة وهاهي ذي تكبر كل يوم. وتسالني ودمعة تتأرجح بين جفنيها:

- من هي؟! -

الذكرى عالقة على طرف اللسان.. والماضي ينكشف عن أجزاء وتغوص في الظلام باقي أجزائه. وبعينيها تلوح نظرة عذبة.. كأنها لوم رقيق لا أعرف له سبباً.. وأعبس وأنا أعاني شعور الذنب وورغبتى في الوصول لتلك النقطة الغائمة من ذاكرتى الحمقاء.. فتُردف هي كأنها تُهون من ألمي:

- ولكن ما دُمت تستمتع بما تفعل فلا داعي للتمسك بأي معنى فارغ.

أبتسم لتشجيعها الذي أحتاجه:

- هذا ما آمنتُ به أخيراً.

وتغالب حزناً كالحجر لتبتسم.. فأود من صميم قلبي أن أضمها إلى صدري.. وتصمت فنكمل سيرنا وأقول:

- سيسرني لو تتقين بي فتحكي.

تلقت إليّ، ثم تقف جامدة بينما شجيرة الجهنمية ترتفع من خلفها ثم تتمدد هامتها الملونة عريضة كالسحابة فتظل وجه فائزة كقديسة جميلة.. ثم تستدير لنستأنف سيرنا فتجري عيناى بنهم على

نسير من الضحى حتى الأصيل. نجتاز بالحكي سنواتٍ عمرها من الطفولة حتى اليوم. وتتوقف كل بُرهة فتُشير إلى شجرة قائمة فتسميها وتؤكد أنني أنطق الاسم صحيحًا، ثم نتابع سيرنا وحديثنا، ونقول وهي تروي حكاية كنت أعرفها - بلا أدنى شك في زمن ما- كما يبدو من ومضات تشرق كل حين كالشمس من بين الأغصان:

- بابا! مات بابا وأنا أتهدج لوداع الجامعة.. ثم تبعته ماما بعد اثني عشر شهرًا بالتمام..

فايزة يتيمة مثلي.. ومثل بيريهان.. وأقول بحذرٍ حنون:

- هذا يُبرر حزنك الكبير.

ترنو إليّ بنظرة عميقة، طويلة الصمت، كأنها تدعوني لأن أكف عن المزاح، أو كأنني أعرف سبب حزنها الحقيقي. ولمّا لم أهتز تقول:

- ولم أحن؟! كلنا نسير لتلك النهاية.

تدمع عيناك إكبارًا لقوتها.. كم وددت لو أمتلك تلك القوة تجاه الموت وتوابعه.. إنني أنجذب إلى فايزة كل لحظة لسببٍ جديد.. وهأنذا أقوم شعورًا جنونيًا بأن أترك جيبني على صدرها الحنون لأتعلم كيف أواجه الحزن.

وتكلم حديثها وهي لا تلاحظ شرودي:

- ليس في الموت مفاجأة لنحزن.. المفاجأة المحزنة بحق أن يخذلنا من نحب!

ويشتعل قلبي، فتقول بصوت تجذبه فوق أرض مزروعة بالشوك:

- تامر.. الجار وزميل الكلية والحبیب الذي وضعت بين يديه العمر الماضي والقادم.. آه يا ربي ما أشد الألم.. إنني أعتصر روعي لأحكي تلك الحكاية البغيضة.

وأمد يدي فأغلق فاهما لتصمت وأنا غارق في شفقتي عليها، ونقف وقد وصلنا إلى آخر متر من الحدائق المترامية التي تحيط بالفندق. وأدهش إذ أجد بقلبي الحكاية كاملة كأنني سمعتها أو كأنني كنت أحد شهودها. تامر خطيبها النذل الذي أحبته منذ الإعدادية ثم خطبها عقب التحاقها بكلية الزراعة، ثم تكتشف ذات يوم أنه يخطط للاستيلاء على ميراثها الكبير من الأبوين، ولولا يقظة عمها لضاعت الثروة إلى الأبد.. وتجري أمام عيني صور مُضَيِّبة أرى فيها عذابات فايزة ودموعها.. ومن جديد يراودني حلم مُوغل في القدم بأن أعتز على تامر لأقتله.

وتُزيح فايزة يدي من فوق ثغرها وهي تُشير بابتهاج مقطوع الصلة بالحزن الذي يُظللنا:

- وهذه الكازوارينا.. أفضل دائمًا أن أضعها على الحدود فهي أفضل ما يقي الحدائق هبات التراب.

لكن يغلبها البكاء مرة أخرى، ويتهدج صوتها، ويتنابني كمدٌ وضيقة صدر قاتلة وغيره جنونية، وأقول على رغمي وأنا أرنو إلى ملامحها الشابة:

- لك عينا أمي الدامعتان وشعرها الأسود الجميل.. ولكنك أقوى بكثير.

وأسأل نفسي: من يتحمل حزن هذا الملاك!؟

فايزة تتغلغل بحياتي.
ولكن شعوري - حين أدقق النظر - عكس ذلك تمامًا.
إنها تنمو من الداخل كبذرة منسية في القلب صادفتُ مطرًا.
إنها تتجلى شيئًا فشيئًا كنبوءة تتحقق.. أو كرؤيا دأبت على زيارة منامي طيلة قرون.. فهي وأنا جزء لا ينفصم.

إنني أحبها.. كما أنها تحبني جدًّا.. فهل اعترفت لي بذلك؟! أحاول التذكر لكنني أتوه من جديد..
ولولا أشجار الكازوارينا المغروسة بالقلب والحكايات المبللة بالدمع والعشق والوعود التي قطعها قلب هائم ذات يوم مجهول لقلت: لم تعترف فايزة بحبها بعد!
وأسير في ضوء القمر نحو البحر.. وأرتمي فوق شيزلونج غافٍ، وأحدق في السماء بينما صوت الصرار والكائنات الليلية تعزف في الخفية خلف وشوشات رقيقة لأمواج ناعمة وصوت فايزة أحمد الخافت الذي لا أتبين كلماته.

أتوه في أفكاري أو تأخذني سنة خاطفة، وحين أفتح عيني أجد بيريهان قائمة فوق رأسي. وتتلاقى أعيننا فتبتسم من وضعها المقلوب. وأنظر إلى ملامحها فيدهشني أنها تبدو أكبر سنًا من فايزة التي تبدو رغم الحزن في العشرين من عمرها. ثم تجلس على ركبتيها عند رأسي وهي تحيط وجهي بكفيها الرقيقتين. تختفي عن نظري لكن عطرها ومس كفها يستوليان عليّ تمامًا. وتقول بنبرة حزينة:

- إنك تهمل الشركة يا طارق.

- لا.

- إنك لا تحضر الاجتماعات.. أين تختفي؟!!

- أخوض مفاوضات لأوسع نشاطات الشركة.

- ألا يجب أن تخبرني بما تفعل؟!!

- ولم؟!!

- لأنني شريكك.

- بيريهان...

لكنها تقاطعني قائلة بدلالٍ زمنٍ رائق:

- نادني بيري.. أحب نطقك لها.

يضغط الحزن القديم على صدري. ويندفع إلى لساني سؤال أزلني فأقول بلا تفكير:

- كيف ترين قراري بهجر الطب يا بيريهان؟!!

- كان واجبًا.

- حقًا؟! فلم تكوني لتحبينني إذا كنت طبيبيًا؟!!

- لم أحلم يومًا أن أحب طبيبيًا.

- إذن تحبين أحلامك.

- أنت أحلامي.

- ولكن المصادفة التي قادتني لافتتاح شركة ربما لم تقع.. فكيف كنت ستحبيني؟!
- طارق.. كف عن العبث.. إنك واقع يطابق أحلامي وكفى.. ولو فكرنا في الاحتمالات الأخرى
فهي لا نهائية.

- تحبين طارق أم أحلامك؟!!

- طارق الذي هيأتني الأقدار للقائه وهيأته للقائي.
وأدوخ وأتوقف عن الحديث وأرغب في النوم فأغلق عيني.. فتطبع قبلة حانية على جبهتي وقد
ضغط نهداها القويان مؤخر رأسي.. بينما فائزة أحمد لا تتوقف عن التسرب عبر مسامي مترعة
بالعشق وبالحب الصافي.

والفرحة إنت يا حبيبي

حلاوتها وابتسامتها

ولكن بيريهان تقول برجاء:

- متى تتم الخمسين؟!!

- ٢٨ -

أتصل بصديقي العزيز دكتور محسن عبد الدايم. وأشكو حالي وأنا أستحضر دموع بيريهان وغناء
فائزة. فيقول:

- احذر من الحب المغشوش فهو يملأ السوق.

ورغم حزني أضحك بشدة.

وحين يعبث النوم بأجفاني أهمس وأنا أراقب البحر الذي يكسوه الأصيل بالجلال: أحتاج حباً لا
أنثى.. وتهاتفني بهيرة فأرفع سماعة تليفون الغرفة وتقول:

- هاه.. أريد أن أطمئن عليك!

وأهمُّ أن أسألها من تفضل.. بيريهان أم فائزة؟! ولكنني أعرف أنها لا تفضل إلا استقراري، وأنها
لن تفصل في قضيتي.. فأقول بوهن:

- الحمد لله..

- ٢٩ -

تجيني نانسى تحت البرجولا تقفز من الابتهاج.. وتقول وهي تُشير إليّ بورقة:

- المستشفى الدولي قبلت عرضنا.

أمسك بأمر التوريد بسرور، وأقول:

- كالحلم.

وتجلس وقد استبدت بها نشوة النجاح، وتقول:

- ما أعظم مهندسة فائزة!

وأجدني أهمس بغتة:

- أريد رأيك .
فتقول بخبث دون أن تنتظر سؤالي :
- أظنك اخترت .
استسلم لذكائها، فأقول :
- وكذلك أظن أنا.. ولكنني لا أفهم .
- ومتى فهمنا الحب؟!
- إنني أتساءل هل تمارس جائزة سيطرة ما على ذاتي تجعلها متفوقة في أي مقارنة ببيريها؟!
- ربما .
- جائزة تجبيني من الماضي ومما يبدو أنه المستقبل.. فيختلط كل ذلك بالحاضر؛ لذلك فلا أتمكن من عقد مقارنة عادلة بينهما .
- ومتى عقدنا في الحب مقارنة عادلة؟!
- هل أظلم ببيريها؟! أه.. كل ما أرجوه أن أنعم بلحظة من الحيات المطلق والصفاء العقلي لأتيقن أنني لا أظلم ببيريها .
- الحق أننا لم نحىّ أبدًا بعقول صافية.. إن عقولنا تمور بآلاف الانفعالات في اللحظة التي نبدا فيها غارقين في الحيات.. وسيان إن جاءتنا الانفعالات من الماضي أو من المستقبل .
- إنهما حلم جميل.. ولكن جائزة تمارس سيطرة غامضة على شعوري.. ورغم تماثلهما في السن أشعر أنها أكثر نضوجًا وعشقًا .
- لم برأيك نحب شخصًا ونرفض آخر؟! إن الأقدار تُهيئنا منذ مولدنا وعلى امتداد الطريق الطويل للحبيب الموعود.. إنها تلقي في طريقنا بآلاف المواقف.. ومنها نستخلص ضحكة تروقنا وبسمة تأسرنا وصوتًا ينفذ إلى أعماقنا ونظرة عين تنشب رموشها في القلب وسمات وصفات تمثل لنا الأنموذج الأفضل.. إن ثمار الفاكهة الشهية التي نتلذذ بها لم توجد بغتة، بل تم غرسها قبل ذلك بكثير.. إن الأقدار تحفرنا على مدار أعمارنا كرقعة بازل.. ثم نلتقي ذات يوم شخصًا يجمع المفاتيح كلها أو أغلبها.. شخصًا يطابق رسمه قطعة البازل المنتظرة.. فنحبه ثم ندعي عدم معرفتنا بالسبب!
- هذا عجيب .
- الأعبج أننا ننسى عشقنا الكبير وهيامنا بالشخص ذاته بدعوى الملل .
تذكرني الكلمة بأزمة عاصفة.. ورغبة عارمة استبدت بالخاطر تدعوني لأن أحل عالمي وأعيد تركيبه! كل ذلك كان بدعوى الملل.. ولكن الذاكرة البخيلة لا تكمل جميلها فتغرق الصور مرة أخرى خلف الظلال الرمادية بين الغصون .
وأقول بحرارة صادقة:
- أنا أحب جائزة .
تبتسم نانسي.. ولكنني أقول:
- ولكنني لا أفهم كيف أجرؤ على التخلص من عشق ببيريها السابح في دمي؟!
- لأنك في الخامسة والثلاثين فلست في حاجة لأقراص الشباب السحرية.. فأنت مُفعم به!

صباح جديد جميل.. والأسطوانة لا تتوقف عن الغناء ولا عن مطاردتي:

حبيبك وباداري عليك

ويا ريتك تفهم على طول

ويا ريتك إنت اللي تقول

وفائزة تُشرق في ثياب زاهية لأول مرة.. وتطل عليّ - في مجلسي الشاطئي المُحير - بابتسامة عريضة كالحياة حين تُقبل.. وأقول في نفسي: هكذا تُقبل المرأة المحبة.. وتملؤني لذلك راحة بلا سبب واضح.. وتجلس وهي تقول بصوت كأنه الغناء:

- بكيث عشرة أعوام حتى تخلصت من الحزن.. وهأنذا أبدأ حياة جديدة بعدما لفظت آخر دمعة تحت جذوع الكازوارينا.

وأراقب عصفورًا يحاول أن يحط فوق غصن دقيق من أغصان شجرة كافور ضخمة، وفائزة تقول:

- أمنت طويلًا أن من جرّب الحزن فعليه أن يتجنب الحب من جديد.. ولكنني استيقظت اليوم على همس يقول: على من جرّب الحزن أن يُجنب الآخرين تجربته!
وفجأة تبدأ في الغناء:

لا مش قادرة أخبي

باحبه يا قلبي..

وأحلف إنه أول وآخر حبايبي..

وتدمع عيناوي وأنا أقول:

- هل تغنين؟!

فتقول بهمس خجول:

- غلبنِي العِشْقُ فغنيت.

أقبض على راحتها الدافئة وأقول بلا تمهل:

- أحبك يا فائزة!

هذه المرة تبت الأسطوانة صوتًا مختلفًا:

أه لو قابلتك من زمان..

كانت حياتي اتغيرت

ويتهدج نفسي وأنا أحاول تفسير تدخل وردة محل فائزة أحمد فلا أعثر على جواب..

أما فائزة فتشهب في حبور عارم.. ويدهشني أنها تتحني فتقبل يدي فتبّللها بالدمع.. وهي تهمس:

- يا رب.

ويترامى إليّ صوت بهيرة ومحسن من طاولة قريبة، فأتعجب من وجودهما وأمتلىّ خجلًا أن رأيا اعترافي بالحب.. وأشيح بوجهي نحو الماء الجاري.. فأرى على صفحته الفضية توغل الأصيل

داخل ليل لطيف مُنعش. ولكنني أستمِر في مغامرتي فأقول:
- فائزة.. إنني في الخامسة والثلاثين ولكنني أرغب في الارتباط بكِ إلى الأبد.. فهل ترين أن فارق
عشر سنوات سيُشكل عقبة؟!
وتتطلق ضحكة فائزة عالية لأول مرة، وتقول:
- لكنني في السابعة والأربعين.
- لا!
ورغم الظلام تُشير فائزة إلى الشجرة فوقنا فتقول:
- انظر يا طارق، إن ثمار البرتقال انعقدت.
فأقول بتعجب:
- متى أقبل أكتوبر؟!
- منذ قليل.
كيف نمتُ كل ذلك الوقت؟! وأتساءل بدهشة:
- كيف داهمنا الخريف؟!
فتقول بهدوء كأغنية النوم:
- زالت عواصف الربيع ورحل حر الصيف فلنهنأ بسهرات الخريف الصافية.
وعلى صفحة الماء.. أرى ملامحي تخطو نحو كهولة وقور.. وأرفع بصري في فزع نحو فائزة
فلا أرى تغييرًا بملامحها الجميلة إلا تجاعيد دقيقة جدًا على أطراف الشفتين..
وأنظر نحو بهيرة، فتقول وهي تضحك:
- بعضهن لا يُصيبهن الزمن بمضاعفاته.. فلتهنأ.
فأقول:
- ليس الزمن وحده.. بل الحزن.. لعن الله الحزن.
فتضمني فائزة إلى صدرها الثري وهي تقول:
- بل رعى الله الحزن.. فلولاه لما اهتديت إليك ولضللت طريقي إلى حبك.
ولكنني أنزع رأسي من حضنها وأسأل في إصرار:
- مَنْ تفضلين؟! كوني طبيبًا أم كوني رجل أعمال؟!
- أنت فقط.
ثم تُردف وهي تضحك:
- ولو كنتَ تمورجياً أحبك أيضًا.
أضحك ثم أهمس في أذن بهيرة:
- يجب أن تتجح الشركة وأن أثرى حتى أفرغ وفائزة للحب وحده.. فلا أفقد نظرتها الحانية التي
خلقتني من جديد ولا تتوجس هي من طمعي في إرثها الكبير كما فعل تامر النذل.
وتهز نانسي رأسها موافقة في تشجيع فأتعجب أنها تسمعني. وأنعم النظر في ملامح فائزة الفاتنة
وأقول مُشهدًا نانسي:
- أنتِ الوحيدة التي صهرها الحزن فخلقها خلقًا جميلًا يا فائزة على حين شوّها جميعًا..

أما محسن فيغرق في ضحك مُجلجل وهو يقول:
- أراهنكم أنه نجح في ثقب الأفق الضيق..

- ٣١ -

على الرمال تحت ضوء البدر المستدير. تجذبني بيريهان من قميصي وتهتف هي مُغرقة في النحيب:

- أحبك جدًا.

تبوح بيريهان أخيرًا بالحب.. الأنتي وصلت الخمسين؟! أم أنني أتممت الخمسين لأحقق رغبتها؟! تمنحني اعترافها بعد عصور طويلة من الظمأ.. ولكن الزمان يُلقي بظلال ثقيلة على الوجوه.. فلا أتلقى ذلك بالسعادة المتوقعة.. بل أتلقى بدلًا منها ضربات موجعة من الضمير.. وتحذير شديد من الشخص المائل في صورتي المنعكسة عن إطار مُثبت في جدار قائم بالخلاء.. وينقبض صدري بغتة كأن الكون خلو من الهواء.. وأتلقى يدها فأقبلها بحنان وقد امتلأ قلبي بالفزع.. ولكنها تهتف مرة أخرى:

- أحبك يا دكتور.. ألا تسمعني؟!!

وأعاني ما يشبه الاحتضار فلا أرد وتقول:

- رأيتك وأنت تُقبلها.. رأيتك وأنت تذوب بين يديها.. لكنك تحبني.

وأختنق أكثر وأتمادى في صمتي، فتهب واقفة وهي تزوم ثم تركل بقدميها الرمال في وجهي وتهتف من جديد:

- تحب فائزة لأنها تُشبهك.. وتتذكر نوران لأنها عذبتك.. وتعشق ماجي لأنها جنونك اللانهائي.. وأنا؟! فلا شيء أكون أنا لأجذب انتباهك.. لست إلا ظل الحب على حين تبحث أنت عن الحب ذاته. أهم أن أقول إنني همت بك، عشقتك، هممت بالإطاحة بكل شيء لأجل عينيك، ولكنني لست إلا ظل أبيك وصورته المعلقة بالصالة. وتنقذي فائزة التي تقبل مسرعة فتمسك بيديها الثائرتين. وتضمها إلى صدرها فتتضح لي ضالة بيريهان.. وتتجلى أخيرًا في حجم طفلة مراهقة.. وتنتحب في حضن فائزة ويجذبني نحوها شعور غامض جديد.. أشبه ما يكون بالحنين.. وأهم أن أناديها لكن تترنح ذاكرتي فأهمس مرة بيريهان ومرة علياء! أما هي فتهتف من جديد:

- فلتكن أي شيء.. ولكن لا تمت.. عدني أنك لن تموت.

وترفع فائزة إلي نظرة دامعة. بينما بيريهان تصيح بين الحين والحين بصوت ليس صوتها:

- بابا!

تلمع ذاكرتي فتُهديني ومضة غائمة تتبدى فيها فائزة مهوشة الشعر إثر سهرة ثقيلة ثم تهمس:
طارق لا تخرج اليوم بالله عليك.
أما الضيق الذي أعانيه فإنه ينذر حقًا بالموت..

- ٣٢ -

يرتج جسدي بعنف.. وأنا أهرب من لسع البرق تحت سماء مُمطرة.. يصعقتني البرق بلا رحمة

مهما اختبأت داخل المدينة الواسعة وشوارعها الداكنة.. أروم بكل قوتي الوصول إلى الأفق الذي يُطالعني خلف البحر الواسع وأمواجه العالية التي أنشد بين مياها النجاة من الصعق المؤلم..
وتنتهي الطريق الإسفلتية إلى رمال تمتد تحت سماء مُشرقة لا أثر فيها لمطر ولا برق.. فأجري لبضعة أمتار داخل الشاطئ ثم أسقط منهكاً بفعل العمر وإجهاد الرحلة الغامضة واللعبة المثيرة..
أغمض عينيّ مُستدعيًا السكينة والراحة، فتقعم أنفي رائحة جلد أنثوي مثيرة.. أعرفها جيدًا وتستنكن بذاكرتي إلى حد أن أتمنى لو نسيتهما.

وأفتح عينيّ.. فتطالعني ماجي بجسدها البض المُندس في البيكيني الأسود.. تقف فوقني وقد أحكمت ساقَيْها حول رأسي.. فأطالع بنظري فخذِيها اللتين تمتدان ثم تتطبقان عند فرجها كما تتطبق السماء على الأرض عند الأفق.

أهّب مفزوعًا.. وأدجها بكل ما يمور بنفسي من ألم وغضب وعشق.. تهالني ملامحها الفاتنة كأنها لم تتزحزح في الزمان خطوة، بل لعلها تتراجع فتصير في منتصف العشرينات.. وأقول جسدي الكهل لأستطيع الجلوس وأنا أهتف مجاهدًا ليتغلب صوتي على وشيش الموج العالي:
- ماجي..

فتدوي ضحكها وتهمس بالدلال القديم:

- طارق.

يأتيني صوتها ممزوجًا بهدير الموج والملوحة المثيرة ورائحة جلدها المخدرة.. فأهتف:

- إنك هنا؟!!

- ومتى رحلت؟!!

- أنتِ غير حقيقية.

- حقًا؟! وأنت الحقيقي؟!!

- إننا نزحف نحو الشيخوخة بينما تُوغلين في الشباب.

فتضحك وتقول:

- وأنت؟! هل يوغل كُلك في الشيخوخة؟!!

- ماذا؟!!

- ألم تُطاردني بكل قوتك رغم دخولك الخمسين؟!!

- حقًا؟!!

- عشقتني.. فعشقت بناتي الواحدة بعد الأخرى.

- نعم.. عشقت بيريهان.

- طبعًا.. فإنك لا تعشق واحدة من بناتي من دوني.

- ولكن مهلاً.. ألك بنات غير بيريهان؟!!

- ألا تعرف؟!!

- لا أعرف!!

- عشقتني فعشقت فائزة ذات يوم.

- فائزة؟!!

- وعشقت نوران رغم رفضي المتكرر لعلاقتكما.
- إنني أحتضر.
- لا تخف.. ستقوم.. بعد أن تعثر على شبابي في قلبك.
- وزحفي نحو الأفق؟!!
- لا أفق هناك صدقني.. ستأخذك ابنتي علياء إلى سماء جديدة بغير حاجة للعناء ولا للثورة.
- إنني أحتضر.
- لن أستطيع أن أمنحك عمري المديد.. ولكني سأهبك محبتي مرة أخرى فلتنعم بالشباب إلى الأبد.
- أرنو إلى فنتتها الشهية والتماع جلدها الأبيض تحت الشمس الناعمة. فنراودني أحيلة قديمة تبعث شهواتي وتفتح النار من جديد في أوردتي.. ثم تتحني فوقني فتفعمني رائحتها الملهبة وتمسك برأسي ثم تدفع بشفتيها إلى ثغري وتمنحني قبلة حارقة كأنها تبث فيّ كياناً جديداً.. وتهمس بصوت قديم محبوب:
- قَم يا طارق.. إن السعادة ملك يمينك..

وراء الأفق

تجلي المشاهد عن غرفة بيضاء.

وتهتز جفونه وشفته كأنما يُودّع مسافرًا.

ثم يفتح بجهدٍ، عينيّه الدامعتين، فترتفع ضجة صاحبة في الغرفة.
أهات وتصفيق وبُكاء وحمد.

يجيل بصره فيتلقى فيضًا من الحب والأحداث المنسية والأشخاص المحبة وطيب يبدو من نظرتة
الفخورة أنه قام بعمل بطولي ثم لا يلبث أن ينسحب من المشهد.

وعن يمينه حيث يتجه رأسه المُلقى بلا حول، تجلس فائزة على ركبتيها على الأرض جوار
سريره قابضة على كفه، وفوق كتفيها بيريهان وعلياء يحدقان فيه بأعين محمرة مغرورقة. تُقبل
فائزة يده وهي تقول:

- الحمد لله.. حمدًا لله على سلامتكَ يا روعي.

فينحرف جانب فمه ليبتسم وهو يتنفس حبورًا عارمًا يزحف كالإفاقة عقب كابوس.. وتقفز نانسي
مبتهجة فتقف إلى جوار البنات وتلوح بورقة وهي تقول:

- أمر التوريد الكبير وصل يا دكتور.. رست العملية علينا.. قم سريعًا فلدينا عمل كثير ونجاح
أكبر.

وتقبل من خلفه - من الزاوية التي لا يراها من الغرفة- بهيرة، فتجلس على طرف السرير، وتطبع
قُبلة حانية على جبينه وهي تقول مازحة:

- أشكرك يا طارق.. أطلب منك توصيلي للمستشفى فتركني في التجمع وتنتحر فأضطر للعودة
إلى الشيخ زايد بتاكسي!؟

يتذكر اليوم المرعب، وتضج الغرفة بالضحك.. وعلى رغمة يرفع عينيّه إلى عينيّ بيريهان فيسره
أن يراها تضحك في صفاء صادق.. ما أرق جمالها! ولكن لا أثر ثمة للسحر الذي أوشك أن يحمك
لتنقلب على العقل والحب الأبدي والحياة الراسخة.

وتقبل بهيرة فائزة وهي تقول:

- قلت لك إن الحل معي.. أسطوانة فائزة أحمد ووردة هي التي استدعته بفضل الله من جديد.

ويسمع من خلفه ضحكة محسن عبد الدايم المُجلجلة وهو يقول:

- بل استدعته الصدمات الكهربائية.. هذا رجل لا يجيء بالذوق.

ويبتسم مرة أخرى بين ضحك يرتفع. وبعد لحظة يقف محسن أمامه مليئًا بالسعادة والود،
ويتبادلان نظرة ذات معنى، ويقول محسن:

- يا ابن المحظوظة.. تناوبت الفاتنات الثلاث المبيت بجوارك منذ خروجك من العمليات..

ويشير إلى فائزة ونانسي وبيريهان.. وتقول بهيرة كأنها تعتذر:

- كان عندي عملي كما كان لدى علياء مدرستها.. ولكننا داومنا جميعًا على البقاء بجوارك منذ
الحادث.

مسح طارق بعينيّه على رعوس الجميع ممتنًا. ثم اختلجت شفته وهو يهمس لمحسن بوهن:

- أظنني اجتزت المضييق المسحور.
لا يتيقن هل وصل همسه إلى سمع محسن أم تاه في الضجيج.. ولا يهتم.
حسبه أنه يتمكن أخيراً من أن يُغمض عينيّه من جديد على حبور راضٍ وسكينة..

تمت بحمد الله

القاهرة

١ إبريل ٢٠١٩



الأغاني:


الأغنية	غناء	كلمات	ألحان
حمل الأسيّة	فايزة أحمد	حسين السيد	محمد عبد الوهاب
تمر حنة	فايزة أحمد	جليل البنداري	محمد الموجي

محمد سلطان	عمر بطيشة	فايزة أحمد	بكرة تعرف
محمد الموجي	مرسي جميل عزيز	فايزة أحمد	أنا قلبي إليك مياال
محمد عبد الوهاب	حسين السيد	فايزة أحمد	وقدرت تهجر
عصام توفيق	أمل الطائر	حكيم	إفرض
محمد سلطان	عمر بطيشة	فايزة أحمد	حبيبت وباداري عليك
محمد الموجي	مرسي جميل عزيز	فايزة أحمد	ليه يا قلبي
بليغ حمدي	عبد الوهاب محمد	وردة	أه لو قابلتك من زمان

شكر خاص

للشاعر الكبير.. الأستاذ/ أشرف الشافعي
على جهده الكبير في تأسيس أرشيف الأغنية العربية وصناعتها

للتواصل مع الكاتب:

 facebook.com/ahmed.medhat.1441

twitter.com/ahmedmedhat31

ahmed_medhat31@yahoo.com
